دولة فلسطين

دار الإفتاء الفلسطينية

غيض من روض المقال

إعداد: الشيخ إبراهيم خليل عوض الله

نائب المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مفتي محافظة رام الله والبيرة

الجزء الثاني

القدس

1444هـ - 2022م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس

1444هـ - 2022م

الإشراف العام

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

إعداد

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله

نائب المفتي العام / مفتي محافظة رام الله والبيرة

فريق العمل

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
مراجعة عامة	أ. د. حسن السلوادي
تدقيق لغوي	هالة عقل - إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران - حذيفة غنيمات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الصادق الأمين، إمام المهتدين، وقائد الغر الميامين، وبعد؛

فيسرنا أن نضع بين أيدي قارئينا الكرام الجزء الثاني من كتاب: (غيض من روض المقال)، الذي يحوي بين طياته عدداً من المقالات المتنوعة، روعي فيها الوضوح في العرض، والبساطة في الفكرة، والدقة في المعلومة، آملاً أن تكون عوناً للقارئ في تحقيق متطلبات دينه ودنياه، إن شاء الله تعالى.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز بالشكر والتقدير، وأخص بالذكر فضيلة الشيخ إبراهيم خليل عوض الله، نائب المفتي العام/ مفتي محافظة رام الله والبيرة، الذي أعد هذه المقالات، والإخوة والأخوات الذين صمموا المادة، وراجعوها، وحققوا آياتها، وخرجوا أحاديثها، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل أعمالهم في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بهذا الإصدار قارئيه،وكلنا أمل أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا،على الوجه الذي يرضيه سبحانه.

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

خطيب المسجد الأقصى المبارك

1444هـ - 2022م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، الحمد لله الذي أنار بالإسلام طريق الهداية والرشاد، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد البشير النذير، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فقد دأبت دار الإفتاء الفلسطينية على نشر الوعي الديني بالطريقة المثلى، ويسرني أن أضع بين أيديكم الكريمة الجزء الثاني من كتاب (غيض من روض المقال)، الذي يضم مقالات متنوعة، تشمل موضوعات تتعلق بالعقيدة، والعبادات، والسيرة النبوية، وغير ذلك، تم نشرها في أعداد مجلة الإسراء، حيث توزعت مواد هذا الكتاب بين فصول، وذلك على النحو الآتي: الأول/ منارات عقائدية، والثاني/ من وحي العبادات، والثالث/ من قبس التفسير، والرابع/ من معين الفتوى، والخامس، في رحاب شمائل النبي وسيرته، صلى الله عليه وسلم، والسادس/ إضاءات منوعة، وعرضت بطريقة ميسرة، وتمتاز بوضوح الفكرة، ودقة المعلومة، عسى الله أن يفيد منها خلقه، على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية والعمرية، وقد اعتمد في محتواه على جمع مقالات متناثرة، يجمعها قاسم مشترك، يتلخص في المساهمة في نشر الوعي الديني، الذي هو أبرز برامج دار الإفتاء الفلسطينية.

ويسرني في هذا المقام أن أشكر دار الإفتاء الفلسطينية، وعلى رأسها سماحة الشيخ محمد أحمد حسين/ المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية، على تبني هذا الإصدار وطباعته ونشره، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والتقدير البالغيْن من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتواضع، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم.

وأختم بالتأكيد على إيماننا بأن توفيقنا إلى الصواب فبنعمة من الله وفضل، وأما أخطاؤنا فهي من عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله

نائب المفتي العام

مفتي محافظة رام الله والبيرة

1444هـ - 2022م

الفصل الأول / منارات عقائدية

الرقم	المقال	الصفحة
1.	ما أحوجنا إلى دعاء الذين يقسمون على الله فيبرهم	7
2.	لقاء الغد ... وما أدراك ما غد	15
3.	شبكة الأمان الربانية	22
4.	وباء كورونا في ميزان الوقاية وتهدئة الروع في الإسلام	29
5.	فقراء إلى الله	38
6.	لا يرفع الله شيئاً من الدنيا إلا وضعه	48

ما أحوجنا إلى دعاء الذين يقسمون على الله فيبرهم

أما وقد ضاقت بنا الأحوال، وانقطعت السبل، إلا من فرج الله، وصرنا نردد دعاء المستضعفين: (اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، وأنت ربنا، إلى من تكلنا؟ إلى عدو بعيد يتجهمنا؟ أم إلى صديق قريب ملكته أمرنا؟ إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، غير أن عافيتك أوسع لنا، نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بنا غضبك، أو يحل بنا سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك). (*)

ما أصدق الدعاء حين يرفعه المضطر لحاجة ماسة وملحة، إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض وما فيهن، فهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه، وهو القائل سبحانه: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} (النمل:63) فلن ننجو مما نحن فيه من كرب ومصائب، إلا إذا التجأنا إلى الله، متضرعين خاشعين منيبين، فقد أصبحنا لقماً سائغة للآكلين، وطعاماً سهلاً للمتوحشين، لدينا الأعداد الوافرة، لكنها أشبه بغثاء السيل، لماذا؟ لأننا تكبنا الدرب، وألهتنا الدنيا عن المعالي، وانشغلنا بأنفسنا وذواتنا وأموالنا وأولادنا عن طاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وحبهما، وعمل الواجب تجاههما، فتحقق بنا وعيد الله، المتضمن في قوله عز وجل: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة:24)

* تفسير ابن كثير، 4/ 164.

كسب يثمر فساداً وهزائم:

ربط القرآن الكريم في كثير من آياته ظهور الفساد في واقع الناس بكسبهم السيئ، وزيغهم عن الحق، فقال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الروم: 41)

والفساد بابه واسع، وأشكاله عديدة ومتشعبة، فالأمراض الصحية، وضعف الروابط الأسرية، وتسلط الظالمين، ووقوع الهزائم، وهدر الثروات، وسيادة الجاهلين، وفساد القضاء، واضطراب الأحوال، وشيوع الريبة بدل الطمأنينة بين الأهل والأصدقاء والجيران، وغيره كثير من أشكال الفساد التي يمكن أن يتسبب الكسب الآثم بها، ويصدق في هذه السنة قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (الشورى:30)

ووفق ميزان المسلم واعتباراته، فإن الانحراف عن طاعة الله بالقول أو العمل خطيئة، قد تثمر فساداً وخللاً يصعب على غير العارفين بالله تشخيصه، فوكيع معلم الشافعي، أرجع ضعفاً عابراً انتاب حافظة تلميذه الشافعي إلى المعاصي، وعن هذا نطق الشافعي في أبيات من شعر حكمته، فقال:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

والناظر ببصيرة في أحوال العرب والمسلمين بميزان ربط فساد أحوالهم بكسب أيديهم، يجد مبررات جمة لهذا الربط، على رأسها استبعاد حكم الله وشرعه عن تسيير أمورهم، صغيرها وكبيرها، إلا على مستويات محدودة يترك شأنها لاختيارات مريديها من المسلمين، الذين يتعذر عليهم تسيير أمورهم كلها بالطريقة التي ترضي الله، حتى إن الإفصاح عن بيان حكم الشرع في بعض القضايا يكون مستهجناً، وفي مثل هذا الحال يصدق قوله صلى الله عليه وسلم: (بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) (*)

* صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً...

جاء في (مرقاة المفاتيح): أن معنى بدأ هنا أي ظهر، قيل: إن المراد هنا أن الإسلام لما بدأ في أول الوهلة نهض بإقامته، والذبّ عنه، قلة من الصحابة، فشردوهم عن البلاد، فأصبحوا غرباء، أو فيصبح أحدهم معتزلاً مهجوراً كالغرباء، ثم يعود آخراً إلى ما كان عليه، لا يكاد يوجد من القائلين به، إلا الأفراد، وهذا معنى قوله: (وسيعود)؛ أي في آخر الزمان كما بدأ، ويحتمل أن تكون المماثلة بين الحالة الأولى والأخيرة لقلة من كانوا يتدينون به في الأول، وقلة من يعملون به في الآخر.(*)

ولقن الله المسلمين درساً ميدانياً بفاجعتهم بجراح أُحد، التي انتابتهم بعد أن تفضل عليهم بنصره، وعلل سبحانه سبب ما أصابهم آنذاك بالتنازع في الأمر والعصيان، الذي وصف محصلته بالفشل، فقال جل شأنه: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (آل عمران: 152)

فالربط واضح بين سلوك العباد وكسبهم، والابتلاء بالمصيبة والشدة، حسب دلالات الآية الكريمة ومناسبة نزولها، ومن المفسرين من رأى أن قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} ليس بشرط، بل المعنى: ولقد صدقكم الله وعده، فنصركم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع؛ لأنه تعالى كان إنما وعدهم بالنصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة، فلما فشلوا وعصوا، انتهى النصر، وعلى هذا القول، يكون حرف (حتى) للانتهاء والغاية، بمعنى إلى، فيكون معنى قوله {حَتَّى إِذَا} إلى آن، أو إلى حين، ومنهم من وجد أن قوله: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} شرط، واختلفوا في جوابه على وجوه كثيرة. وبين الرازي في تفسيره، أن الله تعالى ذكر أموراً ثلاثة في هذه الآية الكريمة: أولها، الفشل، وهو الضعف. وثانيها، التنازع في الأمر، وهو يتعلق بمخالفة أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، لما أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم البتة، لكنهم خالفوا الأمر لما أمدهم الله بالنصر، ولم يطع معظمهم أمر أميرهم بلزوم البقاء في مكانهم، فهذا هو التنازع في الأمر.

* مرقاة المفاتيح: 1/ 361.

وفي المراد بالأمر ها هنا، وجهان:

أحدهما أنه بمعنى الشأن والقصة؛ أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن.

والثاني أنه الأمر الذي يضاده النهي، والمعنى وتنازعتم فيما أمركم الرسول، صلى الله عليه وسلم، به من ملازمة ذلك المكان.[1]

والأمر الثالث يتعلق بالفائدة في قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ}(آل عمران: 152)، ففيه تنبيه إلى عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد، كان من واجبهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها، سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم.[2]

فالرباط وثيق بين بذور الكسب، وثمار الصلاح أو الفساد، ويصدق في هذا قوله جل شأنه: { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} (الزلزلة:7 - 8)

وفي التنبيه إلى تحمل المرء نتائج ما قدمت يداه، ورد في روائع أمثال الحكمة (يداك أَوْكَتا، وفوك نفَخ) ومن الشعر المتضمن هذا المعنى، قول الكميت:

صَهٍ لِجَوَابِ مَا قُلْتُمْ وَأَوْكَتْ   أَكُفُّكُمُ عَلَى مَا تَنْفُخُونَا

إِذَا كَانَتْ جُلُودُكُم لِئَاماً   فَأَيَّ ثِيَابِ مَجْدٍ تَلْبَسُونَا

وشتان بين الذين يعملون الصالحات، من حيث الجزاء والثمار، وبين المفسدين في الأرض، الذين يزرعون الشر والآثام، فيحصدون التنغيص والنكد والضنك، والله جل في علاه ربط مخرجات معيشة الضنك، بمقدمات الإعراض عن ذكره، فقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه: 124)

فالفرق شاسع بين حصاد فريقي الطاعة والمعصية، وينبه سبحانه لذلك، فيقول عز وجل:{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(النحل: 76)، ويقول جل ذكره:{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} (هود: 24)

1. التفسير الكبير: 9/ 29 - 31

2. المصدر نفسه: 9/ 31.

تفريج الكروب بالتقوى:

في ظـل الابتـلاء بالمصائـب والهزائـم، يبحـث العقـلاء، وبخاصـة أصحـاب الحاجـات والمتضرريـن مـن الويـلات، عـن الـدواء، أو المخـرج مما ينتابهـم، ولذلـك سـبل كثـيرة، عمادهـا التقـوى والصـلاح، فكمـا أن الكسـب السيئ يثمـر فسـاداً ومصائـب وويـلات، فـإن الاسـتقامة والإنابة للـه تثمـر خـيراً لأصحابهـا، يجـدون حلـو مذاقهـا، وبلسـمتها لجراحهـم، حـين تتنابهـم الشـدائد، وتعصـف بهـم المحـن، فقـد أخـبر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـن ثلاثـة نفـر، مـن الأمـم السـابقة، الذيـن سـقطت عـلى بـاب الكهـف الـذي دخلـوه صخـرة سـدت بابـه، فأصابهـم لذلـك كـرب شـديد، فاختـاروا للخـلاص منـه أن يدعـو كل منهـم اللـه متشـفعاً بخير عمـل قدمـه في حياتـه، ففعلـوا، وانفـرج كربهـم، والقصـة رواهـا عَبْـد اللَّـهِ بْـن عُمَـرَ، رضي اللـه عنهمـا، قـال: (سـمعت رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول: انْطَلَـقَ ثَلَاثَـةُ رَهْـطٍ مِمَّـنْ كان قَبْلَكُـمْ، حـتى أَوَوْا الْمَبِيـتَ إلى غَـارٍ، فَدَخَلُـوهُ، فَانْحَـدَرَتْ صَخْـرَةٌ مـن الْجَبَـلِ، فَسَـدَّتْ عليهـم الْغَـارَ، فَقَالُـوا: إنـه لَا يُنْجِيكُـمْ مـن هـذه الصَّخْرَةِ إلا أَنْ تَدْعُـوا اللَّـهَ بِصَالِـحِ أَعْمَالِكُـمْ، فقـال رَجُـلٌ منهـم: اللهـم كان لي أَبَـوَانِ، شَـيْخَانِ كَبِـيرَانِ، وَكُنْـتُ لَا أَغْبِـقُ قَبْلَهُمَـا أَهْـلًا ولا مَـالًا، فَنَـأَى بي في طَلَـبِ شَيْءٍ يَوْمًـا، فلـم أُرِحْ عَلَيْهِمَـا حـتى نَامَـا، فَحَلَبْـتُ لَهُمَـا غَبُوقَهُمَـا، فَوَجَدْتُهُمَـا نَائِمَـيْنِ، وَكَرِهْـتُ أَنْ أَغْبِـقَ قَبْلَهُمَـا أَهْـلًا أو مَـالًا، فَلَبِثْـتُ وَالْقَـدَحُ عـلى يَـدَيَّ أَنْتَظِـرُ اسْـتِيقَاظَهُمَا، حـتى بَـرَقَ الْفَجْـرُ، فَاسْـتَيْقَظَا، فَشَرِبَـا غَبُوقَهُمَـا، اللهـم إن كنـت فَعَلْـتُ ذلـك ابْتِغَـاءَ وَجْهِـكَ، فَفَـرِّجْ عَنَّـا مـا نَحْـنُ فيـه مـن هـذه الصَّخْـرَةِ، فَانْفَرَجَـتْ شـيئاً لَا يَسْـتَطِيعُونَ الْخُـرُوجَ، قـال النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: وقـال الْآخَـرُ: اللهـم كانـت لي بِنْـتُ عَـمٍّ، كانـت أَحَـبَّ النـاس إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَـا عـن نَفْسِـهَا، فَامْتَنَعَـتْ مِـنِّي، حـتى أَلَمَّـتْ بهـا سَـنَةٌ مـن السِّـنِينَ، فَجَاءَتْـنِي، فَأَعْطَيْتُهَـا عِشْرِيـنَ وَمِائَـةَ دِينَـارٍ، عـلى أَنْ تُخَـلِّيَ بَيْـنِي وَبَيْـنَ نَفْسِـهَا، فَفَعَلَـتْ، حـتى إذا قَـدَرْتُ عليهـا، قالـت: لَا أُحِـلُّ لـك أَنْ تَفُـضَّ الْخَاتَـمَ إلا بِحَقِّـهِ، فَتَحَرَّجْـتُ مـن الْوُقُـوعِ عليهـا، فَانْصَرَفْـتُ عنهـا، وَهِـيَ أَحَـبُّ النـاس إِلَيّ، وَتَرَكْـتُ الذَّهَـبَ الـذي أَعْطَيْتُهَـا، اللهـم إن كنـت فَعَلْـتُ ابْتِغَـاءَ وَجْهِـكَ، فَافْـرُجْ عَنَّـا مـا نَحْـنُ فيـه، فَانْفَرَجَـتْ الصَّخْـرَةُ، غـير أَنَّهُـمْ لَا يَسْـتَطِيعُونَ الْخُـرُوجَ منهـا، قـال النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: وقـال الثَّالِـثُ: اللهـم إني اسْـتَأْجَرْتُ أُجَـرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُـمْ

أَجْرَهُمْ، غير رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الذي له وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ، حتى كَثُرَتْ منه الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ؛ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فقلت له: كُلُّ ما تَرَى من أَجْرِكَ؛ من الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ؛ لَا تستهزئ بِي، فقلت: إني لَا أستهزئ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ، فلم يَتْرُكْ منه شيئاً، اللهم فَإِنْ كنت فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ)[1]

فهذه القصة تلفت الانتباه والأنظار، إلى أن البر والإحسان يجلبان الفرج، كيف لا؟ والله تعالى قرر مبدأ تفريج الكرب بالتقوى، فقال عز وجل: {...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} (الطلاق:2 - 3)

دعاء المغمورين أو المدفوعين بالأبواب:

من دروب تفريج الكرب، اللجوء إلى أولياء الله الصالحين، طلباً لدعائهم، وهو درب مشروع، وثبتت نجاعة سلوكه، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، نبه إلى أهمية دعاء الصالحين في تحقق الاستجابة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[2]

فالعبرة عند الله والاعتبارات ليست مرهونة بأصحاب الذوات والمال والمقامات، وإنما هي للمقبولين لديه سبحانه، بتقواهم وصلاحهم، وصفاء سرائرهم، حتى لو كانوا من شريحة الضعفاء، أو المدفوعين في الأبواب، فعن حَارِثَةَ بن وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)[3]

و(ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ) الَّذِي يستضعفه النَّاس، وَيَحْتَقِرُونَهُ؛ لضعف حَاله فِي الدُّنْيَا، أو متواضعٍ متذلل، خامل الذكر، و(عُتُلٍّ) هو الغليظ الشديد العنف، و(جَوَّاظٍ) المختال في مشيته، والمراد أن أغلب أهل الجنة، وأغلب أهل النار، وليس المراد الاستيعاب في الطرفين.[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك الأجير أجره...
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة ن والقلم، باب (عتل بعد ذلك زنيم) (القلم: 13)
4. عمدة القاري: 22/ 140

وعن سَهْلٍ، قال: مَرَّ رَجُلٌ على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم ، فقال: (ما تَقُولُونَ فِي هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ، إن خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قال أَنْ يُسْتَمَعَ، قال: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ من فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فقال: ما تَقُولُونَ فِي هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قال: أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: هذا خَيْرٌ من مِلْءِ الأرض مِثْلَ هذا) [1]

ومن المؤكد أن تحديد الذين يقسمون على الله فيبرهم، مرجعه إلى الله العالم بالسرائر، وما تخفي الصدور، وليس لأحد من الخلق أن يتألى (يحلف) على الله، فيقرر الأشخاص المقبولين عند الله، والمرفوضين لديه سبحانه، فعلم ذلك له سبحانه وحده، وكما قيل في الضعفاء، أن منهم من لو أقسم على الله لأبره، قيل ذلك أيضاً في بعض أصحاب المقامات والأنساب، فعن أَنَس: (أَنَّ الرُّبَيِّعَ -وَهِيَ ابْنَةُ النَّضْرِ- كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا الْأَرْشَ، وَطَلَبُوا الْعَفْوَ، فَأَبَوْا، فَأَتَوْا النبي، صلى الله عليه وسلم ، فَأَمَرَهُمْ بِالْقِصَاصِ، فقال أَنَسُ بن النَّضْرِ: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يا رَسُولَ اللَّهِ؟! لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فقال: يا أَنَسُ؛ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ، وَعَفَوْا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم : إِنَّ من عِبَادِ اللَّهِ من لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لَأَبَرَّهُ. زَادَ الْفَزَارِيُّ عن حُمَيْدٍ عن أَنَسٍ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ، وَقَبِلُوا الْأَرْشَ). [2]

والبحث عن المغمورين البسطاء للتشفع إلى الله بدعائهم، أمر ورد في سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح، ففي صحيح مسلم، باب فَضَائِلِ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ، رضي الله عنه، وفيه عن أُسَيْرِ بن جَابِرٍ: (أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَفَدُوا إلى عُمَرَ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كان يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فقال عُمَرُ: هل هاهنا أَحَدٌ من الْقَرَنِيِّينَ؟ فَجَاءَ ذلك الرَّجُلُ، فقال عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم ، قد قال: إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ من الْيَمَنِ، يُقَالُ له أُوَيْسٌ، لَا يَدَعُ بِالْيَمَنِ غير

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.
2. صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية.

أُمٍّ لـه، قـد كان بِـهِ بَيَـاضٌ، فَدَعَـا اللَّـهَ، فَأَذْهَبَـهُ عنـه، إلا مَوْضِـعَ الدِّينَـارِ، أو الدِّرْهَـمِ، فَمَـنْ لَقِيَـهُ مِنْكُـمْ فَلْيَسْـتَغْفِرْ لَكُـمْ). [1]

وعـن سَـعِيدٍ الْجُرَيْـرِيِّ، بهـذا الإسـناد عـن عُمَـرَ بـن الْخَطَّـابِ، قـال: (إِنِّي سـمعت رَسُـولَ اللَّـهِ، صلى الله عليـه وسـلم، يقـول: إِنَّ خَـيْرَ التَّابِعِـينَ رَجُـلٌ يُقَـالُ لـه أُوَيْـسٌ، وَلَـهُ وَالِـدَةٌ، وكان بِـهِ بَيَـاضٌ فَمُـرُوهُ، فَلْيَسْـتَغْفِرْ لَكُـمْ)[2]

خاتمة:

مـا أحـوج العـرب والمسـلمين اليـوم لإعـادة قـراءة أحوالهـم، وتشـخيص أمراضهـم، بهدف علاجهـا، والنهـوض بهـا، وتخليصهـا مـن مراتـع الهزائـم، ومصائـب الضعـف والخـوار، وحسـب مـا سـلف مـن بيـان، نجـد لزامـاً عـلى أمتنـا أن تعـود إلى اللـه بصـدق وإخـلاص وإيمـان، عـودة نقيـة مـن شـوائب الخلـط بـين الطاعـة والمعصيـة، تحتكـم فيهـا إلى أمـر اللـه جـلَّ في عـلاه، مستشـفعة بالصالحـين مـن أبنائهـا، ولـو كانـوا مـن شريحـة المغموريـن الضعفـاء، فقـد يكـون منهـم مـن لـو أقسـم عـلى اللـه أن ينصرنـا، فيـبر اللـه قسـمه، فيفـرج كربنـا، ويرفـع مقتـه وغضبـه عنـا، ويعيـد لنـا المجـد الموعـود، ومـا ذلـك عـلى اللـه بعزيـز.

---

1. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أويس القرني، رضي الله عنه.
2. التخريج نفسه.

لقاء الغد ... وما أدراك ما غد

تتوزع الأمور زمنياً بين ثلاث مراحل، الماضي والحاضر والمستقبل، ويقسم أهل اللغة الأفعال إلى ماض ومضارع، فما حدث وانتهى فهو الماضي، وما يحدث الآن أو متوقع أن يحدث في المستقبل هو المضارع، وموضوع هذه الكلمة يدور حول مستقبل القادم من الأمور، والأحداث المصيرية، التي يرتبط جلُّها بما سيكون في غد، المعبر عن أحداث الآخرة، بعد انتهاء أحداث اليوم، المعبر عما يجري في الحياة الدنيا، وذلك من خلال ما تيسر من تتبع لكلمة (غد)، في ضوء استخدامها في القرآن الكريم، وسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بهدف استخلاص بعض الدروس والعبر من ذلك، حيث جاء الذكر القرآني لغد في سياقات متعددة، منها:

نظرُ المرء لمَّا يقدِّم لِغَدٍ:

يحث الله في قرآنه الكريم الإنسان أن ينظر خلال سعيه في الحياة الدنيا إلى ما قدم لغد، فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(الحشر: 18)

فالله تعالى يأمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالتقوى، وبالنظر إلى ما يقدمون لغد، الذي هو الجدير بالاهتمام الأعظم؛ لأن فيه خلوداً في نعيم أو جحيم، بينما اليوم غروب شمسه قريب، مهما طالت أعوامه وشهوره ولياليه، والناس - واقعياً - تتعدد أعمالهم وأقوالهم وتتنوع في حياتهم الدنيا، السابقة لغد، فمنهم من يتطلع إلى تحصيل مصالحه فيها فحسب،

ومنهم من يكرس جهده للعمل إلى الآخرة فحسب، ومنهم من يوازن بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، ويوفق بينهما، في أفعاله وأقواله، والله سبحانه وتعالى تعرض لذكر مريدي الدنيا، ومريدي الآخرة، فقال عز وجل: {...مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ...} (آل عمران: 152)، والفرق بين الصنفين كبير وشاسع؛ في المنهج، والسلوك، والقيم، والاعتبارات، والموازين، ثم في المصير، واللبيب بالإشارة يفهم، فكيف إذا كان الشرح والتوضيح؟!

لا يعني هذا قصر العمل على ما يكون لغد، بل هناك معادلة متوازنة شرعها الله تعالى لعباده، تتلخص فيها الأوامر بالسعي إلى ما ينفع في غد من الأعمال والجهود، مع التنبيه إلى مشروعية الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، فيقول تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(القصص: 77)

إذ قد يخطئ بعض الناس الفهم فيهجرون الدنيا بحجة التفرغ للعناية بأمور الآخرة، والصحيح أن يترامن جل الاهتمام بالآخرة، ويتوافق مع أخذ النصيب المتيسر من حظوظ الدنيا، ومعظم الناس ينشغلون عن العمل لغد بالعمل على تحصيل منافع الدنيا ومصالحها وملذاتها، وهم بذلك في غفلة يعمهون، والتوجيهات الربانية لهم بهذا الصدد تعددت أساليبها ومناسباتها، لكن مؤداها واحد، يتلخص في العناية بالتخطيط والتنفيذ للأعمال والأقوال والمواقف، التي تنجي صاحبها يوم غد، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، كما جاء في القرآن الكريم من دعاء إبراهيم، عليه السلام، فقال تعالى على لسانه: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ* وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}(الشعراء: 87 - 91)

الصحابة والنظر إلى غد:

الصحابة، رضي الله عنهم، في أقوالهم وأعمالهم ومواقفهم، كانوا يعبرون عن نظر عميق لغد، وإيمان واضح بحقائق مجريات الدنيا والآخرة، وخلال الاستعداد لأول معركة فاصلة بين المسلمين ومشركي قريش، وهي معركة بدر الكبرى، صدرت عن بعضهم مواقف من هذا القبيل، منها ما كان من الصحابي عمير بن الحمام، الذي اشتهر قوله: "بخ بخ"، حين عبر به عن حرصه على المسارعة إلى نيل نصيبه في الآخرة، ففي صحيح مسلم، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ، قال: يقول: عُمَيْرُ بن الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ؟ قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قال: لَا والله يا رَسُولَ اللَّهِ، إلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِهَا، قال: فَإِنَّكَ من أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ من قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتِي هذه، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قال: فَرَمَى بِمَا كان معه من التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتى قُتِلَ) (*)

الثناء الرباني على العاملين لغد:

يثني الله عز وجل في كتابه الكريم على الذين لا ينشغلون بالدنيا وزينتها عن العمل للآخرة، فيقول جل شأنه: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}(النور: 37)

يذكر الرازي الاختلاف في قوله تعالى: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ} فبعضهم يقول: نفى كونهم تجاراً وباعة أصلاً، وقال بعضهم: بل أثبتهم تجاراً وباعة، وبيَّن أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات، وبيّن الرازي أن هذا قول الأكثرين، وينقل عن الحسن قوله: (أما والله إن كانوا ليتجرون، ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء، فقاموا بالصلاة والزكاة). وعن سالم: (نظر إلى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم، وذهبوا إلى الصلاة، فقال: هم الذين قال تعالى فيهم: {لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ})، وعن ابن مسعود

* صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

مثله، ويرجح هذا القول على الأول؛ لأنه حسب قوله، لا يقال إن فلاناً لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت، إلا وهو تاجر، وإن احتمل الوجه الأول.[1]

وجاء في صحيح البخاري، بَاب التِّجَارَةِ في البر، وَقَوْلِهِ عز وجل: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللَّهِ}، وقال قَتَادَةُ: (كان الْقَوْمُ يَتَبَايَعُونَ وَيَتَّجِرُونَ، وَلَكِنَّهُمْ إذا نَابَهُمْ حَقٌّ من حُقُوقِ اللَّهِ، لم تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ، ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللَّهِ، حتى يُؤَدُّوهُ إلى اللَّهِ).[2]

جزاء الغد ينسجم مع واقع الأمس واليوم:

عدل الله يقتضي جزاء المحسن بالإحسان، والمسيء بالعقاب، إلا أن يعفو الله تعالى عنه، وهو سبحانه يقول:{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}(الشورى: 20)

فالله تعالى يحدد في هذه الآية الكريمة جزاء الفريقين، فمن يريد الدنيا يعطِه شيئاً منها، ويحرمه من حظ الآخرة؛ بسبب رفضه العمل لها وهو في الدنيا، بينما الذي قصد الآخرة وعمل لها، فالله يضاعف له الثواب، ويجزيه حسن المآب، وفي التفسير، أن المراد بحرث الآخرة هو العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعار من حرث الأرض؛ لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل، والمراد بالزيادة في الحرث، تضعيف الثواب، وقوله تعالى: {نُؤْتِهِ مِنْهَا}: أي نؤته منها ما قدر له؛ لأن كل أحد لا بد أن يصل إلى ما قسم.[3]

فالصالح الكيِّس يعمل لآخرته، ويسعى لها سعيها، في دعائه ونشاطه، تأسياً بالرسول، صلى الله عليه وسلم ، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم ، يقول: (اللهم أَصْلِحْ لي دِينِي، الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ، التي فيها مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي، التي فيها معادي، واجعل الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كل خَيْرٍ، واجعل الْمَوْتَ رَاحَةً لي من كل شَرٍّ).[4]

---

1. التفسير الكبير: 24/ 5.
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب التجارة في البر.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 19.
4. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

الوعيد بالآخرة:

لمزيد من التنبيه على خطورة الاستهانة بأمر الآخرة، المعبر عنها أحياناً باصطلاح (غد) هناك كثير من حالات الوعيد الرباني بما سيكون في غد، من ذلك قوله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} (القمر: 26) جاء هذا الوعيد في سياق جانب من قصة صالح، عليه السلام، وحواره وقومه ثمود، فقد دعا قومه إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، إلا أنهم كذبوه، وناصبوه العداء، وعن هذا يقول تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ* فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ* أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ* سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ* إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ* وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ* فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}(القمر: 23 - 32)

فهم في يومهم الدنيوي صالوا وجالوا، وتعاملوا بالسباب والشتيمة للصالحين، ووجهوا العذاب والكيد لأكرم كرام الخلق، نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ومن آمنوا معه، فقالوا عنه: {كَذَّابٌ أَشِرٌ} أي متجاوز في حد الكذب.(*)

فتهددهم الله تعالى بعذاب غد، جزاء كذبهم وتكذيبهم نبيهم الكريم، عليه الصلاة والسلام.

ربط فعل الغد بالمشيئة الربانية:

نهى الله تعالى عن الحديث عن عزم إنشاء فعل مستقبلي إلا بربطه بمشيئة الله تعالى، فقال جل شأنه: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً}(الكهف: 23)

فالإنسان لجهله بما سيحدث في الغد من أمور الغيب، ولعجزه عن التحكم الجازم بما سيكون، لا بد له من ربط قيامه بشيء من أمور الغد أو المستقبل بالمشيئة الربانية، لأن الله تعالى هو القاهر والقادر والعليم والحكيم، والخلق مهما بلغوا من القدرة والعلم، فإن

* تفسير ابن كثير: 4/ 266.

النقـص يعتريهـم، حـتى أمـر أنفسـهم لا يملكونـه، فقـد يعطلهـم عـن فعـل مـا يريـدون معـوق لـم يكـن في واردهـم، إذ تـأتي كثـير مـن المفاجـآت مـن حيـث لا يحتسـبون، فكـم مـن سـفن جـرت الريـاح بغـير مـا اشـتهت، حـتى إن خيـار الخلـق وأنبيـاء اللـه وأوليائـه، ليـس لهـم مـن علـم الغيـب أو فعلـه شيء إلا أن يشـاء اللـه تعـالى لهـم ذلـك، وليـس لأحـد مـن الخلـق أن يدّعـي علـم الغيـب، حـتى الرسـل، عليهـم السـلام، يعلمـون مـن الغيـب القـدر الـذي يأتيهـم بـه الوحـي عـن اللـه تعـالى فقـط، فعـن الرُّبَيِّـعِ بِنْـتِ مُعَـوِّذٍ، قالـت: (دخـل عَـلَيَّ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، غَـدَاةَ بُـنِيَ عَـلَيَّ، فَجَلَـسَ عـلى فِـرَاشِي، كَمَجْلِسِـكَ مِـنِّي، وَجُوَيْرِيَـاتٌ يَضْرِبْـنَ بِالـدُّفِّ يَنْدُبْـنَ مـن قُتِـلَ مـن آبَائِهِـنَّ يـوم بَـدْرٍ، حـتى قالـت جَارِيَـةٌ: وَفِينَـا نَـبِيٌّ يَعْلَـمُ مـا في غَـدٍ، فقـال النبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لَا تَقُـولِي هَكَـذَا، وَقُـولِي مـا كُنْـتِ تَقُولِـينَ)[1]

وعـن عائشـة، رضي اللـه عنهـا، قالـت: (وَمَـنْ زَعَـمَ أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، كَتَـمَ شـيئاً مـن كِتَـابِ اللَّـهِ، فَقَـدْ أَعْظَـمَ عـلى اللَّـهِ الْفِرْيَـةَ، وَاللَّـهُ يقـول: {يـا أَيُّهَـا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مـا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مـن رَبِّـكَ وَإِنْ لـم تَفْعَـلْ فمـا بَلَّغْـتَ رِسَـالَتَهُ} قالـت: وَمَـنْ زَعَـمَ أَنَّـهُ يُخْـبِرُ بِمَا يَكُـونُ في غَـدٍ، فَقَدْ أَعْظَـمَ عـلى اللَّـهِ الْفِرْيَـةَ، وَاللَّـهُ يقـول: قُـلْ لَا يَعْلَـمُ مـن في السـماوات وَالْأَرْضِ الْغَيْـبَ إلا اللـه). [2]

وعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (قـال سُـلَيْمَانُ بـن دَاوُدَ، عَلَيْهِمَـا السَّـلَام: لَأَطُوفَـنَّ اللَّيْلَـةَ عـلى مِائَـةِ امْـرَأَةٍ، أو تِسْـعٍ وَتِسْـعِينَ، كُلُّهُـنَّ يَـأْتِي بِفَـارِسٍ يُجَاهِـدُ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، فقـال لـه صَاحِبُـهُ: قـل: إن شَـاءَ اللـه، فلـم يَقُـلْ إن شَـاءَ اللـه، فلم يَحْمِـلْ مِنْهُـنَّ إلا امْـرَأَةٌ وَاحِـدَةٌ، جَـاءَتْ بِشِـقِّ رَجُـلٍ، وَالَّـذِي نَفْـسُ مُحَمَّـدٍ بيـده، لـو قـال: إن شَـاءَ اللـه، لَجَاهَـدُوا في سَـبِيلِ اللَّـهِ فُرْسَـانًا أَجْمَعُـونَ)[3]

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: {ولقد رآه نزلة أخرى} وهل رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، ربه ليلة الإسراء؟
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد.

فَعِلْمُ ما سيكون غداً محصور بالله وحده، وهو القائل جل شأنه: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان: 34)

وعن ابن عُمَرَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ؛ لَا يَعْلَمُهَا إلا الله، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يَكُونُ في غَدٍ، ولا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يَكُونُ في الْأَرْحَامِ، ولا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وما يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ) (*)

فالإيمان بحقيقة حصر علم الغيب بالله تعالى، وضرورة العمل لغد، وربط النوايا المستقبلية بالمشيئة الربانية، كل ذلك جدير باهتمام المسلم، مع التأكيد على أن هذه الحقائق تتقاطع مع أهمية السعي لإعمار الدنيا، والتخطيط لذلك، وممارسته بأنجع السبل والأساليب، فالأمر فيه توازن، لا تعارض ولا تناقض، سائلين الله العلي القدير، أن يوفقنا لخير العمل، ولما ينفعنا في ديننا وغدنا ودنيانا.

* صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، وقال أبو هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم: خمس لا يعلمهن إلا الله.

شبكة الأمان الربانية

يتردد في الأوساط الفلسطينية المحلية والعربية بشكل عام، الرسمية والشعبية، ذكر مصطلح شبكة الأمان المراد توفيرها من طرف الدول العربية الشقيقة، تحت غطاء الجامعة العربية، لسد الاحتياجات المالية للشعب الفلسطيني عند قنص حقوقه المالية المطلوب تحصيلها من الجانب الإسرائيلي، فتعقد اجتماعات عالية المستوى لهذه الغاية، وتتناقل وسائل الإعلام أخباراً عن الحجم المالي الذي ستوفره شبكة الأمان العربية بهذا الصدد، وبغض النظر عما يصل أو لا يصل من تلك المبالغ، فإن موضوع شبكة الأمان جدير أن يقرأ من وجه آخر، فهذه الشبكة يجب أن تطلب ممن بيده ملكوت السماوات والأرض، وعنده خزائنهما، التي لا تنضب، ولا تُنقصها المليارات إلا كما يَنقص المخيط إذا أدخل في البحر وأخرج منه، مصداقاً لقوله تعالى في الحديث القدسي: (يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ).(*)

فشبكة الأمان البشرية على أهميتها لا تبلغ في حدها الأعلى شيئاً يذكر من شبكة الأمان الربانية؛ لأن الأولى تستند إلى موازنات مقيدة بأسقف مالية محددة، والأخرى معينها لا ينضب أبداً، وفي مثل هذا يقول الله تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (النحل: 96)

والهدف من التطرق إلى هذا الموضوع على هذا النحو يتلخص في التنبيه إلى أهمية اللجوء إلى الله العلي القدير، وليس التقليل من أهمية قيام الأشقاء بدعم أهلهم الذين

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

يرابطون على ثغور الأمة، وينافحون عن مقدساتها، ومسرى نبيها، صلى الله عليه وسلم، إذ من المفترض في العرب والمسلمين أن لا ينتظروا استجداء إخوانهم المحاصرين بسلاسل المحتل الذي يغتصب أرضهم، وينتهك حرمات مقدسات العرب والمسلمين، ويحكم حول رقاب إخوانهم حصاراً خانقاً، يقيد من خلاله حركتهم، ويعرقل نمو اقتصادهم، بل يمنع عنهم في كثير من الأحيان الماء والكهرباء والقوت والدواء، ويحاول جعل حقهم في العيش الكريم مسألة اجتهادية تخضع لنظر أصحاب الأهواء والأمزجة.

ومن المأمول أن تُفهَمَ مرامي الحديث عن شبكة الأمان الربانية، والحث على الصبر في مواجهة المحن على الوجه الصحيح، فالمسلمون ليسوا هواة فقر، وليسوا دعاة إلى الكسل والخمول والاستسلام لتلقي ضرب الخصوم، وإنما الإيمان والصبر مطلوبان كمكونين رئيسين لبنية المنافحين عن قضاياهم المصيرية، أمام أعداء يكيدون لهم شر الكيد، وإلا فديننا يعلمنا الاستعاذة من الفقر وفتنته، كما يعلمنا الاستعاذة من فتنة الغنى، حرصاً على بقائنا أقوياء، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: (اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من الْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللهم اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي من الْخَطَايَا، كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كما بَاعَدْتَ بين الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ). (*)

الأمان الرباني ضد الحصار الاقتصادي الظالم:

لا يختلف مخلصان مطّلعان على مجريات الأمور حول مدى الظلم الذي يقترفه المحتل الغاصب ضد أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل، ومن صور هذا الظلم؛ فرض الحصار الاقتصادي الخانق عليه، وحجز أمواله المستحقة له، وذلك كأسلوب عقابي يهدف إلى تركيعه، ولكن الشعب المؤمن بربه ومبادئه وثوابته لا يخضعه الجوع، ولا يَرتبك أمام الخصاصة لينهار،

* صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم.

ولا يفرط -لا قدر الله- في حقوقه المشروعة، فمن هذا الشعب الشهيد الذي ارتقى إلى العلا مضحياً بأغلى ما يملك الإنسان في سبيل الله، ومنهم الأسير الذي يقبع في سجون الاحتلال، عقاباً على نضاله ودفاعه عن شعبه وأرضه ومقدساته، ومنهم التاجر المحاصر بالضرائب، والجدار الذي يمنع الناس من الوصول إلى متاجره، ومحوط بالحواجز التي تعرقل تحركه وبضائعه، ومنهم الموظف الذي يحرم من الحصول على حقه في راتبه في الوقت المحدد لصرفه، ومنهم العامل الذي يحرم من فرص العمل إلا من خلال فوهة قارورة المحتل، كل ذلك وغيره من نتاج الظلم الممارس ضد شعبنا، من قبل المحتل الغاصب لأرضنا، لن يضعف عزيمته، ولن يزعزع إيمانه ورضاه بقضاء الله وقدره، فهو على يقين بأن شبكة الأمان الربانية ستتصدى لحرب الضغط الاقتصادي الظالم الممارس ضده، والله تعالى يقول: {...وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.(التوبة: 28)

فالإغناء والإفقار لا يملك أمرهما إلا الله، وإن ظهر للناس أن زمامهما ممسكان بأيدي قوى بشرية، وهي في الحقيقة لا تملك زمام أمرها، وإنما هو مملوك لله الواحد القهار، الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.(آل عمران:26)

والله هو الرزاق ذو القوة المتين، يرزق من يشاء بغير حساب، وقد أقسم سبحانه بذاته على حقيقة تقدير الأرزاق، فقال تعالى: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}. (الذاريات: 22 - 23)

والله تعالى ردَّ على أرباب الحرب الاقتصادية، مبيناً جهلهم إذ غاب عن أذهانهم وهم يشنونها أن المانع والمعطي هو الله، لا إله إلا هو، وقد سجل القرآن الكريم الرد المفحم على المنافقين الذين اتخذوا قرار مقاطعة المسلمين اقتصادياً بهدف زعزعتهم عن دينهم ومبادئهم، فقال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}. (المنافقون:7)

فالله يملك خزائن السماوات والأرض، وليس ميزانيات منهكة، أو مثقلة بالعجز والديون، والله تكفل بأرزاق أهل الأرض والسماء، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سبأ:24).

فالله بيده حقيقة التحكم بزمام الأرزاق، وليس لأحد سواه شيء من ذلك، وفي هذا يقول عز وجل: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}. (الملك:21)

الحماية الربانية من العدوان:

الشعب الفلسطيني القابع تحت حراب المحتل الغاصب، يعاني الأمرين صباح مساء، لكنه لم يحبط، ولن يقنط من الأمل بالنصر المنتظر؛ لأنه على يقين بأن الله لن يضيعه أبداً، وهو القائل سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (الحج: 38)، ومما سجله القرآن الكريم من وقائع عاشها أوائل المسلمين، تلك التي كانوا فيها قليلاً مستضعفين، فأيدهم الله بنصره المؤزر، وفي هذا يقول الله تعالى في محكم التنزيل:{وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الأنفال: 26)

وفي تفسير قوله تعالى:{ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ} قال ابن عباس: نزلت في المهاجرين خاصة، كانت عدتهم قليلة، وهم مقهورون في أرض مكة، يخافون أن يستلبهم المشركون.

وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل مكة، قاله ابن عباس. والثاني: فارس والروم، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنهم المشركون الذين حضروا بدراً، والمسلمون قليلون يومئذ.

وقوله تعالى: {فَآوَاكُمْ} فيه قولان: أحدهما: فآواكم إلى المدينة بالهجرة، قاله ابن عباس والأكثرون. والثاني: جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين، ذكره الماوردي.

وفي قوله تعالى: {وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ} قولان: أحدهما: قواكم بالملائكة يوم بدر، قاله الجمهور. والثاني: عضدكم بنصره في بدر وغيرها.

وفي قوله تعالى: { وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} قولان: أحدهما: أنها الغنائم التي أحلها لهم، قاله السدي. الثاني: أنها الخيرات التي مكنهم منها، ذكره الماوردي. (*)

وعلى العموم، فإن المؤمن في كل زمان ومكان على يقين أن الله معه، وأنه ناصره على أعدائه، ووعد الله المؤمنين بالنصر والتأييد نقلته آيات القرآن الكريم عن رب العزة، ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ*إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ* أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ* وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ* سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. (الصافات: 171 - 182)

فالمطلوب من أهل فلسطين المرابطين على ثغور الأمة، المحافظة على رباطة الجأش، والتحلي بمزيد من الصبر، على درب الأخيار من أتباع الأنبياء والرسل الكرام، عليهم السلام، فما يصيب شعبنا اليوم، أصاب الذين من قبلهم، فما وهنوا له، فليكونوا مثلهم في الصبر والثبات؛ ليشملهم مدد الله تعالى وثناؤه، والله تعالى يقول: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}. (آل عمران: 146)

الربانيون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون:

ورد في التفسير الكبير، أن الربانيين هم الأئمة والولاة، والربيون الرعية، ويبين الرازي أن الله تعالى مدح الربيين بنوعين؛ أولاً بصفات النفي، وثانياً بصفات الإثبات، أما المدح بصفات النفي، فهو قوله تعالى: { فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} (آل عمران: 146)، ولا بد من بيان الفرق بين هذه الأمور الثلاثة، وينقل الرازي عن صاحب الكشاف أن ما وهنوا عند إشاعة خبر قتل النبي، صلى الله عليه وسلم، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسولهم، صلى الله عليه وسلم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم للكفار حتى أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي، وطلب الأمان من أبي سفيان.

---

* زاد المسير: 3 /343.

ويحتمل أيضاً أن يفسر الوهن باستيلاء الخوف عليهم، ويفسر الضعف بأن يضعف إيمانهم، وتقع الشكوك والشبهات في قلوبهم، والاستكانة هي الانتقال من دينهم إلى دين عدوهم.

وفيه وجه ثالث، وهو أن الوهن ضعف يلحق القلب، والضعف المطلق هو اختلال القوة والقدرة بالجسم، والاستكانة هي إظهار ذلك العجز، وذلك الضعف.

ويرى الرازي أن كل هذه الوجوه حسنة محتملة.

قال الواحدي: الاستكانة الخضوع، وهو أن يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد .

ثم قال تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} والمعنى: أن من صبر على تحمل الشدائد في طريق الله، ولم يظهر الجزع والعجز والهلع، فإن الله يحبه، ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه، وإعزازه وتعظيمه، والحكم له بالثواب والجنة، وذلك نهاية المطلوب.[1]

وإذا أحب الله عبده، سدد خطاه ووفقه، وأعلن الحرب على أعدائه، ففي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).[2]

وورد نفي الخوف والحزن عن أولياء الله في عدد من الآيات القرآنية، التي منها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: 277)، وقوله تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.(يونس: 62)

---

1. التفسير الكبير: 9/ 23.

2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

فأولياء الله المؤمنون برسله وكتبه، والمستقيمون على هديه، يحفظهم الله تعالى من الخوف، ويقيهم مآسي الحزن، وهو القائل جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}. (الأحقاف: 13)

وامتنَّ الله على قريش بأن هيأ لها الأمن والإطعام، فقال تعالى:{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}. (قريش: 1 - 4)

سائلين الله العلي القدير أن يهيئ لشعبنا وأمتنا الأمن من الخوف، وأن ينعم علينا بالخلاص من الجوع والفقر والحاجة؛ لنكون أقوياء في عقيدتنا وعقولنا وعتادنا، ونكون من أصحاب الحظوة في نيل حبه سبحانه وتعالى، مصداقاً لما جاء في حديث نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، إذ قال: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلي اللَّهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). (*)

* صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

وباء كورونا في ميزان الوقاية وتهدئة الروع في الإسلام

مع انتشار وباء "كورونا" الذي أثار الفزع في معظم أنحاء العالم، وكشف عنه مؤخراً في الصين، التي واجهت صعوبات جمة في مقاومته، على الرغم مما تتمتع به من عظمة اقتصادية وصناعية، والحديث عن هذا الوباء محاوره كثيرة، وتتوزع بين مناحٍ عدة، ولصعوبة الإحاطة الشاملة بالحديث عن هذا الوباء، نود في هذه الكلمة التركيز على جزء منها، يتعلق معظمه بالإسلام والمسلمين، فالمسلمون أينما وجدوا يمثلون جزءاً من مجموع الناس الذين يسكنون العالم الشاسع، يشاركونهم المعاناة من الكوارث والأوبئة، لكنهم يحتفظون بمنظومة مبادئ وقيم يؤمنون بها، ويفترض أن يعملوا وفقها، لأنها تفيدهم في الوقاية من فتك الأوبئة، وفي مواجهتها بجلد وصبر ورباطة جأش، وفيما يأتي وقفة عند هذين البعدين.

الأوبئة بين العذاب والرحمة:

من الأوبئة الفتاكة التي كان للإسلام منها مواقف وتوجيهات، الطاعون، الذي وصف بوصفين متباينين، حسب السياق والحال، فوصف بالعذاب والرحمة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، قالت: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ الله على من يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ليس من أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إلا ما كَتَبَ الله له، إلا كان له مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ)[1]

فوباء الطاعون رحمة للمؤمنين، رغم أنه عذاب، ويستخلص العيني من هذا الحديث، بأن فيه بيانَ عنايةِ الله تعالى بهذه الأمة المكرمة، حيث جعل ما وعد عذاباً لغيرهم، رحمة لهم.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
2. عمدة القاري:16/ 59.

ومن خصوصية أمة الإسلام بالنسبة إلى الطاعون، أن الله حمى المدينة المنورة منه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (على أَنْقَابِ[1] الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، ولا الدَّجَّالُ)[2]

وَوُصَفَ وباء الطاعون بالرجس، كما جاء في حديث عَامِرِ بن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، عن أبيه، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ: (مَاذَا سَمِعْتَ من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في الطَّاعُونِ؟ فقال أُسَامَةُ: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ على طَائِفَةٍ من بَنِي إِسْرَائِيلَ -أو على من كان قَبْلَكُمْ- فإذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه، قال أبو النَّضْرِ: لَا يُخْرِجْكُمْ إلا فِرَارًا منه)[3]

وقع الرجس بالسين موضع الرجز بالزاي(رجز)، والذي بالزاي هو المعروف بالعذاب، والمشهور في الذي بالسين أنه الخبيث، أو النجس، أو القذر، وجزم الفارابي والجوهري بأنه يطلق على العذاب أيضاً، ومنه قوله تعالى: {...وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} (يونس:100) وحكاه الراغب أيضاً ...[4]

جاء في التيسير بشرح الجامع الصغير، أن الطاعون كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء من كافر وفاسق، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين من هذه الأمة، وذلك من خصوصياتها، فليس من أحد - أي مسلم- يقع الطاعون في بلد هو فيه، فيمكث في بلده صابراً غير منزعج، ولا قلق، محتسباً - أي طالباً للثواب على صبره - يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، فلو مكث، وهو قلق متندم على عدم الخروج، ظاناً أنه لو خرج لم يقع فيه، فإنه يحرم أجر الشهادة، وإن مات به، إلا كان له مثل أجر شهيد.

وحكمة التعبير بالمثلية مع التصريح بأن من مات به شهيد، أن من لم يمت به له مثل أجر شهيد، وإن لم تحصل له درجة الشهادة نفسها.[5]

1. الأنقاب: المداخل أو الأبواب.
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة.
3. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
4. فتح الباري: 10/ 183.
5. التيسير بشرح الجامع الصغير: 2/ 121.

تهدئة الروع من المحن في الإسلام:

الروع والهلع يُلحقان بالناس أحياناً مزيداً من المعاناة، وهم يواجهون بعض المحن، أو يتخوفون منها، فأخذ الحيطة والحذر مطلوب، والله تعالى أمر بهما، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً}(النساء:71)

ما يعني أن الدعوة لتهدئة الروع والصبر، تتلاقى مع الدعوة إلى الأخذ بالأسباب، والوقاية من الأمراض، فمن عظمة الإسلام أنه يمتاز بالتوازن، فلا يطغى فيه جانب على آخر، وبالتالي لا يصلح أن يؤخذ مجزءاً، أو أن تُجتزأ منه جوانب، وتُهمَّش أخرى، فيبدو مشوهاً، والله جل في علاه أنكر على من يأخذون ببعض الكتاب، ويتركون بعضه الآخر، فقال تعالى: {...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}(البقرة:85)

والمسلم في الظروف والأحوال جميعها، يحرص على أن يبقى مطمئناً، مبتعداً عن الفزع والقلق، فالله نبه إلى نعمة السكينة التي تفضَّل بإنزالها على قلوب المؤمنين، فقال عز وجل: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً}(الفتح:4)، جاء في تفسير السعدي، أن الله تعالى يخبر عن مِنته على المؤمنين، بإنزال السكينة في قلوبهم؛ وهي السكون والطمأنينة والثبات، عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته، ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت، ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه.(*)

*تفسير السعدي: 1/ 791.

المصابون بالأوبئة وأصناف الشهداء:

الإسلام يقسم الناس صنفين رئيسين بالنسبة إلى الموقف من الأوبئة الفتاكة، وذلك من حيث طبيعة الموقف، والنتيجة الآخروية، وإن اتخذوا وسائل الوقاية والعلاج نفسيهما، فمن صبر، واحتسب، وأخذ بالأسباب، مع الرضا بالقدر، نال وصف الشهادة وأجرها، ومن لم يؤمن بالقدر، وتأفف، وأصابه الهلع حرصاً على البقاء، واجه المصير المحتوم في الدنيا، وخسر أجر الآخرة.

وحين تنتشر الأوبئة بين الناس، يعانون الآلام الصحية والنفسية، ويتعرضون لمخاطر تهدد بقاءهم، ومقاومة الوباء بالوقاية والعلاج حثَّ عليها الإسلام، كما يظهر من حرصه على الوقاية من وباء الطاعون، والناس - وهم يتعرضون للأوبئة، أو يتخوفون من انتشارها في أوساطهم - يحتاجون إلى طمأنة حقيقية تهدئ من روعهم، وتشد أزرهم، وتقوي معنوياتهم، وهذا ما عني به الإسلام العظيم، ومن ذلك أنه يشد أزر المصابين بالأوبئة، ويعدهم بنيلِ رفيعِ الدرجات في الآخرة، إن هم صبروا واحتسبوا، فقد شُمل المصابون ببعض الأوبئة ضمن أصناف الشهداء، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ[1]، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[2]

جاء في صحيح مسلم بشرح النووي، أن المطعون هو الذي يموت في الطاعون، كما في الرواية الأخرى، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[3]، أي أن الطاعون سبب لكون الميت به شهيداً في حكم الآخرة[4].

وأما المبطون فهو صاحب داء البطن، وهو الإسهال، قال القاضي: وقيل: هو الذي به الاستسقاء، وانتفاخ البطن، وقيل: هو الذي تشتكي بطنه، وقيل: هو الذي يموت بداء بطنه مطلقاً.

وأما الغَرِق، فهو الذي يموت غريقاً في الماء، وصاحب الهدم من يموت تحته.

---

1. وفي رواية: (الغريق): صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة سبع سوى القتل.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة سبع سوى القتل.
4. فيض القدير: 4/ 286.

قال العلماء: وإنما كانت هذه الميتات شهادة بتفضل الله تعالى، بسبب شدتها، وكثرة ألمها.[1]

ومن أصناف الشهداء، أولئك الذين يقتلون ظلماً وبغياً وهم يدافعون عن أموالهم وأملاكهم، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: من قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[2]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَرَأَيْتَ إن جاء رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قال: فلا تُعْطِهِ مَالَكَ، قال: أَرَأَيْتَ إن قَاتَلَنِي؟ قال: قَاتِلْهُ، قال: أَرَأَيْتَ إن قَتَلَنِي؟ قال: فَأَنْتَ شَهِيدٌ، قال: أَرَأَيْتَ إن قَتَلْتُهُ؟ قال: هو في النَّارِ)[3]

يذكر النووي قول العلماء: المراد بشهادة هؤلاء كلهم غير المقتول في سبيل الله، أنه يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء، وأما في الدنيا فيغسلون، ويصلى عليهم.

ويبين أن الشهداء ثلاثة أقسام: شهيد في الدنيا والآخرة، وهو المقتول في حرب الكفار، وشهيد في الآخرة دون أحكام الدنيا، وهم هؤلاء المذكورون هنا، وشهيد في الدنيا دون الآخرة، وهو من غل في الغنيمة، أو قُتِل مدبراً.[4]

الحجر الصحي أو العزل الوقائي:

يُعنى الإسلام بالنواحي النفسية والمعنوية للمرضى، فيقوي معنوياتهم وهم يتألمون ويعانون، فيبعد عنهم الهلع، ويَعِدُ المصابين بالأوبئة الفتاكة بثواب عظيم في الآخرة، وإلى جانب ذلك يعنى بالوقاية من الأمراض الصحية وعلاجها، ضمن منهج واضح، حثَّ فيه على التداوي، فعن جَابِرٍ، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عز وجل)[5]،

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 62 - 63 بتصرف.
2. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله.
3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مُهْدَر الدم.
4. صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 63 .
5. صحيح مسلم، كتاب السلام ، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي.

ويشجع الإسلام الناس على البحث عن التداوي، من خلال التأكيد والطمأنة بأن لكل داء دواء وشفاء، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أَنْزَلَ الله دَاءً إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً)[1]

وعلى صعيد الوقاية من الأوبئة، كان للإسلام سبق واضح في الحث على الحجر الصحي، فعن إبراهيم بن سعد، قال: سمعت أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، يحدث سَعْدًا، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (إذا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فلا تَدْخُلُوهَا، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها فلا تَخْرُجُوا منها- فقلت أي الراوي عن إبراهيم-: أنت سَمِعْتَهُ يحدث سَعْدًا ولا يُنْكِرُهُ؟ قال: نعم)[2]

وعن عبد اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: (خَرَجَ إلى الشأم، حتى إذا كان بِسَرْغَ[3]، لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ: أبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بِأَرْضِ الشأم، قال ابن عَبَّاسٍ: فقال عُمَرُ: ادْعُ لي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بالشأم، فَاخْتَلَفُوا، فقال بَعْضُهُمْ: قد خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، ولا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عنه، وقال بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ الناس، وَأَصْحَابُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادع لي الْأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادْعُ لي من كان هَا هُنَا من مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ، من مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فلم يَخْتَلِفْ منهم عليه رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عليه، قال أبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ :أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟ فقال عُمَرُ: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم، نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قال: فَجَاءَ عبد الرحمن بن عَوْفٍ، وكان مُتَغَيِّبًا

1. صحيح البخاري كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.
2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.
3. بِسَرْغَ، (قرية بوادي تبوك، وقيل هي مدينة افتتحها أبو عبيدة وهي واليرموك) شرح الزرقاني: 4/ 294.

فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فقال: إِنَّ عِنْدِي فِي هذا عِلْمًا، سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها، فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه، قال: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ، ثُمَّ انْصَرَفَ)(*)

فما أجمل رد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على من احتج على تنفيذ الحث على ترك الذهاب إلى بلد فيه وباء كالطاعون، حيث قال: (نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ) وهذا الرد الواضح الجلي يمثل نبراساً لمنهج الإسلام في التعاطي مع قضايا يخطئ من يأخذ حيالها ببعض المواقف أو النصوص، قبل النظر في مجموع الأحكام والشواهد ذات الصلة بها، لاستخلاص الحكم الشرعي المناسب لها، فلا يصلح بحجة الإيمان بالقدر ترك المصابين بالأوبئة،دون معالجة، ودون ضبط الاختلاط بهم، إذا كانت الأمراض التي أصيبوا بها سارية، ولا تصلح مجافاة الإيمان وقيم الأديان عند التعامل مع الأوبئة والمصابين بها، وحصر التعاطي مع الأدوية والعلاج بتجرد عن منظومة المبادئ والقيم، فالإسلام بعقيدته وشريعته وقيمه يراعي هذه النواحي بتوازن فريد، فمن مقاصده حفظ الأبدان، وبلغ في عنايته بالصحة البدنية والحياتية للناس، أن قدم صحة الأبدان على صحة الأديان، وفي الوقت ذاته ربط الإصابة بالأوبئة بالمصير الآخروي.

الموت حق:

مع ما تقدم من حديث عن الأوبئة الفتاكة، من ناحية الوقاية من الإصابة بها، وحصرها في أضيق نطاق، والسعي إلى المعالجة والتداوي، وطلب الشفاء منها، ومواجهتها بجلد وصبر ورباطة جأش، دون الوقوع في إشكالات الهلع والفزع، يجدر التذكير بالموت، الذي هو حق لازم، كل ذائقه، بمرض فتاك أو غيره، مصداقاً لقوله عز وجل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء:35)، ويقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (العنكبوت:57)

* صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

وحقيقة فراق الحياة الدنيا بالموت تشمل الخلق على اختلاف أصنافهم ومقاماتهم، وكفرهم وإيمانهم، فالله خاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، مذكراً بهذه الحقيقة الحتمية، فقال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} (الزمر: 30 - 31)

ومما يشد الانتباه في هذه الآية الكريمة أن التذكير بالموت فيها وُجِّه للنبي، صلى الله عليه وسلم، أولاً، وهو المخاطب بالآية، قبل ذكر غيره.

والاحتياطات والوقايات جميعها لن تجدي نفعاً إذا حان موعد نهاية الأجل، وتأكيداً لهذه الحقيقة يقول عز وجل: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...} (النساء:78)

ويقول جل ذكره:{...قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (آل عمران :154)

والحقيقة الدامغة التي ينبغي أن لا تغيب عن بال الخلق، في أوساط الأوبئة المنتشرة أو غيرها، أن قدر الله لا مفر منه، وهو حق لازم، أرشدنا إلى الإيمان بهذه العقيدة القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة، التي منها، قوله جل في علاه: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التوبة:51)

ومن جميل شعر الوعظ بالموت:

المَوْتُ كَأسٌ، وكُلُّ النَاس شَارِبُه ... والقَبْرُ بَابٌ، وكُلُّ الناس دَاخِلُهُ

***

لاَ دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إلاَّ الَّتِي كَانَ قَبْلَ المَوْتِ يبنِيْهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا

أَمْوَالُنَا لِذَوِي المِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا ... ووَدَارُنَا لِخَرَابِ الدهر نَبْنِيْهَا

أينَ الملوكُ التي كانت مُسلطنةً ... حتى سقاها بكأسِ الموتِ ساقيها

لا تركننَّ إلى الدنيا وما فيها ... فالموتُ لا شكَّ يفنينا ويفنيها

***

يَا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ المَوْتَ قَدْ حَانَا ... اعْصِي الْهَوى فالْهَوى مَا زَالَ فَتَّانَا

أَمَا تَرَيْنَ المَنَايَا كَيْفَ تَلْقُطُنَا ... لَقْطًا فَتُلْحِقُ أُخْرَانَا بأُوْلاَنَا

فِي كُلِ يَوْمٍ لَنَا مَيْتٌ نُشَيِّعُه ... نَرَى بِمَصْرَعِهِ آثَارَ مَوْتَانَا

يَا نَفْسُ مَا لِي ولِلأَمْوَالِ أَتْرُكُهَا ... خَلْفِي وَأُخْرَجُ مِن دُنْيَايَ عُرْيَانَا؟

يسر الله لنا حسن الختام، ورزقنا اليقين، ووقانا الشر والأشرار، وصرف عنا الأوبئة، ما عرفنا منها وما لم نعرف، وإن ابتلينا بشيء منها، فنرجوه سبحانه أن يهدينا لاتباع خير السبل، وأنجع الوسائل، للشفاء منها، والصبر عليها، وتحصيل الأجر والثواب بالصبر عليها.

فقراء إلى الله

من العبث المقارنة بين الخلق والخالق سبحانه وتعالى، سواء في الذات أم في الصفات أم في الأفعال، فالخلق وجدوا من عدم، وهم جميعاً إلى فناء حتمي، يسيرون إليه، صغاراً وكباراً، فقراء وأغنياء، والله تعالى يقول:{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}(الرحمن:26 - 28) ويقول جل شأنه: {وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(القصص:88)

أما الله لا إله إلا هو، فله الأسماء الحسنى، التي منها الغنيّ الحميد، الفرد الصمد، الذي يُحتاج إليه، ولا يَحتاج إلى أحد، وهو القائل جل شأنه:{...فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}(آل عمران:97)، والله سبحانه إنما شرع لعباده الشرائع لنفعهم ومصلحتهم، وهو -تعالى شأنه، وتقدس سلطانه- غني لا تعود إليه طاعات عباده كلها بنفع.[1]

وفي مثل هذا المعنى، يقول الله تعالى عن نسك الهدي، الذي يتقرب به إلى الله:{لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}(الحج: 37)، والمعنى لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى؛ أي بالإخلاص لله، وقصد وجه الله بما تذبحون وتنحرون من الهدايا، فعبر عن هذا المعنى بلفظ ينال، مبالغة وتأكيداً؛ فلن تصل لحومها ولا دماؤها إلى الله، وإنما تصل بالتقوى منكم، وذلك هو الذي طلب منكم، وعليه يحصل لكم الثواب.[2]

1.فتح القدير: 1/ 363.

2. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 42.

وهـو المقصـود سبحانه في قضـاء الحوائـج عـلى الـدوام، وفـق مـا ذكـر عـز وجـل في سـورة الإخـلاص: {قُـلْ هُـوَ اللهُ أَحَـدٌ * اللهُ الصَّمَـدُ * لَـمْ يَلِـدْ وَلَـمْ يُولَـدْ * وَلَـمْ يكُـن لَّـهُ كُفُـواً أَحَدٌ}(سـورة الإخـلاص)، وهـذه السـورة عـلى قلـة آياتهـا وألفاظهـا، تعـدل ثلـث القـرآن الكريـم، حسـب مـا جـاء في الحديـث الصحيـح، عـن أبي الـدَّرْدَاءِ، عـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (أَيَعْجِـزُ أحدكـم أَنْ يَقْـرَأَ فِي لَيْلَـةٍ ثُلُـثَ الْقُرْآنِ؟! قالـوا: وَكَيْـفَ يَقْـرَأْ ثُلُـثَ الْقُـرْآنِ؟ قـال: قُـلْ هـو اللـه أَحَـدٌ تَعْـدِلُ ثُلُـثَ الْقُـرْآنِ)[1]

غنى الله وافتقار الخلق:

كثـيرة هـي الشـواهد القرآنيـة، ومـن السـنة النبويـة، الـتي تركـز عـلى قضيـة غـنى اللـه، وافتقـار الخلـق إليـه سـبحانه، ومـن ذلـك قولـه تعـالى: {قُـلْ أَغَـيْرَ اللـهِ أَتَّخِـذُ وَلِيّـاً فَاطِـرِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُـوَ يُطْعِـمُ وَلاَ يُطْعَـمُ قُـلْ إِنِّ أُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ مَـنْ أَسْـلَمَ وَلاَ تَكُونَـنَّ مِـنَ الْمُشْرِكَـينَ}

(الأنعـام: 14)

أي هـو الـرزاق لغـيره، ولا يرزقـه أحـد، فمـا سـواه محتـاج في ذاتـه، وفي جميـع صفاتـه، وفي جميـع مـا تحـت يـده، والحـق سـبحانه هـو الغـني لذاتـه، الجـواد لذاتـه، ومـتى كان الأمـر كذلـك امتنـع اتخـاذ غـيره وليـاً[2]. فالمخلـوق مهمـا عظـم شـأنه، فقـير محتـاج إلى الخلـق في بعـض أحوالـه، أو كلهـا، وهـو محتـاج قطعـاً إلى اللـه، في وجـوده، وقضـاء حوائجـه كلهـا، أمـا اللـه تعـالى، فهـو الغـني عـن غـيره، وهـو القائـل:{وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلا لِيَعْبُـدُونِ * مَـا أُرِيـدُ مِنْهُـم مِّـن رِّزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَن يُطْعِمُـونِ * إِنَّ اللـهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِـينِ} (الذاريـات: 56 - 58)، وفي موضـع قـرآني آخـر، أكـد اللـه تعـالى معـنى تفضلـه بالغـوث عـلى مـن شـاء مـن خلقـه، وعجزهـم عـن منـع غوثـه، أو خفـر ذمتـه، فقـال عـز وجـل: {قُـلْ مَـن بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُـوَ يُجِـيرُ وَلَا يُجَـارُ عَلَيْـهِ إِن كُنتُـمْ تَعْلَمُـونَ}

(المؤمنون: 88)

1.صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد
2.التفسير الكبير: 12/ 140.

فالله يغيث غيره إذا شاء، ويمنعه، {ولا يجار عليه} أي لا يمنع أحد أحداً من عذاب الله، ولا يقدر على نصره وإغاثته، يقال: أجرتَ فلاناً، إذا استغاث بك فحميتهَ، وأجرتَ عليه إذا حَميت عنه.(*)

والله متفرد بالغنى، وهو القائل جل ذكره: {قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (يونس: 68)

وغنى الله ذُكر في بعض مواضع القرآن الكريم مطلقاً، كما في هذه الآية الكريمة، وفي مواضع ذكر بأنه غني عن العالمين، كما في قوله تعالى: {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}(العنكبوت: 6)

وذكر في مواضع أخرى بأنه غني عن المخاطبين، كما في قوله تعالى: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ...}(الزمر: 7)

وما عند الله باق، وما عند الخلق ينفد، مصداقاً لقوله عز وجل:{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ...}(النحل: 96)

ومهما بلغ ملك المخلوق، فلن يكفيه الحاجات كلها، ولن يقبل منه الافتداء به من عذاب الآخرة إن استحقه، مصداقاً لقوله جلّ ذكره: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} (آل عمران: 91)

والمال والأهل والعشيرة والولد مظاهر لزينة الدنيا، والقوة فيها، لكنها لن تغني عن صاحبها يوم القيامة شيئاً، مصداقاً لقوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(آل عمران: 116)

والله تعالى يقول: {مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (الجاثية: 10)

---

* فتح القدير: 3/ 496.

ومن مواطن ذكر الغنى الرباني، وافتقار المخلوقين ذلك، المتضمن حديثاً عن بخلهم، فقال جل شأنه: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}(محمد: 38)

وقد عبر إبراهيم، عليه السلام، عن افتقاره إلى الله تعالى، وحاجته الدائمة إلى الله في شأنه كله، وذلك خلال محاجته العقائدية لقومه، فيما يذكره القرآن الكريم عنه، في قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ* رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء: 69 - 89)

فقد استخدم إبراهيم، عليه السلام، مجالات الحاجة الماسة إلى الله تعالى في أصل الوجود والهداية، وفي المطعم والمشرب والشفاء من الداء، والإحياء والإماتة، وغفران الذنوب، استخدمها براهين ساطعة على قدرة الله عز وجل، وافتقار الخلق الدائم إلى عونه ومدده. وورد تأكيد هذه الحقيقة في مضامين كثيرٍ من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، التي لا يتسع المجال في هذا المقام لذكر نصوصها.

الغني الحميد:

تكرر اقتران وصف الله تعالى بالغني والحميد في عدد من الآيات القرآنية، منها ثلاث عند التعقيب على ذكر ملك الله للسماوات والأرض، وهذه الآيات الكريمة هي: {وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً}(النساء: 131)

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(الحج: 64)

{لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(لقمان: 26)

واقترن وصف الله تعالى بالغني والحميد، عند التعقيب على حديث فقر الخلق، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(فاطر: 15)

وذُكِرَ هذان الوصفان مقترنين في ختام آيات تطرقت إلى الحث على شكر الخالق، فقال عز وجل: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(لقمان: 12)

وذكرا عند الحديث عن كفر الإنسان وجحوده، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(التغابن: 6)

وقال سبحانه:{وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} (إبراهيم: 8)

كما ذُكر هذان الوصفان مقترنين عند الحديث عن بخل المخلوق، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(الحديد: 24)

وقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}. (البقرة:267 - 268)

وذُكرا في ختام أمر الله المسلمين بالتأسي بإبراهيم، عليه السلام، والذين معه، فقال جل ذكره:{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(الممتحنة: 6)

بجاحة وصف الله بالفقر:

توعد الله أهل البجاحة الذين يتطاولون على ذاته وصفاته، وينعتونه بما لا يليق بجلاله، كقولهم عن الله بأنه فقير وهم أغنياء، فقال تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} (آل عمران: 181)، وهؤلاء صدر عنهم هذا القول البجح لمّا نزل قوله جلّ ذكره: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(البقرة: 245)

وقد روي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، لمّا نزلت هذه الآية الكريمة، قالت اليهود: يا محمد أفتقر ربك، فسأل عباده القرض؟! فأنزل الله: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء}(آل عمران:181).[1]

فالله تعالى يخبر عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم -بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء- ذوقوا عذاب الحريق، المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلماً من الله لهم، فإنه ليس بظلام للعبيد، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.[2]

وعلى صعيد مشابه، يذكر القرآن الكريم قول بعض البجحين، فقال عز وجل: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً...}(المائدة: 64)، فالمتطاولون على مقام الله هم الأقزام المتبجحون، الذين وصفوا الله بالفقير، وها هم أو إخوانهم يقولون إن يده مغلولة، وذلك كناية عن البخل وحاشا لله ذلك، ومن تمادي هذا الصنف مع ربهم بخلهم عن الإنفاق مما رزقهم الله من خيراته ونعمه، وطلبهم إحالة الفقراء إلى الله ليرزقهم، بدلاً

1. تفسير ابن كثير: 1/ 434.
2. تفسير السعدي: 1/ 159.

مـن أن يقومـوا بواجبهـم الأخـلاقي والديـني بالخصـوص، وعـن ذلـك يقـول تعـالى: {وَإِذَا قِيـلَ لَهُـمْ أَنفِقُوا مِمَّـا رَزَقَكُـمُ اللهُ قَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لِلَّذِيـنَ آمَنُـوا أَنُطْعِـمُ مَـن لَّـوْ يَشَـاءُ اللهُ أَطْعَمَـهُ إِنْ أَنْتُـمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}(يـس: 47)

الصالحون يظهرون افتقارهم الدائم إلى الله:

الصالحـون مـن الخلـق يُقـرّون دائمـاً بحاجتهـم إلى اللـه، كمـا جـاء عـلى لسـان مـوسى، عليـه السـلام، في قولـه تعـالى: {فَسَـقَى لَهُمَـا ثُـمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّـلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَـا أَنزَلْـتَ إِلَيَّ مِـنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (القصص: 24)

وهـم يرجـون الغنى مـن ربهـم، كمـا جـاء في سياق الأمـر الربـاني بتسـهيل الـزواج لطالبيـه، ولـو كانـوا مـن الفقـراء، فقـال جـل شـأنه: {وَأَنكِحُـوا الْأَيَامَـى مِنكُـمْ وَالصَّالِحِـينَ مِـنْ عِبَادِكُـمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُـوا فُقَـرَاءَ يُغْنِهِـمُ اللهُ مِـن فَضْلِـهِ وَاللـهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ}(النـور: 32)

ومعايـير تقديـر النـاس ينبغـي أن لا تتحـدد بـأوزان الغـنى والفقـر، وقـد لفـت رب العـزة الأنظـار إلى خلـل اعتمـاد تلـك الأوزان في هـذا المجـال، في مثـل قولـه تعـالى: {وَقَـالَ لَهُـمْ نَبِيُّهُـمْ إِنَّ اللّـهَ قَـدْ بَعَـثَ لَكُـمْ طَالُـوتَ مَلِـكاً قَالُـوَاْ أَنَّى يَكُـونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنَـا وَنَحْـنُ أَحَـقُّ بِالْمُلْـكِ مِنْـهُ وَلَـمْ يُـؤْتَ سَـعَةً مِّـنَ الْمَـالِ قَـالَ إِنَّ اللّـهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُـمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِي الْعِلْـمِ وَالْجِسْـمِ وَاللّـهُ يُـؤْتِي مُلْكَـهُ مَـن يَشَـاءُ وَاللّـهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ}(البقـرة:247)

مـن هنـا؛ فـإن الغـني الصالـح يشـكر اللـه، ويتواضـع إلى النـاس، ويُخـرج الصدقـات المعلومـة وغيرهـا، راجيـاً ثـواب اللـه وتوفيقـه وحفظـه، ولا يبطـر ولا يـترف، ويقـر في سره وعلنـه أن المعطـي هـو اللـه، والمانـع هـو اللـه، ويربـأ بنفسـه أن يتحـلَّى بأخـلاق قـارون، الـذي كانـت لـه الكنـوز العظيمـة، لكنـه كان يعتقـد أنـه أوتيهـا بعلمـه وقدرتـه، وفي هـذا يقـول عـز وجـل: {إِنَّ قَـارُونَ كَانَ مِـن قَـوْمِ مُـوسَى فَبَغَـى عَلَيْهِـمْ وَآتَيْنَـاهُ مِـنَ الْكُنُـوزِ مَـا إِنَّ مَفَاتِحَـهُ لَتَنُـوءُ بِالْعُصْبَـةِ أُولِي الْقُـوَّةِ إِذْ قَـالَ لَـهُ قَوْمُـهُ لا تَفْـرَحْ إِنَّ اللـهَ لا يُحِـبُّ الْفَرِحِـينَ * وَابْتَـغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللـهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلا تَنـسَ نَصِيبَـكَ مِـنَ الدُّنْيَـا وَأَحْسِـن كَمَـا أَحْسَـنَ اللـهُ إِلَيْـكَ وَلَا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللـهَ لا يُحِـبُّ الْمُفْسِـدِينَ* قَـالَ إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَـلَى عِلْـمٍ عِنـدِي أَوَلَـمْ يَعْلَـمْ أَنَّ اللـهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِـن قَبْلِـهِ مِـنَ

الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ* فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ* وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (القصص:76 - 82)

أخلاق أصحاب الثروات:

تتنوع أخلاق أصحاب المال والثروة، فمنهم الشاكر، ومنهم الجاحد، ومن سلوك الأول أنه ينفق على أصحاب الحاجات سراً وجهراً، رجاء رحمة الله وحسن ثوابه، ومن التعاليم الإلهية بالخصوص، ما جاء في قوله تعالى: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(البقرة:271)

وصاحب الثروة الشاكر، يسد حاجات المتعففين عن طلبها، وقد أثنى الله عز وجل على المنفقين في هذا السبيل، فقال جل ذكره: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ}.(البقرة: 273)

وحدد الله سبحانه للأغنياء مصارف زكاتهم، فقال عز وجل: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(التوبة: 60)

وأمر الله أهل الثراء بالإنفاق مما يحبون، فقال عز وجل: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ}(آل عمران: 92)

ونهى الله عن قصد الإنفاق من دنيء المال وخبيثه، فقال جل ذكره:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(البقرة: 267)

كما نهى الرّزاق الكريم أهل الغنى المتصدقين عن إبطال ثواب صدقاتهم بالمن والأذى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(البقرة: 264)

الله يتولى الإغناء:

قد يكون من المناسب والمفيد ختم الحديث عن افتقار الخلق الدائم للخالق، واستغنائه عنهم، بالتذكير بحقيقة تولي الله الإغناء والإثراء، فالمُلكُ لله الواحد القهار، مُلكُ اليوم وما فيه، وغد وما فيه، مُلكُ الدنيا والآخرة، والمهددون بقطع الأرزاق طمأنهم الله تعالى إلى هذه الحقيقة الإيمانية، فقال جل شأنه: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(التوبة: 28)، وهذا المعنى الإيماني أكده الحديث القدسي الصحيح، الذي يرويه سَعِيدُ بن عبد الْعَزِيزِ، عن رَبِيعَةَ بن يَزِيدَ، عن أبي إِدْرِيسَ الخَوْلانِيِّ، عن أبي ذَرٍّ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قال: (يا عِبَادِي؛ إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ، فاستهدوني أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ.

يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، فاستغفروني أَغْفِرْ لَكُمْ.

يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً.

يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئاً.

يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ

كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي، إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يا عِبَادِي؛ إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ.

قال سَعِيدٌ: كان أبو إِدْرِيسَ الخَوْلانِيُّ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث، جَثَا على رُكْبَتَيْهِ)[*]

وقضاء حاجات الخلق، على تنوعها وتعددها، وكبرها وصغرها، يتولاها الله العلي القدير، وعلى هذا الصعيد فإن الفقراء الذين لا يجدون سبيلاً للزواج بسبب ضيق ذات اليد، يجدون آفاقاً من الأمل بغوث الله، تخرجهم من دائرة الإحباط، وتعينهم على الاستعفاف، والتحلي بالصبر حتى يأتيهم فرج الله، حين يتدبرون في معاني قوله جل ذكره: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ...}.(النور: 33)

راجين الله العلي القدير، ذي القوة المتين، الرّزاق الكريم، الفّتاح العليم، أن يهدينا سبيل الرشاد، وأن يغنينا من فضله، وأن يرزقنا ما يسد حاجاتنا، ويحفظ كرامتنا عن بذل ماء وجوهنا إلى خلقه، وهم الضعفاء مثلنا، المحتاجون إلى رحمة ربهم ورزقه وحفظه، مهما ضخمت ثرواتهم، وعظم غناهم، فنحن وإياهم فقراء إلى الله الغني الحميد، الكبير المتعال، سبحانه لا إله إلا هو، القائل جل شأنه: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}(الأنعام: 133)

ويقول سبحانه: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(العنكبوت:17)

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

لا يرفع الله شيئاً من الدنيا إلا وضعه

هـذا العنـوان مقتبـس مـن عبـارات حديـث للنبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قالـه بعـد وقوع حادثـة عرضيـة شـاهدها بعـض المسـلمين، وامتعضـوا مـن نتيجتهـا، فعـن أَنَـسٍ، قـال: (كانـت نَاقَـةٌ لِرَسُـولِ اللـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، تُسَـمَّى الْعَضْبَـاءَ، وَكَانَـتْ لَا تُسْـبَقُ، فَجَـاءَ أَعْـرَابِيٌّ عـلى قَعُـودٍ لـه فَسَـبَقَهَا، فَاشْـتَدَّ ذلـك عـلى الْمُسْـلِمِينَ، وَقَالُـوا: سُـبِقَتْ الْعَضْبَـاءُ، فقـال رسـول اللـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: إِنَّ حَقًّـا عـلى اللـهِ أَنْ لَا يَرْفَـعَ شـيئاً مـن الدُّنْيَـا إلا وَضَعَـهُ)(*)

الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في حديثـه الشريـف هـذا أشـار إلى سـنة حتميـة، يتكـرر وقوعهـا في حيـاة الخلـق، ولا تقتـصر عـلى فـترة من الحيـاة دون سـواها، بل يتكـرر وجودها ويشـاهدها النـاس في حياتهـم الخاصـة والعامـة، فحتـى الإنسـان الـذي يشـبُّ قويـاً، ينتهـي بـه المطـاف إلى العِلَل والهـرم، ومـن ثـم المـوت، وحتـى الصولـة والجولـة والبطـش والقـوة يسـوق اللـه أحيانـاً نهايـات مأسـاوية لهـا؛ ليتعـظ النـاس كبـاراً وصغـاراً، فـلا يتغطـرس القـوي، ولا ييئـس الضعيـف، فـدوام الحـال كمـا يقولـون مـن المحـال، والدنيـا يـوم لـك ويـوم عليـك، وفي هـذا يقـول اللـه عـز وجـل: {قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِكُـمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُـرُواْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِـينَ * هَــذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُـدًى وَمَوْعِظَـةٌ لِّلْمُتَّقِـينَ * وَلاَ تَهِنُـوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَنتُـمُ الأَعْلَـوْنَ إِن كُنتُـم مُّؤْمِنِـينَ* إِن يَمْسَسْـكُمْ قَرْحٌ فَقَـدْ مَـسَّ الْقَـوْمَ قَـرْحٌ مِّثْلُـهُ وَتِلْـكَ الأيَّـامُ نُدَاوِلُهَـا بَـيْنَ النَّـاسِ وَلِيَعْلَـمَ اللـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَيَتَّخِـذَ مِنكُـمْ شُـهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِـبُّ الظَّالِمِـينَ * وَلِيُمَحِّـصَ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَيَمْحَـقَ الْكَافِرِيـنَ * أَمْ حَسِـبْتُمْ أَن تَدْخُلُـواْ الْجَنَّـةَ وَلَمَّـا يَعْلَـمِ اللـهُ الَّذِيـنَ جَاهَـدُواْ مِنكُـمْ وَيَعْلَـمَ الصَّابِرِيـنَ} (آل عمـران: 137 - 142)

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

مقتطفات من تفسير هذه الآيات الكريمة:

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن الخطاب في قوله تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن} للمؤمنين، تأنيساً لهم، وقيل: للكافرين تخويفاً لهم، وقوله: {فانظروا} من نظر العين عند الجمهور، وقيل: هو بالفكر. وقوله تعالى: {ولا تهنوا} تقوية لقلوب المؤمنين، {وأنتم الأعلون} إخبار بعلو كلمة الإسلام.

وقوله: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ...}الآية، معناها إن مسكم قتل، أو جراح في غزوة أحد، فقد مسّ الكفار مثله في بدر، وقيل: قد مسّ الكفار يوم أحد مثل ما مسّكم فيه، فإنهم نالوا منكم، ونلتم منهم، وذلك تسلية للمؤمنين بالتأسي.

وقوله: {نداولها} تسلية أيضاً عما جرى يوم أحد. {وليعلم} متعلق بمحذوف تقديره أصابكم ما أصابهم يوم أحد ليعلم، والمعنى ليعلم ذلك علماً ظاهراً لكم، تقوم به الحجة.

قوله: {وليمحِّص الله} أي يظهر، وقيل يميز، وهو معطوف على ما تقدم من التعليلات لقصة أحد، والمعنى أن إدالة الكفار على المسلمين إنما هي لتمحيص المؤمنين، وأن نصر المؤمنين على الكفار إنما هو ليمحق الله الكافرين، أي يهلكهم.

وقوله تعالى: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} أي ليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة، بما يبتلى به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...}(البقرة:143) (*)

ومما جاء في التفسير الكبير بخصوص تفسير الآيات الكريمة سالفة الذكر من سورة آل عمران، أن الواحدي قال: أصل الخلو في اللغة الانفراد، والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه، ويستعمل أيضاً في الزمان بمعنى المضي؛ لأن ما مضى انفرد عن الوجود، وخلا عنه، وكذا الأمم الخالية.

* التسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 165.

وأما السنة فهي الطريقة المستقيمة، والمثال المتبع.

والمراد من الآية: قد انقضت من قبلكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة، من سنن الهلاك والاستئصال، بدليل قوله تعالى:{...فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}، وذلك لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل حرصاً على الدنيا، وطلباً للذاتها، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر، وبقي اللعن في الدنيا، والعقاب في الآخرة عليهم، فرغّب الله تعالى أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، في تأمل أحوال هؤلاء الماضين، ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسله، والإعراض عن الرياسة في الدنيا وطلب الجاه.

وقال مجاهد: بل المراد سنن الله تعالى في الكافرين والمؤمنين؛ فإن الدنيا ما بقيت لا مع المؤمن، ولا مع الكافر، ولكن المؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، والكافر بقيت عليه اللعنة في الدنيا، والعقاب في العقبى، ثم إنه تعالى قال: {فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}؛ لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي لمعرفة حال القسم الآخر.

وأيضاً يقال الغرض منه زجر الكفار عن كفرهم، وذلك إنما يعرف بتأمل أحوال المكذبين والمعاندين، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ*وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (الصافات:171 - 173)

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}(الأنبياء: 105)

وليس المراد بقوله تعالى: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ} الأمر بذلك لا محالة، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض، كان المقصود حاصلاً، ولا يمتنع أن يقال أيضاً: إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً أقوى من أثر السماع، كما قال الشاعر:

إن آثارنا تدّل علينا فانظروا بَعدنا إلى الآثَارِ

وبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح، لا ينبغي أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك، فقد أصاب عدوهم مثله قبله، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فأحرى أن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة، والتمسك بالحق أولى.

ويقال: (الدنيا دول) أي تنتقل من قوم إلى آخرين، ثم عنهم إلى غيرهم، ويقال: دال له الدهر بكذا، إذا انتقل إليه، والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس، لا يدوم مسارُّها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه السرور له، والغم لعدوه.

ويوم آخر بالعكس من ذلك، ولا يبقى شيء من أحوالها، ولا يستقر أثر من آثارها.

وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين، وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصر الله منصب شريف، وإعزاز عظيم، فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة، أنه تارة يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، والفائدة فيه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في الأوقات جميعها، وأزالها عن المؤمنين في الأوقات جميعها، لحصل العلم الاضطراري، بأن الإيمان حق، وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر؛ لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بوساطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله.

والثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا تأديباً له، وأما تشديد المحنة على الكافر، فإنه يكون غضباً من الله عليه.

والثالث: أن لذات الدنيا وآلامها غير باقية، وأحوالها غير مستمرة، وإنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الإحياء، ويسقم بعد الصحة، فإذا حسن ذلك، فلم لا يحسن أن يبدل السراء بالضراء، والقدرة بالعجز، وروي أن أبا سفيان

صعد الجبل يوم أحد، ثم قال: (أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَا أَنَا ذَا عُمَرُ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، الْأَيَّامُ دُوَلٌ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: لَا سَوَاءً، قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ. قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَزْعُمُونَ ذَلِكَ، لَقَدْ خِبْنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا)(*).

فهذه المعاني التي تفيض بها الآيات الكريمة سالفة الذكر من سورة آل عمران، والتي نزلت معقبة على بعض مجريات أحداث غزوة أحد، إنما تبرهن بما لا يَدَعُ مجالاً للشك أن الأيام دول، وأنها لا تدوم على حال، وإن كانت العاقبة بالتأكيد للمؤمنين.

الدنيا لا تدوم على حال، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك:

الشواهد من الأخبار والآثار كثيرة على حتمية تبدل الأحوال في هذه الدنيا، ومن تلك الشواهد المعبرة، ما روي أن هارون الرشيد .. خرج يوماً في رحلة صيد فمرّ برجل يقال له بُهلول.

فقال هارون: عظني يا بُهلول ..

قال: يا أمير المؤمنين؛ أين آباؤك وأجدادك من لدن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى أبيك؟!

قال هارون: ماتوا ..

قال: فأين قصورهم ..؟

قال: تلك قصورهم ..

قال: وأين قبورهم؟

قال: هذه قبورهم ..

فقال بُهلول: تلك قصورهم .. وهذه قبورهم .. فما نفعتهم قصورهم في قبورهم؟

* مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

قال: صدقت .. زدني يا بهلول ..

قال: أَمَّا بُيوتُكَ فِي الدُّنْيَا فَوَاسِعَةٌ ... فَلَيْتَ قَبْرَكَ بَعد الموتِ يَتْسِعُ

فبكى هارون وقال: زدني ..

فقال: يا أمير المؤمنين: هب أنك ملكت كنوز كسرى، وعُمرت السنين، فكان ماذا؟!

أليس القبر غاية كل حيٍ وتُسأل بعده عن كل هذا؟!

قال: بلى ..

ثم رجع هارون .. وانطرح على فراشه مريضاً .. ولم تمضِ عليه أيام حتى نزل به الموت

فلما حضرته الوفاة .. وعاين السكرات .. صاح بقواده وحجابه :

اجمعوا جيوشي .. فجاؤوا بهم .. بسيوفهم .. ودروعهم .. لا يكاد يحصي عددهم إلا

الله .. كلهم تحت قيادته وأمره ..

فلما رآهم .. بكى .. ثم قال: يا من لا يزول ملكه .. ارحم من قد زال ملكه ..

ثم لم يزل يبكي حتى مات ..

فلما مات ..أُخذ هذا الخليفة .. الذي ملك الدنيا وأودع حفرة ضيقة ..

لم يصحبْهُ فيها وزراؤه .. ولم يساكنه ندماؤه ..

لم يدفنوا معه طعاماً .. ولم يفرشوا له فراشاً

ما أغنى عنه ملكه وماله ..

سَلِ الخَلِيْفةَ إِذْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ *** أَيْنَ الجُنُودُ وأَيْنَ الخَيْلُ والخَوَلُ؟!

أَيْنَ الكُنُوزُ الَّتِي كانَتْ مَفَاتِحُها *** تَنُوءُ بالعُصْبَةِ المُقْوِيْنَ لَوْ حَمَلُوْا؟!

أَيْنَ العَبِيدُ الَّتِي أَرْصَدْتَهُمْ عُدَدًا *** أَيْنَ الحَدِيدُ وأَينَ البِيْضُ والأَسَلُ؟!

لا تنكرنَّ فما دامــت على أحدٍ *** إلا أناخَ عليه الموتُ والوجــلُ

ومن شعر الشافعي، رحمه الله تعالى:

حَسْبِي بِعِلْمِي إِنْ نَفَعَ ... مَا الذُّلُّ إِلَّا فِي الطَّمَعْ

مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ رَجَعَ ... عَنْ سُوءِ مَا كَانَ صَنَعْ

مَا طَارَ شَيْءٌ فَارْتَفَعَ ... إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ

ويحسن في هذا السياق الاستشهاد ببعض شعر الحكمة الذي قيل في رثاء الأندلس، لأَبي البَقَاء الرَّنْدي:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ ... فَلا يُغَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ

أَيْنَ المُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ

وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدّادُ فِي إِرَمٍ ... وَأينَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرْسِ سَاسَانُ

وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ ... وَأَيْنَ عَادٌ وَشَدَّادٌ وَقَحْطَانُ

أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوْا فَكَأنّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

فهل بهذا وبما يشاهد من مجريات الحياة وتبدل أحوالها على أرض الواقع دون الخوض في التفاصيل والأسماء والمسميات يتعظ الناس، فيتحررون من رجس الغرور وثياب الكبر، وعالم الظلم والطغيان، ويدرك البؤساء والفقراء والمقهورون أن الفرج آت آت، وأن الدنيا لا تدوم على حال، متدبرين آيات القرآن الكريم، التي منها قوله جل شأنه:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران: 26)

ومتبصرين في سنة النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، وسير السالفين، وقول الشاعر الفقيه الشافعي، رحمه الله تعالى:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلُ ما تَشاءُ ... وَطِب نَفساً إِذا حَكَمَ القَضاءُ
وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي ... فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقاءُ
وَكُن رَجُلاً عَلى الأَهوالِ جَلداً ... وَشيمَتُكَ السَماحَةُ وَالوَفاءُ
وَإِن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَرايا ... وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ
تَسَتَّر بِالسَخاءِ فَكُلُّ عَيبٍ ... يُغَطّيهِ كَما قيلَ السَخاءُ
وَلا تُرِ لِلأَعادي قَطُّ ذُلّاً ... فَإِنَّ شَماتَةَ الأَعدا بَلاءُ
وَلا تَرجُ السَماحَةَ مِن بَخيلٍ ... فَما في النارِ لِلظَمآنِ ماءُ
وَرِزقُكَ لَيسَ يُنقِصُهُ التَأَنّي ... وَلَيسَ يَزيدُ في الرِزقِ العَناءُ
وَلا حُزنٌ يَدومُ وَلا سُرورٌ ... وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخاءُ
إِذا ما كُنتَ ذا قَلبٍ قَنوعٍ ... فَأَنتَ وَمالِكُ الدُنيا سَواءُ
وَمَن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايا ... فَلا أَرضٌ تَقيهِ وَلا سَماءُ
وَأَرضُ اللَهِ واسِعَةٌ وَلَكِن ... إِذا نَزَلَ القَضا ضاقَ الفَضاءُ
دَعِ الأَيّامَ تَغدِرُ كُلَّ حينٍ ... فَما يُغني عَنِ المَوتِ الدَواءُ

وقوله:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتى ... ذَرعاً وَعِندَ اللَهِ مِنها المَخرَجُ
ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها ... فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

سائلين الله العلي القدير أن يفرج كربنا، ويطلق سراح أسرانا، ويحسن خلاصهم، وأن يتقبلنا وشهداءنا في عليين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

الفصل الثاني /من وحي العبادات

الرقم	المقال	الصفحة
1.	الصائمون والصائمات ما لهم وما عليهم	57
2.	شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن	64
3.	أفلح من صلى وصام وزكى	78
4.	أيها الصائمون، جوائزكم متوجة بالعتق من النار	85
5.	هنيئاً للحجاج طهارتهم من الذنوب والخطايا	92
6.	الحج والتربية على الطاعة المطلقة لله تعالى	101
7.	أيها الحاج... تفكر واعتبر	108

الصائمون والصائمات ما لهم وما عليهم

أثنى الله جل في علاه على أصحاب صفات إيمانية تدل على أدائهم ما أُمروا به من واجبات، ومن ذلك الصائمون والصائمات، فقال عز وجل: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب:35)

جاء في تفسير أبي السعود، أن المراد من {المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ}؛ أي الداخلين في السلم، المنقادين لحكم الله تعالى، من الذكور والإناث، {وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ} المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين، {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}المداومين على الطاعة، القائمين بها، {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} في القول والعمل، {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}على الطاعات، وعن المعاصي، {وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} بما وجب في مالهم، {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} الصوم المفروض، {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} عن الحرام، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ} بقلوبهم وألسنتهم، {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم} بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة، {مَّغْفِرَةً} ما اقترفوا من الصغائر؛ لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة، {وَأَجْراً عَظِيماً} على ما صدر عنهم من الطاعات، وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين، وهو ضروري، وأما عطف الزوجين على الزوجين، فلتغاير الوصفين، فلا يكون ضرورياً، ولذلك ترك في قوله تعالى: {مسلمات مؤمنات} وفائدته الدلالة على أن مدار إعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة.(*)

* تفسير أبي السعود:7/ 103 ـ 104.

في قوله تعالى: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} وجهان:

أحدهما: الإمساك عن المعاصي والقبائح.

والثاني: عن الطعام والشراب، وهو الصوم الشرعي، وفيه وجهان:

أحدهما: صوم الفرض.

الثاني: شهر رمضان، وثلاثة أيامٍ من كل شهر، قاله ابن جبير، وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ).[1،2]

وفي التفسير الكبير، أن في قوله تعالى: {والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ} إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله، ثم قال تعالى: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}؛ أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية.[3]

معنى الصيام في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب عن التهذيب: أن الصَّوْم في اللغة الإمساكُ عن الشيء، والتَّرْكُ له، وقيل للصائم صائمٌ؛ لإمْساكِه عن المَطْعَم والمَشْرَب والمَنْكَح، وقيل للصامت صائم؛ لإمساكه عن الكلام، وقيل للفرس صائم؛ لإمساكه عن العَلَفِ مع قيامِه.

وفيه أن الصَّوْم تَرْكُ الأكل. قال الخليل: والصَّوْمُ قيامٌ بلا عمل، قال أَبو عبيدة: كلُّ مُمْسكٍ عن طعامٍ أَو كلامٍ أَو سيرٍ فهو صائمٌ.[4]

فالصوم لغة: لفظ يدلُّ على إمساكٍ وركودٍ في مكان. من ذلك صَوم الصَّائم، هو إمساكُهُ عن مَطعَمه ومَشربه وسائرِ ما مُنِعَهُ.

ويكون الإمساك عن الكلام صوماً، قالوا في قوله تعالى: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحمنِ صَوْماً} (مريم: 26)، إنَّه الإمساكُ عن الكلامِ والصَّمتُ. والصَّوم: رُكود الرِّيح.[5]

والصوم اصطلاحاً: هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، وجميع المفطرات المقررة شرعاً، من طلوع الفجر، حتى مغيب الشمس، بنية التقرب إلى الله تعالى.

1. تفسير الماوردي، النكت والعيون، باب 4،35/ 403، المكتبة الشاملة.
2. مسند أحمد، تتمة مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.
3. التفسير الكبير: 25/ 182
4. لسان العرب، 8/ 309.
5. مقاييس اللغة:3/ 323.

مشروعية الصيام وحكمه:

الصيام ركن من أركان الإسلام الخمسة، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[1]

وأداء صيام رمضان فرض عين على المسلم البالغ العاقل المقيم، القادر عليه، أما المسافر، فيصح له أن يفطر، ويقضي فيما بعد، وكذلك السقيم العاجز عن الصيام مؤقتاً، يفطر ثم يقضي، أما العاجز عجزاً دائماً، فعليه الفدية، عن كل يوم لم يصمه لهذه العلة، والمرأة تفطر خلال فترتي الحيض والنفاس، ثم تقضي ما فاتها لاحقاً.

أما الصيام في غير رمضان، فيتفاوت حكمه بين الواجب، والسنة، والمكروه والحرام، فأداء صوم النذر والكفارة حين تتعين صوماً واجبٌ، ويسن صيام أيام من الأسبوع والأشهر والعام، ويكره صيام أيام معينة، مثل يوم الشك، وإفراد يوم الجمعة أو السبت بصوم.

ومن أدلة فرض الصوم، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: 183)

وصوم هذه الأمة، ليس كصيام الأمم السابقة، والتشبيه الوارد في الآية المذكورة أعلاه يبين أصل الصوم لا في كيفيّته، أو في كيفيّة الإفطار، ففي أول الأمر كان الإفطار مباحاً من غروب الشمس إلى وقت النوم فقط، كما كان في صوم من قبلنا، ثم نسخ بقوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} (البقرة: 187) أو في العدد أيضاً.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس»
2. الموسوعة القرآنية خصائص السور، المبحث السابع، لكل سؤال جواب في سورة «البقرة» ج1، ص 269، المكتبة الشاملة.

وعن طَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاء إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثَائِرَ الرَّأْسِ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصَّلَاةِ؟ فقال: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصِّيَامِ، قال: شَهْرَ رَمَضَانَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، قال: أَخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الزَّكَاةِ، قال: فَأَخْبَرَهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قال: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوَّعُ شيئاً، ولا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ شيئاً، فقال: رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَفْلَحَ إن صَدَقَ، أو دخل الْجَنَّةَ إن صَدَقَ) [1]

وقد سئلت عَائِشَةَ، رضي الله عنها، عن صَوْمِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: (كان يَصُومُ حتى نَقُولَ قد صَامَ قد صَامَ، وَيُفْطِرُ حتى نَقُولَ قد أَفْطَرَ قد أَفْطَرَ، قالت: وما رَأَيْتُهُ صَامَ شَهْرًا كَامِلًا مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، إلا أَنْ يَكُونَ رَمَضَانَ) [2]

فضائل الصائمين والصائمات وميزاتهم:

الصيام من خير الأعمال التي تقرب العبد لنيل مرضاة الله ومثوبته سبحانه، ومن فضائل الصائمين، وعلو منازلهم، تولي الله جزاء الصيام لمن صامه على الوجه الذي شرعه الله تعالى، وخُلُوف فم الصائم أطيب من ريح المسك، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له إلا الصَّوْمَ، فإنه لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ من رِيحِ الْمِسْكِ) [3]

وفي رواية صحيحة يقسم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أن خُلُوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (قال الله عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له إلا الصِّيَامَ، هو لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَخُلْفَةُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ من رِيحِ الْمِسْكِ) [4]

---

1 صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب في الزكاة وأن لا يفرق بين مجتمع.

2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي، صلى الله عليه وسلم، في غير رمضان.

3. صحيح البخاري، كتاب اللباس،باب ما يذكر في المسك.

4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

والصائمـون لهـم في الجنـة بـاب اسـمه الريـان، خصصـه اللـه سـبحانه لدخـول الصائمـين منـه إلى خـير المثـوى والمصـير، الجنـة الـتي أعدهـا اللـه لعبـاده المتقـين، ومنهـم الصائمـون، فعـن سَـهْلِ بـن سَـعْدٍ، رضي اللـه عنـه، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إِنَّ فِي الْجَنَّـةِ بَابًـا، يُقَـالُ لـه: الرَّيَّـانُ، يَدْخُـلُ منـه الصَّائِمُـونَ يـوم الْقِيَامَـةِ، لَا يَدْخُـلُ مَعَهُـمْ أَحَـدٌ غَيْرُهُـمْ، يُقَـالُ: أَيْـنَ الصَّائِمُـونَ؟ فَيَدْخُلُـونَ منـه، فـإذا دخـل آخِرُهُـمْ، أُغْلِـقَ، فلـم يَدْخُـلْ منـه أَحَـدٌ) [1]

ومـن حسـن جـزاء الصائمـين، صرفهـم عـن نـار جهنـم، وإبعـاد وجوههـم عنهـا، فعـن أبي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيِّ، رضي اللـه عنـه، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (مـا مـن عَبْـدٍ يَصُـومُ يَوْمًـا فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ، إلا بَاعَـدَ اللـه بِذَلِـكَ الْيَـوْمِ وَجْهَـهُ عـن النَّـارِ سَـبْعِينَ خَرِيفًـا) [2]

ومـن تكريـم الصائمـين، أن الـذي يخطـئ منهـم بتنـاول طعـامٍ أو شرابٍ، ناسـياً خـلال نهـار الصـوم، فإنـه يحـل ضيفـاً عـلى اللـه تعـالى، فعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: قـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (مـن أَكَلَ نَاسِـيًا وهـو صَائِـمٌ، فَلْيُتِـمَّ صَوْمَـهُ، فَإِنَّمَـا أَطْعَمَـهُ اللـه وَسَـقَاهُ) [3]

وبالإضافـة إلى هـذه الفضائـل الـتي يتميـز بهـا الصائمـون، فـإن صيامهـم يشـكل حاجـزاً يحـول دون دخولهـم نـار جهنـم، لأنـه يمنعهـم مـن ارتـكاب الخطايـا والذنـوب، فالصـوم وقايـة، كمـا جـاء في معـنى الحديـث الصحيـح، عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (الصِّيَـامُ جُنَّـةٌ) [4]

فالصـوم إنمـا كان جُنَّـةً مـن النـار؛ لأنـه إمسـاك عـن الشـهوات، والنـار محفوفة بالشـهوات، فالحاصـل أنـه إذا كـفّ نفسـه عـن الشـهوات في الدنيـا، كان ذلـك سـاتراً لـه مـن النـار في الآخـرة. [5]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه.
3. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان.
4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.
5. فتح الباري، 4 /104.

واجبات الصائمين والصائمات والتزاماتهم:

في مقابل فضائل الصائمين ومكارمهم، تأتي واجباتهم تجاه الصوم، فهم الذين يمتنعون عن تناول الشراب والطعام المتاحيْن لهما، وكذلك يكفّون عن المعاشرة الزوجية، خلال نهار الصوم الذي يبدأ من طلوع فجر اليوم، حتى مغيب شمسه، استجابة لأمر ربهم، حسب تفصيل أمره سبحانه الوارد في قوله جل شأنه: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (البقرة:187)

ولا رقيب عليهم سوى الله، فلا أحد يمكن له التأكد من أن المرء الذي أمامه، هل هو صائم أم لا، غير الله والمرء نفسه، ما دام لا يظهر انتهاكه لحرمة الصيام، وإلى جانب الإمساك المحدد لقاصد الصيام عن مفطراته المحددة، فإن التزام سلوكات الخلق الكريم، متطلب لازم التقيد به من قبل المسلم في ظروفه وأحواله كلها، ومما لا شك فيه أن تأكيد التحلي بالمكارم يزداد خلال أداء عبادة الصيام، ليكون بذلك مدرسة تهذيبية للسلوك، يتعزز من خلالها الإقبال على جيده وحسنه، ويطفئ في المقابل سيئه وفاسده، ومن الشواهد الدالة على دور مدرسة الصيام في تهذيب السلوك، ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم، في الحث على الصيام كبديل خلّاق عن الزواج لدى العاجز عن تحصيله، فعن عَلْقَمَةَ قال: (بَيْنَا أنا أَمْشِي مع عبد اللَّهِ، رضي الله عنه، فقال: كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: من اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فإنه له وِجَاءٌ) (*)

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة.

وبهذا الصدد يمكن التأمل جيداً في التوجيهات النبوية لسلوك الصائم، الواردة في الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ؛ فلا يَرْفُثْ، ولا يَجْهَلْ، وَإِن امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) [1]

فالعبرة في الصيام لا تقتصر على مجرد الكفّ عن مفطرات الصيام الخاصة بالطعام والشراب والمعاشرة الجنسية، وإنما تتعدى ذلك لتشمل مثالب السلوك، مثل: الرفث، والجهالة، والسب والشتم، وكذلك الغيبة والنميمة، وقول الزور، والعمل به، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) [2]

والمفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويخسر ثواب ذلك، بسبب مثالب السلوك الذي يفسد بره، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا من لَا دِرْهَمَ له، ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ الْمُفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مَالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قبل أَنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ) [3]

هدانا الله جل في علاه إلى حسن القول، وصالح العمل، لنكون من عباده المخلصين، الذين عرفوا الحق والتزموه، وأعاننا على أداء الصيام، والصلاة، وسائر العبادات على الوجوه المشروعة، لتقبل منا، ونثاب عليها في ضوء قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} (الزلزلة:6 - 8)

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن

تمـر بالمسـلمين كل عـام في شـهر رمضـان المبـارك مناسـبة نـزول القـرآن الكريـم، حيـث يقـول منزلـه جـل في علاه:{شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّـذِيَ أُنـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ...} (البقـرة: 185)، ووردت في تفسـير قولـه تعـالى: {الـذي أنـزل فيـه القرآن}ثلاثـة أقـوال:

أحدهـا، أنـه أنـزل القـرآن فيـه جملـة واحـدة، وذلـك في ليلـة القـدر، إلى بيـت العـزة مـن السـماء الدنيـا، قالـه ابـن عبـاس.

والثاني، أن معناه أنه أنزل القرآن بفرض صيامه، روي عن مجاهد والضحاك.

والثالـث، أن معنـاه أن القـرآن ابتـدئ بنزولـه فيـه عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قالـه ابـن إسـحاق وأبـو سـليمان الدمشـقي. (*)

والآيـة الكريمـة تشـير إلى غايـة نـزول القـرآن، والـتي تتلخـص بـأن يكـون: {هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ} وفي التفسـير الكبـير، أن هنـاك وجوهـاً في تفسـير قولـه تعـالى: {وَبَيِّنَـاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى} بعـد قولـه: {هُـدًى}:

أولهـا: أنـه تعـالى ذكـر أولاً أنـه هـدى، ثـم الهـدى عـلى قسـمين؛ تـارة يكـون كونـه هـدى للنـاس بينـاً جليـاً، وتـارة لا يكـون كذلـك، والقسـم الأول لا شـك أنـه أفضـل، فكأنـه قيـل هـو هـدى؛ لأنـه هـو البـين مـن الهـدى، والفـارق بـين الحـق والباطـل، فهـذا مـن بـاب مـا يذكـر الجنـس، ويعطـف نوعـه عليـه؛ لكونـه أشرف أنواعـه، والتقديـر كأنـه قيـل: هـذا هـدى، وهـذا بـين مـن الهـدى، وهـذا بينـات مـن الهـدى، ولا شـك أن هـذا غايـة المبالغـات.

---

* زاد المسير:1/ 187

والوجـه الثـاني: أن يقـال القـرآن هـدى في نفسـه، ومـع كونـه كذلـك، فهـو أيضـاً بينـات مـن الهـدى والفرقـان، والمـراد بالهـدى والفرقـان التـوراة والإنجيـل، قـال اللـه تعـالى: {نَـزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتَابَ بِالْحَـقِّ مُصَدِّقـاً لِمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ* مِـن قَبْـلُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَأَنـزَلَ الْفُرْقَـانَ}(آل عمـران:4 - 3)، وقـال: {وَإِذْ آتَيْنَـا مُـوسَى الْكِتَـابَ وَالْفُرْقَـانَ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ} (البقـرة:53) وقـال: {وَلَقَـدْ آتَيْنَـا مُـوسَى وَهَـارُونَ الْفُرْقَـانَ وَضِيَـاء وَذِكْـراً لِّلْمُتَّقِينَ}(الأنبيـاء:48)

فبـين تعـالى أن القـرآن مـع كونـه هـدى في نفسـه، ففيـه أيضـاً هـدى مـن الكتـب المتقدمـة، الـتي هـي هــدى وفرقـان.

والوجـه الثالـث أن يحمـل الأول عـلى أصـول الديـن، والهـدي الثـاني عـلى فـروع الديـن، فحينئـذ يـزول التكـرار، واللـه أعلـم.(*)

أول نزول للقرآن:

يحسـن في سـياق الحديـث عـن نـزول القـرآن الكريـم التذكير ببدايـة نزولـه، الـذي تحدثـت عنـه أم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا، فقالـت: (أَوَّلُ مـا بُـدِئَ بِـهِ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مِـنَ الوَحْـيِ الرُّؤْيَـا الصَّالِحَـةُ في النَّـوْمِ، فَـكَانَ لا يَـرَى رُؤْيَـا إلا جَـاءَتْ مِثْـلَ فَلَـقِ الصُّبْـحِ، ثُـمَّ حُبِّـبَ إليـه الخَـلاءُ، وكان يَخْلُـو بِغَـارِ حِـرَاءٍ، فَيَتَحَنَّـثُ فيـه ـ وهـو التَّعَبُّـدُ ـ اللَّيَـالِيَ ذَوَاتِ العَـدَدِ، قبـل أَنْ يَـنْزِعَ إلى أَهْلِـهِ، وَيَـتَزَوَّدُ لِذَلِـكَ، ثُـمَّ يَرْجِـعُ إلى خَدِيجَـةَ، فَيَـتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَـا، حـتى جَـاءَهُ الحَـقُّ، وهـو في غَـارِ حِـرَاءٍ، فَجَـاءَهُ المَلَـكُ، فقـال: اقْـرَأْ، قـال: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، قـال: فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي، حـتى بَلَـغَ مِنِّـي الجَهْـدَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: اقْـرَأْ، قلـت: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي الثَّانِيَـةَ، حـتى بَلَـغَ مِنِّـي الجَهْـدَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: اقْـرَأْ، فقلـت: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي الثَّالِثَـةَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: {اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ* خَلَـقَ الإِنسَـانَ مِـنْ عَلَـقٍ* اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ} (العلـق:1 - 3) فَرَجَـعَ بها رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يَرْجُـفُ فُـؤَادُهُ، فَدَخَـلَ عـلى خَدِيجَـةَ بِنْـتِ خُوَيْلِـدٍ، رضي اللـه عنهـا، فقـال: زَمِّلُـونِي زَمِّلُـونِي، فَزَمَّلُـوهُ، حـتى ذَهَـبَ عنـه الـرَّوْعُ، فقـال لِخَدِيجَـةَ، وَأَخْبَرَهَـا

* التفسير الكبير، 5/ 75

الْخَبَرَ: لقد خَشِيتُ على نَفْسِي، فقالت خَدِيجَةُ: كَلا، والله ما يُخْزِيكَ الله أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ على نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حتى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بن نَوْفَلِ بن أَسَدِ بن عبد الْعُزَّى، ابن عَمِّ خَدِيجَةَ، وكان امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكان يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ من الإِنْجِيلِ بالعِبْرَانِيَّةِ، ما شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وكان شَيْخًا كَبِيرًا، قد عَمِيَ، فقالت له خَدِيجَةُ: يا بن عَمِّ، اسْمَعْ من ابن أَخِيكَ، فقال له وَرَقَةُ: يا بن أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَبَرَ ما رَأَى، فقال له وَرَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله على مُوسَى، يا لَيْتَنِي فيها جذعاً، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هُمْ؟! قال: نعم، لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ).(*)

فهذا الحديث الشامل لواقعة البدء بنزول القرآن الكريم، وما تعلق بها من تداعيات، فيما يخص وصف حال النبي، صلى الله عليه وسلم، عند تلقي الوحي لأول مرة، وما تلقاه منه فيها، وموقف الزوجة الصالحة في القيام بواجبها تجاه مساندة زوجها في محنه وأزماته، وفيه أيضاً إشارة لبشارة الكتب السماوية السابقة بنبوة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

نزول القرآن في ليلة القدر المباركة:

أفصحت آيات القرآن الكريم عن نزوله في إحدى ليالي شهر رمضان، ألا وهي ليلة القدر، التي تفوق بالقدر والوزن ألف شهر، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ* لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ* سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ} (القدر: 1 - 5)، فهذه السورة الكريمة سميت بالقدر نسبة إلى قدر الليلة التي أنزل فيها القرآن، والمراد بالقدر الذي وصفت به هذه الليلة، كما ورد في التفسير الكبير، أنها إنما سميت بهذا الاسم؛ لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم

*صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب منه.

أنه ليس قدرها وشرفها، لسبب ذلك الزمان؛ لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته، فثبت أن شرفه وقدره، بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية، لها قدر عظيم، ومرتبة رفيعة، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا، وأعلى الأشياء وأشرفها منصباً في الدين هو القرآن؛ لأجل أن به ثبتت نبوّة محمد، صلى الله عليه وسلم، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزّلة، كما قال في صفته: {وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} (المائدة: 48)، وبه ظهرت درجات أرباب السعادات، ودركات أرباب الشقاوات، فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدراً، وأعلى ذكراً، وأعظم منصباً منه، فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان، علم أن القرآن إنما أُنزل في تلك الليلة.[1]

وفي أضواء البيان أن معنى قوله: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة؛ من رزق، وموت، وحياة، وولادة، ومرض، وصحة، وخصب، وجدب، وغير ذلك من أمور السنة جميعها، قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره، ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة.[2]

وأرجح الأقوال في موعد ليلة القدر أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رِجَالاً من أَصْحَابِ النبي، صلى الله عليه وسلم، (أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ في الْمَنَامِ في السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَرَى رُؤْيَاكُمْ قد تَوَاطَأَتْ في السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كان مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا في السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ)[3]

ووصفت ليلة نزول القرآن الكريم أيضاً بالمباركة، حسب ما جاء في سورة الدخان، حيث يقول جل شأنه: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} (الدخان: 3)، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} يعني ليلة القدر من رمضان، وكيفية

1. التفسير الكبير، 27/ 203 - 204.
2. أضواء البيان، 7/ 173.
3. صحيح البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر.

إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي، صلى الله عليه وسلم، شيئاً بعد شيء، وقيل: معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، وقيل يعني بالليلة المباركة ليلة النصف من شعبان، وذلك باطل لقوله: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} مع قوله: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن}. ومعنى {يفرق} في قوله تعالى:{فيها يفرق كل أمر حكيم}: أي يفصل، ويخلص، والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم في ذلك العام، نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة.[1]

نزول القرآن منجماً- مفرقاً:

اقتضت حكمة الله تعالى وإرادته أن لا ينزل القرآن الكريم جملة واحدة، بل نزل منجماً ـ أي مفرقاًـ وكثيراً ما كان يتعلق النزول بمناسبات وحوداث معينة، فيقول عز وجل: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} (الإسراء: 106)، وقد تعرضت هذه الآية الكريمة بالإشارة إلى بعض حِكَمِ نزول القرآن مفرقاً، وذلك لتمكين النبي، صلى الله عليه وسلم، من قراءته على الناس على مُكْث، أي على مَهل وتَثبت؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، وقرئ {مَكث} بالفتح، وهو لغة فيه، ومعنى قوله تعالى: {ونزلناه تنزيلاً} أي حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ويقع من الحوادث والواقعات.[2]

من أوصاف القرآن في القرآن:

وردت أوصاف عديدة للقرآن الكريم ذكرتها آيات التنزيل، وكل وصف منها له معانيه ودلالاته، ومن تلك الأوصاف المقتبسة من القرآن نفسه، ما يأتي:

القرآن عربي، ومن الآيات القرآنية التي ذكرت لغة القرآن، قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف: 2)، وتكرر هذا الذكر، وتأكد في آيات قرآنية أخرى، كما في الآية 28 من سورة الزمر، والآية 113 من سورة طه، والثالثة من سورة فصلت، والسابعة من سورة الشورى، والثالثة من الزخرف.

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 34.
2. تفسير أبي السعود: 5/ 199.

ليس له عِوَج، حيث يقول جل شأنه في الآية الأولى من سورة الكهف: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} (الكهف:1)؛ أي لم يجعل في القرآن عوجاً ـ أي لا اعوجاج فيه البتة ـ لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من العيوب جميعها، في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: {عوجاً} نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي أنواع العواج جميعها. وما ذكره جل وعلا هنا من أنه لا اعوجاج فيه، بينه في مواضع أُخر كثيرة، كقوله: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* قُرْءاناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}(الزمر:27 - 28) وقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنعام:115)، فقوله: {صدقاً}أي في الأخبار، وقوله: {عدلاً} أي في الأحكام، وكقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} (النساء:82) والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً. (*)

ووصف القرآن بالكريم والعظيم والمجيد والمبين، فقال تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} (الواقعة: 77).

ووصف بالعظيم، كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (الحجر: 87)، ووصف بالمجيد، كما في قوله جل شأنه: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} (ق: 1) وهو مبين، كما في قوله تعالى: {الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ} (الحجر: 1)، وفي الآية الأولى من سورة النمل، والآية 69 من سورة يس.

وورد في القرآن الكريم ذكر أوصاف ربانية وخصائص أخرى له، فهو من عند الله جل في علاه، ولن تستطيع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو يهدي للتي هي أقوم، وشفاء ورحمة وهدى ونور، وقرآن الفجر مشهوداً، وفيه من كل مثل، الحكيم ذو الذكر، والجن لما سمعوه شهدوا له بالعجب، والجبال تخشع وتتصدع من خشية الله لو أنزل عليها.

* أضواء البيان: 3/ 192.

التواصل مع القرآن:

ينبغي أن يكون الناس على دراية بالغاية العليا من نزول القرآن الكريم، وكيفية التواصل معه، فهو كتاب رباني لهداية العالمين، وما فيه من قصص وترغيب وترهيب وتشريع، يخدم هذه الغاية بأساليب وقوالب متنوعة ومشوقة، ومن أراد الاستفادة من نفع القرآن وخيره وثواب التواصل معه بالقراءة والتدبر، والعمل بما جاء فيه، فعليه أن يقرأه بتؤدة وترتيل، ويبحث عن تفسير آياته، وأحكامه، ومن أكبر آفات التعامل معه هجره، والإدبار عنه، وهي حالة شكاها الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى ربه عز وجل، وفق ما جاء من إخبار عن ذلك، ويفسر صاحب أضواء البيان المراد بهجر القرآن، فيقول: معلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم ـ أي تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها ـ فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً} (الفرقان:30).

فتدبر القرآن، وتفهمه، وتعلمه، والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين. وقد بين النبي، صلى الله عليه وسلم، أن المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت في حديث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) [1] وقال تعالى: {...وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} (آل عمران:79). [2]

الرقية بالقرآن:

الرقية أسلوب من أساليب العلاج الصحي والبدني، تستخدم إلى جانب تناول العقاقير الطبية اللازمة للعلاج، شريطة خلوها من الطلاسم، وأي أنواع الشرك، فعن عَوْفِ بن مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قال: (كنا نَرْقِي في الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ كَيْفَ تَرَى في ذلك؟ فقال: اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لا بَأْسَ بِالرُّقَى، ما لم يَكُنْ فيه شِرْكٌ). [3]

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.
2. أضواء البيان: 7/ 257.
3. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك..

وثبتت بالدليل ممارسة الرقية بالقرآن، فعن عَائِشَةَ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: {قُلْ هو الله أَحَدٌ} وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس} ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا ما اسْتَطَاعَ من جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا على رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وما أَقْبَلَ من جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذلك ثَلاثَ مَرَّاتٍ).[1]

الاستعاذة بالله عند البدء بقراءة القرآن:

من آداب قراءة القرآن ومستحباتها الاستعاذة من الشيطان عند البدء بها، استجابة للحث الوارد في قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل: 98)

وفي بعض التفاسير، أن أظهر القولين في هذه الآية الكريمة، أن الكلام على حذف الإرادة، أي فإذا أردت قراءة القرآن، فاستعذ بالله، الآية، وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان، كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم، ودليل المنحى الأول تكرر حذف الإرادة في القرآن، وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} أي أردتم القيام إليها، كما هو ظاهر.[2]

ومعنى الاستعاذة الالتجاء والاعتصام بالله، والاحتماء بحماه.[3]

تلاوة القرآن و ترتيله:

نزلت الآيات القرآنية تحت الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمسلمين معه، ومن بعده، على تلاوة القرآن وترتيله، فقال تعالى: {...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} (المزمل: 4)، والله كلف الوحي، عليه السلام، بترتيل القرآن على النبي، صلى الله عليه وسلم، بل كان من حِكَم نزوله مفرقاً تحقيق هذه الغاية، فقال عز وجل:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} (الفرقان: 32)

فالقرآن الكريم ينبغي أن يُتلى حسب التلاوة التي نقلها الوحي عن الله تبارك وتعالى، فقال جل شأنه: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} (القيامة: 18)

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات.
2. أضواء البيان: 2/ 443.
3. تفسير السعدي: 1/ 313.

أي إذا قرأه جبريل، فاجعل قراءة جبريل قراءة الله؛ لأنها من عنده، ومعنى اتبعْ قرآنه؛ أي اسمع قراءته، واتبعها بذهنك؛ لتحفظها، وقيل: اتبع القرآن في الأوامر والنواهي.[1]

وعلى لسان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول جل شأنه: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} (النمل: 92)

أي أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة، وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.[2]

ونهى الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، عن القراءة المستعجلة للقرآن، فقال عز وجل:{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} (طه: 114)

وقال تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} (القيامة:16)

ومن وصف طريقة تلاوة النبي، صلى الله عليه وسلم، للقرآن، ما جاء عن قَتَادَةَ، قال: (سُئِلَ أَنَسٌ، كَيْفَ كانت قِرَاءَةُ النبي، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كانت مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: {بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ} يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ).[3]

وعن أبي إِيَاسٍ، قال: سمعت عَبْدَ اللَّهِ بن مُغَفَّلٍ، قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يَقْرَأُ وهو على نَاقَتِهِ - أو جَمَلِهِ - وَهِيَ تَسِيرُ بِهِ، وهو يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ، أو من سُورَةِ الْفَتْحِ، قِرَاءَةً لَيِّنَةً، يَقْرَأُ وهو يُرَجِّعُ).[4]

وعن عبد اللَّهِ، قال: (غَدَوْنَا على عبد اللَّهِ، فقال رَجُلٌ: قرأت الْمُفَصَّلَ الْبَارِحَةَ، فقال: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، إِنَّا قد سَمِعْنَا الْقِرَاءَةَ، وَإِنِّي لَأَحْفَظُ الْقُرَنَاءَ التي كان يَقْرَأُ بِهِنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً من الْمُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ من آلِ حم)[5]

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 165
2. تفسير أبي السعود: 6/ 306.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القرآن..
4. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب الترجيع.
5. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب الترتيل في القراءة.

مما سبق يظهر أن الاستعجال في ختم القرآن غير محبذ، بل المطلوب الترتيل والتلاوة المتأنية، التي يراعى فيها تطبيق أحكام التلاوة، بخلاف قراءة بعض الناس الذين يسرعون في القراءة لتسجيل أرقام ختم القرآن، على خلاف المرغوب فيه الذي أكدته السنة المطهرة، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، قال: (أَنْكَحَنِي أبي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ، فَيَسْأَلُهَا عن بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ من رَجُلٍ، لم يَطَأْ لنا فِرَاشًا، ولم يُفَتِّشْ لنا كَنَفًا، منذ أَتَيْنَاهُ، فلما طَالَ ذلك عليه، ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال: الْقَنِي بِهِ، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فقال: كَيْفَ تَصُومُ؟ قال: كُلَّ يَوْمٍ، قال: وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟ قال: كُلَّ لَيْلَةٍ، قال: صُمْ في كل شَهْرٍ ثَلَاثَةً، واقرإ الْقُرْآنَ في كل شَهْرٍ، قال: قلت: أُطِيقُ أَكْثَرَ من ذلك، قال، صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ في الْجُمُعَةِ، قلت: أُطِيقُ أَكْثَرَ من ذلك، قال: أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، وَصُمْ يَوْمًا، قال: قلت: أُطِيقُ أَكْثَرَ من ذلك، قال: صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ؛ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ، وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ في كل سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً، فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؛ وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ، وَضَعُفْتُ، فَكَانَ يَقْرَأُ على بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ من الْقُرْآنِ بِالنَّهَارِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَعْرِضُهُ من النَّهَارِ، لِيَكُونَ أَخَفَّ عليه بِاللَّيْلِ، وإذا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا، وَأَحْصَى، وَصَامَ مِثْلَهُنَّ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شيئاً فَارَقَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عليه، قال أبو عَبْد اللَّهِ: وقال بَعْضُهُمْ في ثَلَاثٍ، وفي خَمْسٍ، وَأَكْثَرُهُمْ على سَبْعٍ) [1]

والناس حيال القرآن وتلاوته، أصناف وأشكال ودرجات، وصفها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لها، وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، ليس لها رِيحٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ) [2]

فهنيئاً لمن كان مثل الْأُتْرُجَّةِ، مؤمن يقرأ القرآن، ريحه طيب، وطعمه طيب، وبئس من كان من صنف الحنظلة، أو الريحانة.

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن.
2. صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام.

التغني بالقرآن:

من ميزات القرآن الكريم، قابليته لجذب القلوب، وشد الأسماع، لموسيقاه، وبيانه، وبلاغته، ومضامينه، وسواء فسر التغني به بتجويد صوت قارئيه، أم بغير ذلك، فهي ميزة من ميزاته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ كان يقول: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لم يَأْذَنِ الله لِشَيْءٍ ما أَذِنَ لِلنَّبِي أن يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، وقال صَاحِبٌ له يُرِيدُ يَجْهَرُ بِهِ)[1]، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أَذِنَ الله لِشَيْءٍ ما أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، قال سُفْيَانُ: تَفْسِيرُهُ يَسْتَغْنِي بِهِ).[2]

وفي عمدة القاري ذِكْرٌ للاختلاف في معنى التغني، فعن الشافعي تحسين الصوت بالقرآن، وقيل يستغني به عن أخبار الأمم الماضية، والكتب المتقدمة، وقيل: معناه التشاغل به والتغني، وقيل: إن أوضح الوجوه في تأويله من لم يغنه القرآن، ولم ينفعه في إيمانه، ولم يصدق بما فيه، من وعد، ووعيد، فليس منا، ومن تأول بهذا التأويل، كره القراءة بالألحان والترجيع.[3]

ولما سمع الرسول، صلى الله عليه وسلم، قراءة أبي موسى الأشعري للقرآن، أثنى عليها، وقال له: (يا أَبَا مُوسَى؛ لقد أُوتِيتَ مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ).[4]

وهنا لا مجال للاختلاف بأن المقصود حسن الصوت، ومعنى قوله: (لقد أُعطيت بصيغة المجهول، (مِزمَاراً): بكسر الميم؛ أي صوتاً حسناً ولحناً طيباً، قال الحافظ: المراد بالمزمار الصوت الحسن، وأصله الآلة، أطلق اسمه على الصوت للمشابهة، وقوله: (من مزامير آل داود) أي من ألحانه.

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن.
2. التخريج نفسه.
3. عمدة القاري، 20/ 40
4. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن.

وعن النووي في شرح مسلم، قال العلماء: المراد بالمزمار هنا الصوت الحسن، وأصل الزمر الغناء، وآل داود هو داود نفسه، وآل فلان قد يطلق على نفسه، وكان داود، صلى الله عليه وسلم، حسن الصوت جداً[1]، لكن بالتأكيد، فإن القراءة الحسنة للقرآن تكون وفق أحكام التجويد والتلاوة المأثورة.

تدبر القرآن والتذكير به:

أفضل ما تكون عليه قراءة القرآن، أن تتم تلاوة وترتيلاً، مع تدبر المقروء، حيث أنكر الله تعالى على الذين لا يتدبرون القرآن، فقال جل شأنه: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} (النساء: 82)، وقال عز وجل: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد: 24)

وتدبر القرآن يقود إلى الانتفاع من التذكير به، حيث يسره الله لذلك، فقال جل شأنه: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر: 17)، أي يسرناه للحفظ، وهذا معلوم بالمشاهدة، فإنه يحفظ الأطفال وغيرهم حفظاً بالغاً، بخلاف غيره من الكتب.

وقيل: معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به؛ لما تضمن من البراهين والحكم البليغة، وإنما كرر هذه الآية البليغة، وقوله: {فذوقوا عذابي ونذر} لينبه السامع عند كل قصة فيعتبر بها إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} ومن الملاطفة في قوله: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.[2]

ومعلوم أن هذه الآية الكريمة تكرر ذكرها أربع مرات في سورة القمر، وذلك في الآيات 17، و22، و32، و40، ومن المحال أن يكون ذلك عبثاً، وإنما هو حافز للذكر والاتعاظ، وأمر جل جلاله بالتذكير بالقرآن في قوله عز وجل: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}. (ق: 45)

1. تحفة الأحوذي: 10/ 241.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 81.

ويشترط لتلاوة القرآن وتجويده أن يَتِمَّا بعيداً عن الرياء، فعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّهُ قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مع صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مع صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويقرؤون الْقُرْآنَ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ، كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ في النَّصْلِ، فلا يَرَى شيئاً، وَيَنْظُرُ في القِدْحِ، فلا يَرَى شيئاً، وَيَنْظُرُ في الرِّيشِ، فلا يَرَى شيئاً، وَيَتَمَارَى في الفُوقِ). [1]

اسْتِذْكَارِ الْقُرْآنِ وَتَعَاهُدِهِ:

يجدر بالمسلم المتواصل مع القرآن الكريم، قراءةً وتدبراً وحفظاً، أن يتعاهده بالمراجعة الدائمة، وتثبيت الحفظ والاستذكار، لحديث نَافِعٍ، عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إنما مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إن عَاهَدَ عليها أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ). [2]

قوله: (إن عَاهَدَ عليها أَمْسَكَهَا): أي استمر إمساكه لها، وقوله: (وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ): أي انفلتت. [3] وورد الذم للذي ينسى ما حفظ منه، بسبب إهمال المراجعة والتثبيت، فعن عبد اللَّهِ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (بِئْسَ ما لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فإنه أَشَدُّ تَفَصِّيًا[4] من صُدُورِ الرِّجَالِ من النَّعَمِ). [5]

وعن أبي مُوسَى، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا من الإِبِلِ من عُقُلِهَا). [6]

---

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن...
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده.
3. فتح الباري: 9/ 79.
4. تَفَصِّيا: بِفَتْح الْفَاء وَتَشْدِيد الصَّاد الْمَكْسُورَة بعدهَا الْيَاء آخر الْحُرُوف. هُوَ الِانْفِصَال والانفلات والتخلص. يُقَال تفصيت كَذَا أَي: أحطت بتفاصيله، وَالِاسْم الفصة ، (عمدة القاري:)
5. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده.
6. التخريج نفسه

الاستماع للقرآن والإنصات له والعمل به:

بعض الناس أميون، أو لا يتقنون القراءة، فيمكنهم الاستعاضة عنها بالسماع للتلاوة، لينالوا بعض ما فاتهم من خير تلاوته وتدبُّرِه، وحسن الإصغاء والإنصات لتلاوة القرآن مطلوب من المسلمين عامة، استجابة لأمر الله عز وجل: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الأعراف: 204)، وللمفسرين أقوال بشأن المراد بالاستماع والإنصات هنا، فذكر أن فيه ثلاثة أقوال:

أحدها، أن الإنصات المأمور به هو لقراءة الإمام في الصلاة.

والثاني، أنه الإنصات للخطبة.

والثالث، أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق، وهو ما رجح لوجهين: أحدهما، أن اللفظ عام، ولا دليل على تخصيصه، والثاني، أن الآية مكية والخطبة إنما شرعت بالمدينة.[1]

والعمل بمقتضى ما جاء في القرآن الكريم من أوامر ونواهٍ، أمر لازم، بصفته المصدر الأول للتشريع في الإسلام، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (وقد تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ).[2]

فهذه نفحات مجملة لبعض خصائص القرآن الكريم، وواجب المسلمين نحوه، أحببنا التذكير بها مع حلول شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، الذي نتعبد إلى الله بتلاوته في الصلاة وخارجها، حسب ما شرع الله لنا، عسى أن ينفعنا الله بالقرآن وهداه والتذكير به، وهو كتاب الله المحفوظ إلى يوم الدين، مصداقاً لقول رب البرية: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر:9) ومن اتبعه فلا يضل ولا يشقى.

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 59 - 60

2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.

أفلح من صلى وصام وزكى

الإنسان العاقل يسعى دائماً لأن يكون رابحاً، فيأخذ بأسباب التفوق والنجاح، ويتجنب سبل الخسارة والإخفاق، سواء في دراسته، أم عمله، أم تجارته، أم زواجه، وفي أمره كله، وأبرز نجاح يصبو إليه العقلاء ذاك المتعلق بمصير الآخرة، فالذي يريد أن يكون فائزاً فيها، ينبغي له أن يعمل وفق هدى الله تعالى، من خلال التجند لعبادة الرحمن، انطلاقاً من الإيمان، وتكون العبادة من خلال العمل بالطاعة، وتجنب المعصية، وتلكم هي الغاية التي خلق رب العزة الإنسان لأجلها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: 56)

والعبادة هنا تشمل كل عمل مبرور، سواء تعلق بالشعائر أم بمختلف أنواع السلوك الأخرى، فرسول اللّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَةٌ).[1]

ويقول صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ سلامى من الناس عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ يَعْدِلُ بين الاثنين صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ على دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عليها، أو يَرْفَعُ عليها مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خطوة يَخْطُوهَا إلى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ).[2]

فمجال العبادة رحب واسع، فهي لا تنحصر بغني أو فقير، ولا بحال دون غيره، فالتصرفات كلها قابلة لأن تكون عبادة، ومن لا يملك سعة لأداء بعضها شرعت له بدائل يستطيعها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (جاء الْفُقَرَاءُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: ذَهَبَ

1. صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه.

أَهْلُ الدُّثُورِ([1]) مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ من أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بها، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قال: ألا أُحَدِّثُكُمْ بأمر إن أَخَذْتُمْ به أَدْرَكْتُمْ مَن سَبَقَكُمْ، ولم يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَن أَنْتُمْ بين ظَهْرَانَيْهِ إلا من عَمِلَ مثله؟ تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كل صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فقال بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إليه، فقال: تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حتى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ). [2]

وفي حديث صحيح آخر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (على كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللَّهِ؛ فَمَنْ لم يَجِدْ؟ قال: يَعْمَلُ بيده، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عن الشَّرِّ، فَإِنَّهَا له صَدَقَةٌ). [3]

معيار اندراج العمل في منظومة العبادة:

العبادة سواء عبر عنها بالصدقة أم بغيرها من المصطلحات الدالة على معنى التقرب إلى الله تعالى، تشمل ما يصدر عن المرء من الأقوال والأفعال مما يقصد بها وجه الله تعالى، وطلب رضاه سبحانه وتعالى، ويشمل ذلك أبسط الأمور وأعظمها.

والنية تحدد صبغة العمل وصفته، أهو عبادة أم غير ذلك، ففي صحيح البخاري بَاب ما جاء أن الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَدَخَلَ فيه الْإِيمَانُ، وَالْوُضُوءُ، وَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالْحَجُّ، وَالصَّوْمُ، وَالْأَحْكَامُ، وقال الله تَعَالَى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ} على نِيَّتِهِ، نَفَقَةُ الرَّجُلِ على أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا صَدَقَةٌ، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ). [4]

1.أهل الدثور: أَي أهل المَال الْكثير، (فتح الباري: 1/ 116)

2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة

3. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف

4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، واضحاً أشد الوضوح في ربط قبول العمل بالنية، ففي الحديث المشهور، عن عُمَرَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).[1]

وفي معظم وعود الأجور على الأعمال التعبدية، كان يأتي التأكيد على النوايا والمقاصد الباعثة عليها، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا أَنْفَقَ الرَّجُلُ على أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا، فَهُوَ له صَدَقَةٌ).[2]

وعن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال له: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً، تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تَجْعَلُ في فم امْرَأَتِكَ).[3]

وفي الصيام والقيام تنبيه إلى أهمية الاحتساب، أي الإخلاص في النية لله تعالى فيهما، فيقول صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إيمانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيمانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[4]

حتى إن أجر مشيع الجنازة والمصلي عليها مرهون بالنية، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وكان معه حتى يُصَلَّى عليها، وَيَفْرُغَ من دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ من الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صلى عليها، ثُمَّ رَجَعَ قبل أَنْ تُدْفَنَ، فإنه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ).[5]

وإلى جانب المعنى العام للعبادة، يرد معناها الخاص، الذي يشمل الشعائر المحددة بالصفة والهيئة والشروط والأركان، فالصلاة والصيام والزكاة والحج هي أركان الإسلام، إضافة إلى الشهادتين، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ،

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى
2. التخريج نفسه.
3. التخريج نفسه.
4. صحيح البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر
5. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان

وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).[1] فيطلب لهذه الأركان حسن الأداء، المنطلق من صفاء النوايا والمقاصد، مع التنبيه إلى أن الأعمال والأقوال العامة المشروعة تصبح عبادات بالنوايا الحسنة، والشعائر التعبدية لا تقبل أن تكون أعمالاً عامة، والشرط الأساس لسلامة أدائها إخلاص النية فيها.

اقتران العبادة بالسلوك وحسن الخلق:

الشعائر التعبدية لا تنفصل مطلقاً، ولا بحال من الأحوال عن حسن الخلق، فالله تعالى يقول:{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.(البقرة: 177)

فمن المحال أن يكون من قبيل المصادفة ورود هذا الاقتران في الذكر القرآني للإيمان، والصدقات، والصلاة، والزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر، والصدق، والتقوى، وإنما هو اقتران دال على الارتباط الوثيق بين العبادة والسلوك الفردي والمجتمعي، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أكد في مواقف عدة ومناسبات وأقوال كثيرة، على الصلة الوثيقة بين جانبي العبادة والسلوك، فعن الصيام والخلق، يقول: (مَن لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[2]

والله تعالى ربط بين قبول صلاة العابد وحسن خلقه، فقال جل ذكره: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}. (الماعون: 4-7)

كما ربط سبحانه بين الصدقة، وحسن خلق مؤديها تجاه من تُؤدى إليه، فنهى عن المن والأذى، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}. (البقرة: 264)، وقال سبحانه: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}(البقرة: 263)

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس)

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم

جوائز المصلين والصائمين والمزكين:

إذا تحققت شروط قبول العبادة، فإن الله سبحانه وتعالى بواسع كرمه، يجود على العابدين بالثواب الجزيل، الذي لا يخضع لنظام القرعة، ولا لفرص فوات الحظ أو توافره، فالذين يلجأون إلى ذلك في منح هباتهم وجوائزهم، إنما تضطرهم لهذا القلة والفرص الضيقة، فلا مجال لإعطاء مئات الفائزين أو آلافهم جوائز مجزية، من هنا يتم اللجوء إلى القرعة التي من خلالها يُحَدَّد صاحب الحظ من بينهم، ويعطى غيره جوائز ترضية، أو تعزية من خلال التوجه إليه بعبارة: حظاً أوفر، بينما الأمور عند الله تعالى مالك الملك، على غير هذه الاختزالات، فهو سبحانه لديه الخزائن التي لا تنضب، مصداقاً لقوله تعالى: {...وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ} (المنافقون: 7)، فعند الله تعالى ينال كل فائز جائزته من غير تأثر سلبي بكثرة عدد الفائزين، فالعابدون لهم جوائزهم الموعودة يوم القيامة، وفي الحديث القدسي الصحيح، (يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي، إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي؛ إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ).(*)

فالجنة جزاء العابدين الوافر، وما أدراك ما الجنة؟! فيها ما ليس في غيرها من النعيم والملذات، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم

اللَّـه، صلى الله عليه وسلم: (قال الله: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، ما لَا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرءوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ}) [1]

فمن يؤدِ أركان الإسلام وفق شروطها الميسورة ينلْ أجرها، ويبلغ أسمى المعالي والدرجات، فعن طَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاء إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثَائِرَ الرَّأْسِ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصَّلَاةِ؟ فقال: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصِّيَامِ؟ فقال: شَهْرَ رَمَضَانَ إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الزَّكَاةِ؟ فقال: فَأَخْبَرَهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قال: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لا أَتَطَوَّعُ شيئاً، ولا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ شيئاً، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَفْلَحَ إن صَدَقَ، أو دخل الْجَنَّةَ إن صَدَقَ). [2]

وفي رواية صحيحة أخرى أجاب الرسول، صلى الله عليه وسلم، سائله عن عمل يدخله الجنة، فقال السائل: (وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لَا أَزِيدُ على هذا، فلما وَلَّى قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إلى هذا). [3]

وأثنى الله تعالى على العابدين المؤمنين المصلّين المزكين في آيات قرآنية كثيرة، منها ما جاء في مطلع سورة (المؤمنون)، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. (المؤمنون: 1 - 11)

---

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان
3. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة

وفي وصف جزاء الصائمين وردت الأدلة الصريحة، كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الله عز وجل: (الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ، وَأَكْلَهُ، وَشُرْبَهُ، من أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ من رِيحِ الْمِسْكِ). (*)

مما سبق يظهر أن أمر الفلاح في الآخرة ممكن لمن سعى إليه، وشمر عن ساعديه، وعمل مخلصاً بما شرع الله تعالى، وعلى هدي خير الأنام، صلى الله عليه وسلم، الذي وعد مخلصي العبادة بالفلاح يوم القيامة، هدانا الله تعالى لتلبية نداء الفلاح الذي يردده المؤذن على مسامعنا صباح مساء، في كل نداء للصلاة، والأمر يسير على من يسره الله تعالى إليه، وفي حديث الأعرابي الذي شهد له الرسول، صلى الله عليه والسلام، بالفلاح إن صدق، عبرة وعظة، عسى أن نكون من مستشعريها، وملتمسي الأخذ بفحواها.

---

* صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} (الفتح: 15)

أيها الصائمون، جوائزكم متوجة بالعتق من النار

الناس مبتلون لا محالة بمصيبة الموت، وحتميته، والله تعالى يقول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: 35)، وبالموت يفارق الناس الحياة الدنيا، وينتقلون إلى الآخرة، وهناك يعلن عن الخلود في الجنة أو النار، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم هذا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قد رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يا أَهْلَ النَّارِ؛ فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم، هذا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قد رَآهُ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يقول: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ؛ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يوم الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ} - وَهَؤُلَاءِ في غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا- {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}). (*)

فحتمية موت الخلق كلهم حقيقة لا يختلف عليها عاقلان، والموت نفسه سينتهي به المطاف هو الآخر إلى الموت، ومهما بذل الناس من حرص على دوام البقاء، وتجنب الفناء، فإنهم سيخفقون من النجاة منه، حين يحين أجلهم المحتوم، مصداقاً لقوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...}. (النساء: 78)

ويؤكد الله تعالى لرسوله، صلى الله عليه وسلم، هذه الحقيقة، فيخبره عن حتمية موته وموت الناس، ولحكمة أرادها سبحانه، قدم ذكر موت النبي، صلى عليه وسلم، على ذكر موتهم، فقال جل شأنه: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ *ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} (الزمر30 - 31)، مما يعني أن الموت لن يترك أحداً من الخلق إلا أصابه بمصيبته.

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة (كهيعص)، باب قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة}(مريم: 39).

مصير الخلق بعد الموت:

في ظل الإيمان بحتمية الموت، فإن مصير الأموات هو القضية التي ينبغي النظر إليها باهتمام بالغ، وعناية فائقة، عسى أن يحفز التفكير بها إلى العمل المنجي من العذاب، والجالب للثواب، والله تعالى يقول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}. (آل عمران: 185)

وفي التنبيه إلى ضرورة السعي الحثيث إلى أداء ما يقرب من الجنة، ويبعد من النار، وردت كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومن ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحشر: 18)، فأعمالنا نرصدها ليوم تشخص فيه الأبصار، حين نحاسب عليها، ولا يفوت صحائف أعمالنا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت فيها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} (الكهف: 49)

قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} (الزلزلة: 6 - 8)

وقال سبحانه: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى* فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى* وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى* إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى* وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى* فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى* وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى* وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى* إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى}. (الليل:4 - 21)

فالإنسان يجد نتائج أعماله في الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والعبرة بخواتيم الأعمال، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (...فإن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ،

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ).[1]

وفي هذا المقام يستحسن التذكير بأن الحقوق لا تضيع في الآخرة، حتى إن الناس يستردون حقوقهم من بعض فيها، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ من النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ على قَنْطَرَةٍ بين الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فيقص لِبَعْضِهِمْ من بَعْضٍ مَظَالِمُ كانت بَيْنَهُمْ في الدُّنْيَا، حتى إذا هُذِّبُوا، وَنُقُّوا، أُذِنَ لهم في دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ في الْجَنَّةِ منه بِمَنْزِلِهِ كان في الدُّنْيَا).[2]

فوز الصائمين بالجنة:

في سياق الحديث عن الموت، وما بعده من حساب الخلائق ومصيرها، والاستعداد لذلك بالأعمال المنجية، فإن الصيام من أبرز الأعمال التي ينال صاحبها الجنة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كان حَقًّا على اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ في سَبِيلِ اللَّهِ، أو جَلَسَ في أَرْضِهِ، التي وُلِدَ فيها، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفَلَا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إِنَّ في الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللَّهِ، ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[3].

والفوز بالجنة جائزة عظيمة يهبها الله تعالى للصائمين المحتسبين.

مغفرة ذنوب الصائمين:

من أعظم جوائز الصائمين مغفرة ذنوبهم، فخطايا البشر وذنوبهم تأتي وبالاً على كواهلهم يوم القيامة، إلا من هداه الله إلى التوبة والاستغفار والإنابة إليه سبحانه، وشمله برحمته جل جلاله، والصيام عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى؛ استجابة لأمره سبحانه، عسى أن ترفع بها درجاته، وتغفر بسببها ذنوبه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[4]

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، صلوات الله عليه، وذريته.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله . يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان

والصيام مع عدد من العبادات الأخرى، التي تتكرر، تكفل الله تعالى أن يغفر لأصحابها ذنوبهم التي تتخلل أولها وتاليها، مصداقاً لقولهِ صلى الله عليه وسلم: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إلى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ ما بَيْنَهُنَّ، إذا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ).[1]

وكذلك قيام ليالي رمضان؛ احتساباً لوجه الله تعالى، من مسببات محو الذنوب السابقة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

وتلك لعمري من أعظم الجوائز التي ينتظرها الناس يوم القيامة، والتي لا وجه لمقارنتها بأعظم جوائز الدنيا وخيراتها.

فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار في رمضان:

من فضائل الصيام، وجوائز الصائمين عليه، أن الله تعالى فتح لهم أبواب رحمته في شهر الصيام، وأبعد عنهم العقاب، وحجز عنهم الشياطين، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).[3]

ورد في حاشية السندي على سنن النسائي، أن معنى قوله: (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ)؛ أي تقريباً للرحمة إلى العباد، ولهذا جاء في بعض الروايات أبواب الرحمة، وفي بعضها أبواب السماء، وهذا يدل على أن أبواب الجنة كانت مغلقة، ولا ينافيه قوله تعالى: {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب} إذ ذلك لا يقتضي دوام كونها مفتحة.

وقوله: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ) أي تبعيداً للعقاب عن العباد، وهذا يقتضي أن أبواب النار كانت مفتوحة ولا ينافيه قوله تعالى: {حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها} لجواز أن يكون هناك غلق قبيل ذلك، وغلق أبواب النار لا ينافي موت الكفرة في رمضان، وتعذيبهم بالنار فيه، إذ يكفي في تعذيبهم فتح باب صغير من القبر إلى النار، غير الأبواب المعهودة الكبار.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده

(وصفدت الشياطين) أي شددت وأوثقت بالأغلال وفي رواية، وسلسلت وهو بمعناه، ولا ينافيه وقوع المعاصي، إذ يكفي في وجود المعاصي شرارة النفس وخباثتها، ولا يلزم أن تكون كل معصية بواسطة شيطان، وإلا لكان لكل شيطان شيطان ويتسلسل، وأيضاً معلوم أنه ما سبق إبليس شَيْطَان آخر فمعصيته مَا كَانَت إلا من قبل نَفسه وَالله تَعَالَى أعلم.[1]

ويعلل ابن تيمية فتح أبواب الجنة، وغلق أبواب النار، وتصفيد الشياطين في رمضان؛ لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى الخير والأعمال الصالحة، التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار، وتصفد الشياطين، فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار؛ فإن المصفد هو المقيد؛ لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات، فإذا كفوا عن الشهوات، صفدت الشياطين.[2]

وورد في فتح الباري، أنه يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقي السمع منهم، وأن تسلسلهم يقع في ليالي رمضان دون أيامه؛ لأنهم كانوا منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع، فزيدوا التسلسل مبالغة في الحفظ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتتان المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره؛ لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشهوات، وبقراءة القرآن والذكر، وقال غيره: المراد بالشياطين بعضهم، وهم المردة منهم.

وقال القرطبي بعد أن رجح حمله على ظاهره: فإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك، فالجواب أنها إنما تقل عن الصائمين الصوم الذي حوفظ على شروطه، وروعيت آدابه، أو المصفد بعض الشياطين، وهم المردة لا كلهم، كما تقدم في بعض الروايات، أو المقصود تقليل الشرور فيه، وهذا أمر محسوس، فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، إذ لا يلزم من تصفيد جميعهم، أن لا يقع شر، ولا معصية؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين، كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية.[3]

---

1. حاشية السندي على سنن النسائي، 4/ 126.
2. كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، 14/ 167.
3. المصدر نفسه.

باب الريان:

مـن جوائـز الصائمـين المميـزة، أن اللـه تعـالى خصهـم ببـاب خـاص بهـم، يدخلـون منـه إلى الجنـة، فالنبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (إِنَّ فِي الْجَنَّـةِ بَابًـا، يُقَـالُ لـه الرَّيَّـانُ، يَدْخُـلُ منـه الصَّائِمُـونَ يـوم الْقِيَامَـةِ، لَا يَدْخُـلُ منـه أَحَـدٌ غَيْرُهُـمْ، يُقَـالُ: أَيْـنَ الصَّائِمُـونَ؟ فَيَقُومُـونَ، لَا يَدْخُـلُ منـه أَحَـدٌ غَيْرُهُـمْ، فـإذا دَخَلُـوا أُغْلِـقَ، فلـم يَدْخُـلْ منـه أَحَـدٌ). [1]

واختصـاص الصائمـين ببـاب خـاص يـؤدي بهـم إلى الجنـة، فيـه مـن التكريـم مـا فيـه، والـذي أهلهـم لذلـك هـو الصيـام إيمانـاً واحتسـاباً، كمـا ورد في أحاديـث جوائـز الصائمـين.

الصيام جُنَّةٌ:

مـن الأعمـال الصالحـة الـتي تثمـر لصاحبهـا خـيرات حسـان في الآخـرة الصـوم، الـذي هـو جُنَّـة، مصداقـاً لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (الصِّيَـامُ جُنَّـةٌ). [2]

ومعـنى الصيـام جُنَّـة؛ أي سـترة، ومانـع مـن الرفـث والآثـام، ومانـع أيضـاً مـن النـار، ومنـه المجـن وهـو الـترس، ومنـه الجـن لاسـتتارهم. [3]

الصوم وِجَاءٌ:

مـن خـيرات الصيـام أنـه يعالـج حـدة الغريـزة وعنفوانهـا، فعـن عبـد اللَّـهِ، رضي اللـه عنـه، قـال: كنـا مـع النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فقـال: (مَـن اسْـتَطَاعَ الْبَـاءَةَ فَلْيَـتَزَوَّجْ؛ فإنـه أَغَـضُّ لِلْبَـصَرِ، وَأَحْصَـنُ لِلْفَـرْجِ، وَمَـنْ لـم يَسْـتَطِعْ، فَعَلَيْـهِ بِالصَّـوْمِ، فإنـه لـه وِجَـاءٌ). [4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام
3. صحيح مسلم بشرح النووي، 8 /30 - 31
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة.

متطلبات نيل جوائز الصيام:

جوائز الصيام المتوجة بغفران ذنوب الصائم، ودخوله الجنة من باب الريان، تقتضي أن يؤدى على الوجه الصحيح، ومن متطلبات ذلك أن يقصد به وجه الله تعالى، دون سواه، وأن تخلو أيامه من الرفث، والفسق، والسب، والشتم، ومثالب الأخلاق، وعيوب السلوك قولاً وعملاً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا).[1]

ومن متطلبات نيل جوائز الصيام الاجتهاد في العبادة في نهاره وليله، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا دخل الْعَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ).[2]

هدانا الله تعالى إلى خير العمل، وإلى أن نصوم رمضان على الوجه الذي يرضي الرحمن، وأن يجعلنا الله من عتقائه، ومن أهل الريان، الذين يدخلون الجنة بسلام.

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم
2. صحيح البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان

هنيئاً للحجاج طهارتهم من الذنوب والخطايا

ذنوب الخلق وخطاياهم ليس لها حصر، وهي موجودة بالاقتران مع وجودهم، فإن أبقوا عليها قست قلوبهم، وساء مصيرهم، وإن تطهروا منها، ونفضوها عن كواهلهم أبدلهم الله بها حسنات، وربحوا البيع، مصداقاً لقوله عز وجل: {إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الفرقان: 70)

تاريخ الذنوب البشرية:

منذ بداية خلق البشر، وجدت الخطيئة، فعصى آدم، لكنه تاب، فتاب الله عليه، كما يخبر عن ذلك رب البرية، في قرآنه الكريم، فيقول تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى* فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} (طه:120 - 122)

ثم كانت من بعد ذلك خطيئة قتل أحد ابني آدم أخاه، التي أخبر القرآن الكريم عن بعض حيثياتها، فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ* فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ

كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} (المائدة: 27 - 31)

ثم استمر وقوع الخطايا والذنوب من البشر، وذلك ينسجم مع السماح لإبليس بممارسة الإغواء لبني آدم، بناء على طلبه الإذن بذلك من رب العالمين، وعن هذا يقول تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} (الأعراف: 14 - 17)

مفهوم الذنوب والخطايا:

يُطلق مصطلحا الذنوب والخطايا، على الأقوال والأفعال، التي تخالف شرع الله، سواء ما تعلق منها بالشعائر التعبدية، أم بالعلاقات العامة والخاصة، أم بمجالات شؤون الحياة الأخرى، وتطلق على المخالفات الشرعية مسميات عدة، فهي السيئات والذنوب والخطايا والمعاصي والفجور والآثام، وما شابه ذلك من المسميات، التي تدل في مجملها على أداء مخالف لأمر الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والعلماء عملوا على التفريق بين معاني هذه المسميات، وبيان أوجه الدلالة الخاصة بكل منها، والمقام هنا لا يتسع لعرض ذلك، ويكفي الاستدلال ببعض الشواهد الشرعية على بعض هذه المسميات، فمن ذلك قوله تعالى في المعاصي: {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (النساء: 14)

ويقول تعالى في السيئات والآثام: {وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} (النساء: 111)، ويقول تعالى في الخطيئة: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} (النساء: 112)، ويقول سبحانه في الفجور: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: 8)

التوبة من الذنوب والخطايا:

ما دام صدور الذنب من الإنسان متوقعاً وغير مستغرب، فكان من رحمة الله بعباده، أن فتح باب التوبة والاستغفار، فمن أذنب فرجع وأناب، سيجد الله غفوراً رحيماً، حسب وعود الله الصادقة بالخصوص، والتي تحدثت عنها آيات قرآنية كريمة، يقول تعالى في إحداها: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: 135)

والعفو عن ذنوب التائبين، يشمل سائر الذنوب الخالية من التلبس بالشرك، مصداقاً لقوله عز وجل: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}(النساء: 48)

وفي سورة النساء نفسها تكرر التأكيد على مضمون هذا الوعد الرباني، حيث قال عز وجل: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} (النساء: 116)

المؤمن يسعى للتطهر من المعاصي:

يحرص المؤمن على التطهر من الخطايا والذنوب مهما كلفه ذلك من ثمن، حتى لو كانت حياته هي المقابل المطلوب لذلك، ومما ورد في صريح اللفظ والمعنى بالخصوص، حديث ماعز بعد أن ارتكب فاحشة الزنى، فجاء النبي، صلى الله عليه وسلم، طالباً التطهر، فعن سُلَيْمَانَ بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه، قال:(جاء مَاعِزُ بن مَالِكٍ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي، فقال: وَيْحَكَ، ارْجِعْ، فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ، وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ، ثُمَّ جاء، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: وَيْحَكَ، ارْجِعْ، فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ، وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ، ثُمَّ جاء، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ طَهِّرْنِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، مِثْلَ ذلك، حتى إذا كانت الرَّابِعَةُ، قال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟

فقال: من الزِّنَى. فَسَأَلَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ ليس بِمَجْنُونٍ، فقال: أَشَرِبَ خَمْرًا؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فلم يَجِدْ منه رِيحَ خَمْرٍ، قال: فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَزَنَيْتَ؟ فقال: نعم، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ الناس فيه فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يقول: لقد هَلَكَ، لقد أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يقول: ما تَوْبَةٌ أَفْضَلَ من تَوْبَةِ مَاعِزٍ؛ أَنَّهُ جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَوَضَعَ يَدَهُ في يَدِهِ، ثُمَّ قال: اقْتُلْنِي بِالحِجَارَةِ، قال: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ، أو ثَلَاثَةً، ثُمَّ جاء رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، فقال: اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بن مَالِكٍ، قال: فَقَالُوا: غَفَرَ الله لِمَاعِزِ بن مَالِكٍ، قال: فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لقد تَابَ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بين أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ.

قال: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ من غَامِدٍ من الْأَزْدِ، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي. فقال: وَيْحَكِ، ارْجِعِي، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إليه، فقالت: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كما رَدَّدْتَ مَاعِزَ بن مَالِكٍ، قال: وما ذَاكِ؟ قالت: إِنَّهَا حُبْلَى من الزِّنَى، فقال: آنْتِ؟ قالت: نعم، فقال لها: حتى تَضَعِي ما في بَطْنِكِ، قال: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ، حتى وَضَعَتْ، قال: فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: قد وَضَعَتْ الْغَامِدِيَّةُ، فقال: إِذًا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا، ليس له من يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ، فقال: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يا نَبِيَّ اللَّهِ، قال: فَرَجَمَهَا)(*)

عينة من أمهات مكفرات الذنوب وأبرزها:

يتجلى كرم الله وعفوه في الصفح عن ذنوب عباده وخطاياهم، حين يأتونه منيبين تائبين مستغفرين، وقد تفضل سبحانه عليهم في فتح آفاق كثيرة، أتاح من خلالها للتائبين منهم فرص الحصول على العفو الإلهي عن سيئاتهم، ومن تلك الآفاق المتاحة على مدار الساعة، في الليل والنهار، الاستغفار، الذي لا يحتاج إلى ترقب مواعيد زمانية، ولا الوصول إلى ظروف مكانية، ولا الحصول على موافقات من الخلق، وإنما يكفي له

* صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى.

التوجه الصادق والمباشر من العبد المذنب إلى خالقه، صاحب العفو والمغفرة، ومن متطلبات نيل جائزة العفو التوبة النصوح، التي من شروطها الندم على اقتراف الذنب، والعزم الأكيد على ترك العودة إليه، والاستغفار من فعله، وإذا تعلق بحقوق العباد، فلا بدَّ من السعي لردها إليهم، أو الحصول على مسامحتهم.

ومن مكفرات الذنوب، التي وردت في إبرازها النصوص الشرعية، تلك العينة:

الدخول في الإسلام:

الإسلام يَجُبُّ ما قبله؛ أي أن الإسلام يقطع ما كان قبله من الكفر والمعاصي والذنوب ويمحوها (*) ففي صحيح مسلم، عن ابن شِمَاسَةَ المَهْرِيِّ، قال: (حَضَرْنَا عَمْرَو بن الْعَاصِ، وهو في سِيَاقَةِ المَوْتِ، يَبكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إلى الجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يقول: يا أَبَتَاهُ؛ أَمَا بَشَّرَكَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِكَذَا؟! أَمَا بَشَّرَكَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِكَذَا؟ قال: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فقال: إنَّ أَفْضَلَ ما نُعِدُّ، شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، إني قد كنت على أَطْبَاقٍ ثَلاثٍ، لقد رَأَيْتُنِي، وما أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مِنِّي، ولا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قد اسْتَمْكَنْتُ منه، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ على تِلْكَ الحَالِ، لَكُنْتُ من أَهْلِ النَّارِ.

فلما جَعَلَ الله الإِسْلامَ في قَلْبِي، أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابْسُطْ يَمِينَكَ، فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قال: فَقَبَضْتُ يَدِي، قال: مالك يا عَمْرُو؟ قال: قلت: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قال: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قلت: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلِهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا أَجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كنت أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ منه إِجْلالاً له، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ ما أَطَقْتُ؛ لأَنِّي لم أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ منه، وَلَوْ مُتُّ على تِلْكَ الْحَالِ، لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ.

---

* المعجم الوسيط: 1/ 104.

ثُـمَّ وَلِينَـا أَشْـيَـاءَ مـا أَدْرِي مـا حَـالِي فيهـا، فـإذا أنـا مُـتُّ فـلا تَصْحَبْـنِي نَائِحَـةٌ، ولا نَـارٌ، فـإذا دَفَنْتُمُـونِي، فَشُـنُّوا[1] عَـلَيَّ الـتُّرَابَ شَـنًّا، ثُـمَّ أَقِيمُـوا حَـوْلَ قَـبْرِي قَـدْرَ مـا تُنْحَـرُ جَـزُورٌ، وَيُقْسَـمُ لَحْمُهَـا، حـتى أَسْـتَأْنِسَ بِكُـمْ، وَأَنْظُـرَ مَـاذَا أُرَاجِـعُ بِـهِ رُسُـلَ رَبِّي)[2]

ومـن مكفـرات الذنـوب، ترطيـب اللسـان بذكـر اللـه، وتسـبيحه، وحمـده، وتكبيره، سـواء خـلال أداء الصلاة، أم في أعقابهـا، فعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (إِنَّ لِلَّـهِ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى مَلائِكَةً سَـيَّارَةً فُضُـلًا، يتبعـون مَجَالِـسَ الذِّكْرِ، فـإذا وَجَـدُوا مَجْلِسًـا فيـه ذِكْـرٌ، قَعَـدُوا مَعَهُـمْ، وَحَـفَّ بَعْضُهُـمْ بَعْضًـا بِأَجْنِحَتِهِـمْ، حـتى يملـؤا مـا بَيْنَهُـمْ وَبَـيْنَ السَّـمَاءِ الدُّنْيَـا، فـإذا تَفَرَّقُـوا عَرَجُـوا، وَصَعِـدُوا إلى السَّـمَاءِ، قـال: فَيَسْـأَلُهُمْ اللـه عـز وجـل وهـو أَعْلَـمُ بِهِـمْ، مـن أَيْـنَ جِئْتُـمْ؟ فَيَقُولُـونَ: جِئْنَـا مـن عِنْـدِ عِبَـادٍ لـك في الأرض، يُسَـبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَـكَ، وَيُهَلِّلُونَـكَ، وَيَحْمَدُونَـكَ، وَيَسْـأَلُونَكَ، قـال: وَمَـاذَا يَسْـأَلُونِي؟ قالـوا: يَسْـأَلُونَكَ جَنَّتَـكَ، قـال: وَهَـلْ رَأَوْا جَنَّـتِي؟ قالـوا: لَا، أَيْ رَبِّ، قـال: فَكَيْـفَ لـو رَأَوْا جَنَّـتِي؟ قالـوا: وَيَسْـتَجِيرُونَكَ، قـال: وَمِـمَّ يَسْـتَجِيرُونَنِي؟ قالـوا: مـن نَـارِكَ يـا رَبِّ، قـال: وَهَـلْ رَأَوْا نَـارِي؟ قالـوا: لا، قـال: فَكَيْـفَ لـو رَأَوْا نَـارِي؟ قالـوا: وَيَسْـتَغْفِرُونَكَ، قـال: فيقـول: قـد غَفَـرْتُ لهـم، فَأَعْطَيْتُهُـمْ مـا سَـأَلُوا، وَأَجَرْتُهُـمْ مِمَّـا اسْـتَجَارُوا، قـال: فَيَقُولُـونَ: رَبِّ فِيهِـمْ فُـلَانٌ، عَبْـدٌ خَطَّـاءٌ، إنمـا مَـرَّ فَجَلَـسَ مَعَهُـمْ، قـال: فيقـول: وَلَـهُ غَفَـرْتُ، هُـمْ الْقَـوْمُ لا يَشْـقَى بِهِـمْ جَلِيسُـهُمْ)[3]

ومـن مكفـرات الذنـوب إسـباغ الوضـوء عـلى المـكاره، وإكثـار الخطـا إلى المسـاجد، فعـن أبي هُرَيْـرَةَ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (ألا أَدُلُّكُـمْ عـلى مـا يَمْحُـو اللـه بِـهِ الْخَطَايَـا، وَيَرْفَـعُ بِـهِ الدَّرَجَـاتِ؟ قالـوا: بَـلَى يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، قـال: إِسْبَاغُ الْوُضُـوءِ عـلى المَـكَارِهِ، وَكَـثْرَةُ الْخُطَـا إلى الْمَسَـاجِدِ، وَانْتِظَـارُ الصَّـلاةِ بَعْـدَ الصَّـلاةِ، فَذَلِكُـمْ الرِّبَـاطُ)[4]

1. فَشُنُّوا: بِضَمِّ الشِّينِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ أَيْ: صُبُّوا وَكُبُّوا، (صحيح مسلم بشرح النووي: 3/ 1227)
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ كَوْنِ الْإِسْلامِ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ وَكَذَا الْهِجْرَةِ وَالْحَجِّ.
3- صحيح مسلم، كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، باب فضل مجالس الذكر.
4- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، بَابُ فَضْلِ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ.

ومنها صوم رمضان، وقيام ليله، وقيام ليلة القدر التي تتخلله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ) (1)

وعنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)(2)

وصوم يوم عرفة لغير الحاج، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ من كل شَهْرٍ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، فَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ على اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ التي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ على اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ)(3)

ومن مكفرات الذنوب العمرة إلى العمرة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْعُمْرَةُ إلى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ ليس له جَزَاءٌ إلا الْجَنَّةُ) (4)

والجود بالصدقات يكفر الذنوب، ويقي من شر الفتن، ففي صحيح البخاري، بَاب الصَّدَقَةُ تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وفيه عن حُذَيْفَةَ، رضي الله عنه، قال: قال عُمَرُ، رضي الله عنه: (أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن الْفِتْنَةِ؟ قال: قلت: أنا أَحْفَظُهُ، كما قال، قال: إِنَّكَ عليه لَجَرِيءٌ، فَكَيْفَ قال؟ قلت: فِتْنَةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْمَعْرُوفُ) (5)

وفي صحيح مسلم، عن عَدِيِّ بن حَاتِمٍ، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ من النَّارِ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ) (6)

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، بَابُ مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَنِيَّةً.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، بَابُ اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَعَاشُورَاءَ، وَالِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ.

4- صحيح البخاري، كتاب العمرة، بَابُ وُجُوبِ العُمْرَةِ وَفَضْلِهَا.

5- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، بَابُ الصَّدَقَةِ تُكَفِّرُ الخَطِيئَةَ.

6- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، بَابُ الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ.

والشـهادة في سـبيل اللـه، يمحـو اللـه بهـا مـا سـلف مـن ذنـوب الشـهيد وخطايـاه، فعـن عبدالله بـن أبي قتـادة عـن أبيـه، أَنَّـهُ سَـمِعَهُ يحـدث عـن رسـول اللَّـهِ، صـلى الله عليه وسـلم: (أَنَّـهُ قـام فِيهِـمْ، فذكـر لهـم أَنَّ الْجِهَـادَ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، والإِيمَـانَ بِاللَّـهِ أَفْضَـلُ الأَعْمَـالِ، فَقَـامَ رَجُـلٌ، فقـال: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ؛ أَرَأَيْـتَ إن قُتِلْـتُ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، تُكَفَّـرُ عَـنِّي خَطَايَـايَ؟ فقـال لـه رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: نعـم، إن قُتِلْـتَ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، وَأَنْـتَ صَابِـرٌ مُحْتَسِـبٌ، مُقْبِـلٌ غَـيْرُ مُدْبِـرٍ، ثُـمَّ قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، كَيْـفَ قُلْـتَ؟ قـال: أَرَأَيْـتَ إن قُتِلْـتُ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، أَتُكَفَّـرُ عَـنِّي خَطَايَـايَ؟ فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: نعـم، وَأَنْـتَ صَابِـرٌ مُحْتَسِـبٌ، مُقْبِـلٌ غَـيْرُ مُدْبِـرٍ، إلا الدَّيْـنَ، فـإن جِبْرِيـلَ، عليـه السَّـلام، قـال لي ذلـك) [1]

الحج والطهارة من الذنوب والخطايا:

في فلـك مكفـرات الذنـوب يـبرز الحـج المـبرور، الـذي وُعِـد صاحبـه بـأن يرجـع مـن ذنوبـه كيـوم ولدتـه أمـه، فعـن أبي حَـازِم، عـن أبي هُرَيْـرَةَ، قـال: (قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: مـن أتى هـذا الْبَيْـتَ، فلـم يَرْفُـثْ، ولـم يَفْسُـقْ، رَجَـعَ كمـا وَلَدَتْـهُ أُمُّـهُ) [2]

وعنـه قـال: سـمعت أَبَـا هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: سـمعت النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول: (مـن حَـجَّ لِلَّـهِ فلـم يَرْفُـثْ، ولـم يَفْسُـقْ، رَجَـعَ كَيَـوْمِ وَلَدَتْـهُ أُمُّـهُ) [3]

وعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (الْعُمْـرَةُ إلى الْعُمْـرَةِ كَفَّـارَةٌ لِمَـا بَيْنَهُمَـا، وَالحَـجُّ المَـبْرُورُ، ليـس لـه جَـزَاءٌ إلا الْجَنَّـةُ) [4]

والحـج المـبرور هـو الـذي يخلـو مـن الفسـق والرفـث والجـدال، ممـا نهـى اللـه عنـه الحجـاج، فقـال عـز وجـل: {الْحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَّعْلُومَـاتٌ فَمَـن فَـرَضَ فِيهِـنَّ الْحَـجَّ فَـلاَ رَفَـثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِـدَالَ فِي الْحَـجِّ وَمَـا تَفْعَلُـواْ مِـنْ خَـيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللّـهُ وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَاتَّقُـونِ يَـا أُوْلِي الأَلْبَـابِ} (البقـرة: 197)

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَابُ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ كُفِّرَتْ خَطَايَاهُ إِلَّا الدَّيْنَ.
2- صحيح مسلم، كتاب الحج، بَاب فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ.
3- صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ الحَجِّ المَبْرُورِ.
4- صحيح البخاري، كتاب العمرة، بَابُ وُجُوبِ العُمْرَةِ وَفَضْلِهَا.

فهنيئاً لمن حجوا على الوجه المسنون جائزتهم، التي يتفضل الله عليهم بها ساعة النفرة من عرفات، بعد أن وفقهم الله لأداء ركن الحج الأكبر، فعن ابن الْمُسَيَّبِ قال: قالت عَائِشَةُ: أن رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من يَوْمٍ أَكْثَرَ من أَنْ يُعْتِقَ الله فيه عَبْدًا من النَّارِ من يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلائِكَةَ، فيقول: ما أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟) [1]

والحج المبرور يحتل منزلة رفيعة في سلم أفضل الأعمال، وهو يفوق جهاد التطوع في الفضل، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (سُئِلَ النبي، صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: إِيمَانٌ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: جِهَادٌ في سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ) [2]

خاتمة:

فبما أن الذنوب لا مناص من اقترافها، كون البشر يعتريهم الضعف والنسيان، وتؤثر فيهم مؤثرات الأهواء والغرائز والطباع، وأن لا معصوم منهم سوى الأنبياء، ومن قَدَّر الله له أن يحميه من الوقوع في الزلل، فالمرء حتى وهو مؤمن، ويعبد الله، يحمل على كاهله ذنوباً تلو ذنوب، ما يعني أنه في أمسّ الحاجة إلى التخلص من هذا الثقل، بأداء صالح الأعمال، والنطق بخير الذكر والكلام، والحج فرصة عظيمة لمن يسرَّه الله تعالى له، فعليه أن ينتهزها، ليكون من ذوي الحج المبرور، الذي يعود من أداه على هذا الوجه من هذه الرحلة التعبدية، التي حل فيها ضيفاً على ربه في خير بقاع الأرض، وقد غفر الله ذنوبه، وأراحه من وزرها، وعاد عدّاد ذنوبه إلى العد من الصفر، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: (رَجَعَ كما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)، فهنيئاً لحجاج بيت الله الحرام نيلهم هذا المقام، ومكافأتهم بهذه الجائزة، أن عادوا من الحج بلا ذنوب، ولا خطايا، ولا سيئات، ولا آثام.

1.صحيح مسلم، كتاب الحج، بَاب فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ.

2. صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ الحَجِّ المَبْرُورِ.

الحج والتربية على الطاعة المطلقة لله تعالى

تتزايد أعداد المقبلين على طلب تأشيرات السفر إلى الديار المقدسة في الحجاز، بقصد أداء مناسك الحج؛ تلبية لأمر الله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. (الحج: 27)

والإقبال المتزايد على الحج، وشغف المؤمنين إليه، يعبر بوضوح عن الاستجابة الربانية لدعاء إبراهيم، عليه السلام، حين رفع القواعد من البيت وابنه إسماعيل، عليهما السلام، فقال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}. (إبراهيم: 37)

مفهوم الحج ومكانته في الإسلام :

الحج في اللغة: هو القصد لما هو عظيم.

وفي الاصطلاح: هو قصد موضع مخصوص؛ وهو البيت الحرام وعرفة، في وقت مخصوص؛ وهو أشهر الحج؛ للقيام بأعمال مخصوصة وهي الوقوف بعرفة، والطواف، والسعي عند جمهور العلماء، بشرائط مخصوصة يأتي بيانها. [1]

وهو ركن من أركان الإسلام، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).[2] والذي يؤدي الحج على الوجه المشروع، دون اقتراف الرفث والفسوق،

---

1. الموسوعة الفقهية الكويتية: 17/ 23.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس).

فإن الله تعالى يطهره من موبقات الآثام والمعاصي، التي سبق أن اقترفها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من حَجَّ لِلَّهِ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ). (*)

وهو لا يجب إلا على المستطيع من المسلمين البالغين العاقلين ذكوراً وإناثاً، وذلك مرة واحدة في العمر كله، وفي فرضه يقول تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}. (آل عمران: 97)

والحج مدرسة يتلقى روادها دروساً قيمة في الإيمان، والأخلاق، والعلاقات، وتربية القلوب والنفوس، والمقام هنا يضيق سوى لعرض جزء يسير من دروس هذه المدرسة الرفيعة، عالية القدر والقيمة، وهذا الجزء يتعلق بجانب إيماني يخص الطاعة المطلقة لله، كما تتجلى في قصة الحج ومناسكه.

الطاعة المطلقة:

وفق مفاهيم شريعة الإسلام ومبادئه، فإن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى ولرسوله، صلى الله عليه وسلم، فهي لله الخالق العليم الحكيم، الذي له الأمر من قبل ومن بعد، ليس كمثله شيء، ولا يقبل من مؤمن أن يخالف الانصياع لأمره تعالى في صغير الأمور وكبيرها، وهو القائل سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً}.(الأحزاب: 36)

وطاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تقترن بطاعة الله تعالى، كونه لا ينطق عن الهوى، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى* إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم: 3 - 4)، والله جل في علاه، جمع لزوم طاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع الأمر الرباني بطاعته سبحانه، فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}. (آل عمران: 132)

*صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

وهذه من أدلة حجية السنة النبوية، التي ورد فيها عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَن أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي، فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي، فَقَدْ عَصَانِي).[1]

وليس لأحد يجب على المسلم طاعته مطلقاً إلا الله تعالى، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى الأمراء والعلماء الذين تجب على الرعية طاعتهم، فإن هذا الوجوب مقيد بطاعة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، فإن لَزِموها استحقوا الطاعة، وإن أمروا بمعصية، أو قالوا بها، كانت الرعية في حل من طاعتهم، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ، ما لم يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ، فإذا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ).[2]

والطاعة إذا كانت بأمر الله، لا تكون إلا عبادة لله، وطاعة له، أما فيما لم يأذن الله فيه، فتكون طاعة للشيطان، فإن أطعناه فقد عبدناه، فعلينا أن ننظر في أفعالنا وأقوالنا، هل هي مأذون فيها من جهة الشرع، أو ليس كذلك؟ فإن لم تكن مأذوناً فيها، فهي من الشيطان وله، وإن كانت مأذوناً بها من جهة الشرع، فهي لله ومنه سبحانه.

والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (النساء: 59)

فالله أطلق الطاعة لله وللرسول، صلى الله عليه وسلم، بذكر لفظها لهما، وعند ذكر أولي الأمر لم يذكر لفظ الطاعة، واكتفى بحرف العطف، مما دعا إلى استنتاج أن طاعة كل من الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مطلقة لكل منهما، بينما هي مقيدة لأولي الأمر بشرط طاعتهم لله والرسول، صلى الله عليه وسلم.

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} النساء 59.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب السمع وطاعة الإمام.

حتى إن الوالدين على ما لهما من حق البر على أبنائهما، فإن طاعتهما تقف عند أمرهما الابن بمعصية، وفي هذا يقول الله جل ذكره: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت: 8)

مناسك الحج والطاعة المطلقة لله:

مناسك الحج لها طابع خاص، يستوجب الخروج في بعضها عن مألوف العادة في الملبس، والتطيب، وغيرهما، ولو تدبر المرء ملياً في تلك المناسك لوجد أن الانصياع لأدائها على الوجه المشروع، يعبر بجلاء عن الالتزام بالطاعة المطلقة لله تعالى فيما يأمر، والكف عما ينهى، فملابس الإحرام بالنسبة إلى الرجال يشترط أن لا تكون مخيطة، مما يستدعي خلع الداخلي والخارجي من الأردية والثياب والملابس التي يلبسها الناس عادة في حياتهم، بغض النظر عن تفاوت مستواها، وتباين أثمانها، فهم يتركونها جانباً، ويرتدون جميعاً إزاراً ورداء غير مخيطين، يبدون فيهما متساوين، لا يُعرف فقيرهم من غنيهم، ولا رئيسهم من رعيته، فما السر يا ترى وراء هذا الالتزام بملابس الإحرام التي هي من متطلبات هذا الركن المهم من أركان الحج والعمرة؟ إنه فقط، وليس إلا الانصياع لطاعة الله المطلقة، التي يفترض في المؤمن أن يلتزمها في شأنه كله، في منشطه ومكرهه، وعسره ويسره، في حضره وسفره، وفرحه وحزنه، في رضاه وغضبه، وهو بهذا لا يجد غضاضة في التزامها في مناسك حجه، التي لا يجد نحو بعضها فهماً سوى فهم الانصياع المطلق لها، وفي هذا يرد قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فيما يرويه زَيْدُ ابن أَسْلَمَ عن أبيه، قال: (رأيت عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قَبَّلَ الْحَجَرَ، وقال: لَوْلَا أَنِّي رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قَبَّلَكَ ما قَبَّلْتُكَ). (*)

---

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب تقبيل الحجر.

وفي أصل قصة الحج ما يعزز جانب وجود الطاعة المطلقة لله فيه، فإبراهيم، عليه السلام، لم يتردد في الانصياع لأمر الله الخاص بذبح فلذة كبده، وإسماعيل الابن لم يعترض على تلبية هذا الأمر العظيم، بل شجع والده بقوة على تلقي أمر الله تعالى بالقبول والرضا، وعن هذين الموقفين يخبر القرآن الكريم، فيقول تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}.(الصافات: 102 - 107)

من هنا يُدعى الحاج إلى التدبر في أعماق هذه المعاني الإيمانية، وهو يقدم الهدي قربة لله تعالى، ليعلم أن الشاة التي يذبحها في حجه، تقف من ورائها حادثة عظيمة تجلت فيها أسمى معاني الطاعة المطلقة لله تعالى، بل بلغت الذروة في الانصياع، والانقياد لله جل شأنه، وفي السياق نفسه؛ فإن الحاج مدعو للتفكير في أبعاد الطاعة لله، التي تجلت في إيداع الولد ووالدته في واد غير ذي زرع، وقد قبلت المرأة المؤمنة أمر الله الذي كلفها مشقة البحث عن الماء؛ لتشرب، وتسقي طفلها في تلك الصحراء المقفرة، وكان هذا القبول منها لما علمت أنه أمر الله، فقالت معبرة عن الرضا التام به، (إنه لن يضيعنا)، حسب ما ثبت في الحديث الطويل الصحيح، عن ابن عَبَّاسٍ، الذي جاء فيه، أن: (أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ من قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا على سَارَةَ، ثُمَّ جاء بها إِبْرَاهِيمُ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ حتى وضعهما عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ، في أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بها مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فيه تَمْرٌ، وَسِقَاءً فيه مَاءٌ، ثُمَّ قفى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فقالت: يا إِبْرَاهِيمُ؛ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بهذا الْوَادِي الذي ليس فيه إِنْسٌ ولا شَيْءٌ؟ فقالت له ذلك مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فقالت له: آللَّه الذي أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قالت: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حتى إذا كان عِنْدَ الثَّنِيَّةِ، حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: ربنا إِنِّي أَسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ... حتى بَلَغَ يَشْكُرُونَ، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ من ذلك الْمَاءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقَاءِ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا.

وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إليه يَتَلَوَّى، أو قال: يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إليه، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ في الأرض يَلِيهَا، فَقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ، تَنْظُرُ هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ من الصَّفَا، حتى إذا بَلَغَتْ الْوَادِيَ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حتى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عليها، وَنَظَرَتْ هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذلك سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَذَلِكَ سَعْيُ الناس بَيْنَهُمَا، فلما أَشْرَفَتْ على الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فقالت: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فقالت: قد أَسْمَعْتَ إن كان عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فإذا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بعقبه، أو قال: بِجَنَاحِهِ حتى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ من الْمَاءِ في سِقَائِهَا، وهو يَفُورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ.

قال ابن عَبَّاسٍ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يَرْحَمُ الله أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لو تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أو قال: لو لم تَغْرِفْ من الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا، قال: فَشَرِبَتْ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فقال لها الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فإن هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هذا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وكان الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا من الأرض، كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُول، فَتَأْخُذُ عن يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حتى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ من جُرْهُمَ - أو أَهْلُ بَيْتٍ من جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ من طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا في أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هذا الطَّائِرَ لَيَدُورُ على مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بهذا الْوَادِي، وما فيه مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا

أو جَرِيَّيْنِ، فـإذا هُـمْ بِالْمَـاءِ، فَرَجَعُـوا، فَأَخْبَرُوهُـمْ بِالْمَـاءِ، فَأَقْبَلُـوا، قـال: وَأُمُّ إِسْـمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَـاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لنا أَنْ نَـنْزِلَ عِنْـدَكِ؟ فقالـت: نعـم، وَلَكِنْ لَا حَـقَّ لَكُـمْ فِي الْمَـاءِ، قالـوا: نعـم.

قـال ابـن عَبَّـاسٍ: قـال النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: فَأَلْفَـى ذلـك أُمَّ إِسْـمَاعِيلَ، وَهِـيَ تُحِـبُّ الأنـس، فَنَزَلُـوا، وَأَرْسَـلُوا إلى أَهْلِيهِـمْ، فَنَزَلُـوا مَعَهُـمْ، حـتى إذا كان بهـا أَهْـلُ أَبْيَـاتٍ منهـم، وَشَـبَّ الْغُـلَامُ، وَتَعَلَّـمَ الْعَرَبِيَّـةَ منهـم، وَأَنْفَسَـهُمْ، وَأَعْجَبَهُـمْ حـين شَـبَّ، فلمـا أَدْرَكَ، زَوَّجُـوهُ امْـرَأَةً منهـم، وَمَاتَـتْ أُمُّ إِسْـمَاعِيلَ). (*)

فهـذه بعـض دلالات الطاعـة المطلقـة للـه، كما تجلـت في قصـة الحـج ومناسـكه، التي يؤديهـا حجـاج بيـت اللـه الحـرام والمعتمـرون، بـل يتنافسـون بقـوة عـلى أدائهـا، فهـل يـا تـرى تفكـروا في أبعادهـا حـق التفكـر، إنهـم إن فعلـوا ذلـك وجلـت قلوبهـم، وجعلـوا بينهـم وبـين معصيـة اللـه حجابـاً كبـيراً، ولتكـرر منهـم لفـظ التلبيـة (لبيـك اللهـم لبيـك)، في سـكناتهم وحركاتهـم، في ليلهـم ونهارهـم، في قولهـم وفعلهـم، لبيـك اللهـم نحـو الطاعـة، واجتنـاب المعـاصي الظاهـرة والباطنـة، لبيـك اللهـم حـتى يأتينـا اليقـين، ونحـن عـلى العهـد ماضـون، منصاعـون لأمـرك الـذي أوصيتنـا بتلبيتـه، إذ قلـت جـل شـأنك، وعظـم سـلطانك: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُـواْ اللّـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُـنَّ إِلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ} (آل عمـران: 102).

وهـي ذاتهـا وصيـة أبينـا إبراهيـم، عليـه السـلام، لبنيـه، كمـا أخـبر القـرآن الكريـم عنهـا، حيـث قـال تعـالى: {وَوَصَّى بِهَـا إِبْرَاهِيـمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُـوبُ يَـا بَـنِيَّ إِنَّ اللّـهَ اصْطَفَـى لَكُـمُ الدِّيـنَ فَـلاَ تَمُوتُـنَّ إَلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ} (البقـرة: 132)

---

* صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

أيها الحاج... تفكر واعتبر

منذ أن أكرم الله تلك البقعة القاحلة بالنعم والآلاء الباهرة، والناس يفدون إليها من شتى بقاع الدنيا ملبين، شاهدين لله بالوحدانية، وللرسول، صلى الله عليه وسلم، بالرسالة، ومن يقصد بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً، ويؤدي الشعائر والمناسك، يلحظها تتحدث عن أسرار وخلفيات تتجلى فيها عظمة القدرة الإلهية، ومؤكدات الوحدانية، وضرورة تسليم الأمور للباري سبحانه، عليه التوكل، وإليه الملجأ، وهو القادر أن يقول للشيء كن فيكون.

وفي ظلال بدء موسم الحج، وقرب يوم الأضحى المبارك، نود أن نقف عند بعض القضايا الإيمانية، التي يجدر بالحاج والمعتمر، ومن يحتفل بعيد الأضحى أن يذكرها، ويأخذ منها الدلالات والعبر، التي تعمق إيمانه بالله ورسالاته وقدرته، على نحو بيّن واضح، لا لبس فيه بشرك، أو وثنية، أو بدع محدثة. وصدق الله العظيم إذ يذكرنا بآيات الله المتجلية في البيت الحرام، في سياق بيان فرض الحج على الناس، فيقول تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}. (آل عمران:97)

حنفية إبراهيم، عليه السلام:

تمتد جذور الحج ومناسكه في أعماق التاريخ، لتصل النبي الذي يتفق على حرص الانتماء إليه أتباع الديانات الثلاث الباقية، فالكل يزعم أنه صاحب الامتياز بالانتماء إلى ملة إبراهيم، عليه السلام، والله تعالى بيّن في قرآنه الكريم أن ملة إبراهيم هي الحنفية السمحاء، النقية من أي تلبس بالشرك، وأثنى الله تعالى على المنتمين حقيقة إلى ملة إبراهيم،

عليه السلام، ممن أسلموا وجوههم لله، فقال جل شأنه: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} (النساء: 125)

والمسلم يعتز دائماً بانتمائه إلى ملة إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام: 161).

وكيف للناس أن لا يتنافسوا على حب إبراهيم، عليه السلام، وزعم الانتماء إليه، وهو أمة بشهادة رب العالمين، الذي يقول في محكم التنزيل: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}(النحل: 120)

واتّباع ملة إبراهيم لا يبتدعه المسلمون، بل هو ما أمرهم الله به، إذ يقول جل شأنه في محكم التنزيل: {قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (آل عمران: 95)، ويقول تعالى:{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل: 123)

فالدين القيم العدل هو دين الإسلام، المتصف بالحنفية التي تميزت بها دعوة إبراهيم، عليه السلام، وفي هذا يقول تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.(الروم: 30)

واد غير ذي زرع ورب لا يضيع خلقه:

الأرض تحتاج إلى الماء لتنبت الزرع، وإذا لم ترزق به، يعمها التصحر والجدب، والله تعالى يقول في ثمار الماء: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ}.(السجدة: 27)

وقد ساق الله تعالى الماء إلى صحراء مكة المجدبة، فأصبحت بنعمة الله محط الأنظار، ومهوى الأفئدة؛ استجابة لدعاء إبراهيم، عليه السلام، حين أودع فيها فلذة كبده وزوجه، فدعا الله قائلاً: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}. (إبراهيم: 37)

وفي قصة هذا الحدث العظيم، تذكر الروايات الصحيحة بعض التفاصيل، فعن سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ، قال ابن عَبَّاسٍ: (أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ[1]، من قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا[2]، على سَارَةَ، ثُمَّ جاء بها إبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حتى وضعهما عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ في أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بها مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا[3] فيه تَمْرٌ، وَسِقَاءً[4] فيه مَاءٌ، ثُمَّ قفى إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فقالت: يا إبْرَاهِيمُ؛ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بهذا الْوَادِي الذي ليس فيه إِنْسٌ ولا شَيْءٌ؟ فقالت له ذلك مِرَارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فقالت له: آللهُ الذي أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قالت: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا.

ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إبْرَاهِيمُ حتى إذا كان عِنْدَ الثَّنِيَّةِ، حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: {ربنا إِنِّي أَسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ... حتى بَلَغَ يَشْكُرُونَ...}.[5]

فيا له من إيمان عميق! عبرت عنه أم إسماعيل من خلال رضاها بحكم الله وقضائه وقدره، فلما تُركت وابنها في واد غير ذي زرع، وتأكد لها أنه أمر الله، أجابت مستندة إلى إيمانها الراسخ: (إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا)، وهذا ما حصل فعلاً، فلم يضيعهما الله تبارك وتعالى، بل جعل لهما تاريخاً، وجعل من أفعالهما مناسك، وجعل لمكانهما الذي سكناه رفعة، بل محجاً يقصده الناس من كل فج عميق، تلبية لنداء الله الكريم، المتضمن فرض الحج على المسلمين، إذ يقول تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}.(الحج: 27)

1. المِنْطَق: ما يشد به الوسط. (فتح الباري،6/ 400)
2. لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا؛ أي لأن تعفي، يقال: عفا على ما كان منه، إذا أصلح بعد الفساد. (عمدة القاري 15/ 255).
3. جِرَاباً: ما يتخذ من الجلد، وتوضع فيه الزوادة. (عمدة القاري، 256/15).
4. سِقَاءً: قربة صغيرة. (عمدة القاري، 256/15).
5. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

زمزم وتاريخ السعي بين الصفا والمروة:

لم يكن صدفة أن يجعل الله السعي بين الصفا والمروة ركناً في الحج والعمرة، فالله جعلهما من شعائرهما، فقال جل شأنه: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (البقرة: 158)، ولتاريخ هذا السعي حكاية، تحمل في طياتها ما عظم من الدلالات الإيمانية، فالرواية الصحيحة المذكورة آنفاً، تذكر أن أُمّ إِسْمَاعِيلَ بعد أن تركها إبراهيم، عليه السلام وابنها، في ذاك الوادي المقفر، جَعَلَتْ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ من ذلك الْمَاءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقَاءِ، عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إليه يَتَلَوَّى، أو قال يَتَلَبَّطُ [1]، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إليه، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ في الأرض يَلِيهَا، فَقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ، تَنْظُرُ هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ من الصَّفَا، حتى إذا بَلَغَتْ الْوَادِيَ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ المَجْهُودِ، حتى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ.

ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عليها، وَنَظَرَتْ، هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذلك سَبْعَ مَرَّاتٍ، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَذَلِكَ سَعْيُ الناس بَيْنَهُمَا، فلما أَشْرَفَتْ على الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فقالت: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فقالت: قد أَسْمَعْتَ إن كان عِنْدَكَ غِوَاثٌ [2]، فإذا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بعقبه، أو قال بِجَنَاحِهِ، حتى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ [3]، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ من الْمَاءِ في سِقَائِهَا، وهو يَفُورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يَرْحَمُ الله أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لو تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أو قال: لو لم تَغْرِفْ من الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا، قال: فَشَرِبَتْ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فقال لها الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ ...). [4]

---

1. يَتَلَوَّى: أي يتمرغ وينقلب ظهراً لبطن، ويميناً وشمالاً، واللوى وجع في البطن، قوله: (وقال يَتَلَبَّط)؛ أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض. (عمدة القاري، 256/15).
2. إنْ كَانَ عِنْدَكَ غواث: الْمُرَاد بِهِ عَلَى هَذَا الْمُسْتَغِيث، وَحَكَى ابْن قُرْقُولٍ كَسْره أَيْضًا، وَالضَّمّ رِوَايَة أَبِي ذَرّ، وَجَزَاء الشَّرْط مَحْذُوف، تَقْدِيره فَأَغِثْنِي. (فتح الباري، 402/6)
3. تُحَوِّضُهُ؛ أَيْ تَجْعَلهُ مِثْل الْحَوْض. (فتح الباري، 402/6)
4. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

سبحانك ربي ما أعظم شأنك! تحيي العظام وهي رميم، وتُفَجّر في الأرض القاحلة نبعاً، يفيض بالماء والآيات الدالة على قدرتك، فمن هذا النبع يشرب ملايين الحجاج والمعتمرين، وضيوف الرحمن، ويحملون في أوعيتهم منه إلى أهاليهم وبلدانهم في شتى بقاع الأرض، وذلك يحدث ليس مرة في العمر أو العام، وإنما يتكرر حدوثه يومياً على مدار العام، بل الأعوام والقرون والأجيال.

والرواية الصحيحة تذكر أن أم إسماعيل بقيت تشرب من نبع زمزم هي وابنها، حتى يَسَّر الله للناس اكتشاف الأمر، فمما جاء فيها (...فَكَانَتْ كَذَلِكَ حتى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ من جُرْهُمَ [1]، أو أَهْلُ بَيْتٍ من جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ من طَرِيقِ كَدَاءٍ[2]، فَنَزَلُوا في أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا [3]، فَقَالُوا: إِنَّ هذا الطَّائِرَ لَيَدُورُ على مَاءٍ لَعَهْدُنَا بهذا الْوَادِي، وما فيه مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ [4]، فإذا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا، فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قال وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لنا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فقالت: نعم، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ في الْمَاءِ، قالوا: نعم، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَأَلْفَى[5] ذلك أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الأنس، فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إلى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حتى إذا كان بها أَهْلُ أَبْيَاتٍ منهم، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ منهم، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حين شَبَّ، فلما أَدْرَكَ، زَوَّجُوهُ امْرَأَةً منهم، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ...).[6]

---

1. جُرْهُم: صنفان؛ الأولى كانوا على عهد عاد فبادوا، ودرست أخبارهم، وهم من العرب البائدة، وجرهم الثانية من ولد جرهم بن قطحان. (عمدة القاري، 211/12)
2. كَدَاء: محل في أعلى مكة. (عمدة القاري، 257/15)
3. طَائِراً عائِفاً: هو الذي يتردد على الماء، ويحوم حوله، ولا يمضي عنه. (عمدة القاري، 254/15)
4. جَرِيّاً أو جَرِيَّيْن: الجري هو الرسول، ويطلق على الوكيل والأجير، وسمي بذلك؛ لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه، وجريين شك من الراوي، هل أرسلوا واحداً أو اثنين. (عمدة القاري، 257/15)
5. فَأَلْفَى: أي وجد ذلك الجرهمي أم إسماعيل، محبة للمؤانسة بالناس. (عمدة القاري، 254/15)
6. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

رفع قواعد البيت الحرام:

يخبر القرآن الكريم عن دور إبراهيم وابنه إسماعيل في رفع قواعد البيت العتيق، فيقول تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. (البقرة: 127)

وفي الحديث الصحيح المطول عن قصة إبراهيم وزوجه وابنه، عليهم السلام، جاء قول الملائكة لأم إسماعيل، في سياق طمأنتها أن الله لن يضيعها وابنها، رغم تركها في هذا الوادي غير ذي الزرع، فقالوا لها: (...فإن هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هذا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وكان الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا من الأرض، كَالرَّابِيَةِ [1]، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عن يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ...). [2]

عودة إبراهيم ولقاؤه إسماعيل وأحداث ذات دلالة وعبر:

في الرواية الصحيحة، ورد أن إبراهيم، عليه السلام، جَاءَ بعدما تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ [3]، فلم يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عنه، فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِي لنا، ثُمَّ سَأَلَهَا عن عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ، فقالت، نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ في ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زَوْجُكِ، فَاقْرَئِي عليه السَّلامَ، وَقُولِي له يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ [4]، فلما جاء إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شيئاً، فقال: هل جَاءَكُمْ من أَحَدٍ؟ قالت: نعم، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا في جَهْدٍ وَشِدَّةٍ [5]، قال: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قالت: نعم، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قال: ذَاكِ أبي، وقد أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ منهم أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ ما شَاءَ الله، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فلم يَجِدْهُ، فَدَخَلَ على امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عنه، فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِي لنا، قال: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عن عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؟ فقالت: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ على اللَّهِ، فقال: ما طَعَامُكُمْ؟ قالت: اللَّحْمُ، قال:

---

1. كَالرَّابِيَة: المكان المرتفع. (عمدة القاري، 257/15)
2. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
3. يُطَالِعُ تَرِكَتَه: أي يتفقد حال ما تركه. (فتح الباري، 404/6)
4. يُغَيِّر عَتَبَة بَابه: كِنَايَة عَنْ الْمَرْأَة، وَسَمَّاهَا بِذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنْ الصِّفَات الْمُوَافِقَة لَهَا، وَهُوَ حِفْظ الْبَاب، وَصَوْن مَا هُوَ دَاخِله، وَكَوْنهَا مَحَلّ الْوَطْء. (فتح الباري، 404/6)
5. الجَهْدِ: المشقة والتعب.

فما شَرَابُكُمْ ؟ قالت: الْمَاءُ، قال: اللهم بَارِكْ لهم في اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: ولم يَكُنْ لهم يَوْمَئِذٍ حَبٌّ [1]، وَلَوْ كان لهم، دَعَا لهم فيه، قال: فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ، إلا لم يُوَافِقَاهُ، قال: فإذا جاء زَوْجُكِ، فَاقْرَئِي عليه السَّلامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فلما جاء إِسْمَاعِيلُ، قال: هل أَتَاكُمْ من أَحَدٍ؟ قالت: نعم، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عليه، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قال: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قالت: نعم، هو يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قال: ذَاكِ أبي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ ما شَاءَ الله، ثُمَّ جاء بَعْدَ ذلك وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً [2] له تَحْتَ دَوْحَةٍ [3] قَرِيبًا من زَمْزَمَ، فلما رَآهُ، قام إليه، فَصَنَعَا كما يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قال: يا إِسْمَاعِيلُ؛ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قال: فَاصْنَعْ ما أَمَرَكَ رَبُّكَ، قال: وَتُعِينُنِي؟ قال: وَأُعِينُكَ، قال: فإن اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إلى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ على ما حَوْلَهَا، قال: فَعِنْدَ ذلك رَفَعَا الْقَوَاعِدَ من الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حتى إذا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جاء بهذا الْحَجَرِ، فَوَضَعَهُ له، فَقَامَ عليه، وهو يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أنت السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قال: فَجَعَلا يَبْنِيَانِ حتى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أنت السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. [4]

فهذه وقفات إيمانية دالة، موثقة بما تيسّر من الآيات القرآنية الكريمة، والحديث الصحيح، تستحق التأمل والتدبر، واستخلاص العبر والعظات، وبخاصة من حجاج بيت الله الحرام، الذين يؤدون المناسك والشعائر، ذات الصلة الوثيقة بهذا التاريخ، عسى أن يحصلوا الفائدة المرجوة من هذا الاتعاظ، وصدق الله العظيم إذ يقول جل شأنه: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. (يوسف: 111)

1. حَبٌّ: الحبوب، كالقمح والشعير وما شابه.
2. يَبْرِي نَبلاً: السَّهْم قَبْل أَنْ يُرَكَّب فِيهِ نَصْله وَرِيشه. (فتح الباري، 405/6)
3. دَوْحَة: هِيَ الَّتِي نَزَلَ إِسْمَاعِيل وَأُمّه تَحْتَهَا أَوَّل قُدُومهمَا. (فتح الباري، 405/6)
4. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه..

الفصل الثالث /من قبس التفسير

الرقم	المقال	الصفحة
1.	هَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟؟	116
2.	ســورة الإسراء تبعــث الأمــل بانتصــار الحــق واندحــار الطغيــان	124
3.	متاع الغرور	131

هَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟؟

السوي من يتعظ بغيره، ولا ينتظر ليستخلص العبر مما يصيبه، وقد روي عن عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ، قوله: (...السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ)(*)

تعرض القرآن الكريم في كثير من آياته إلى الحث على الاتعاظ بالآيات الربانية، الكونية منها، والحالّة بالخلق، وعاقبة أمرهم، وبخاصة عند التعقيب على القصص والأخبار التي تم سردها لغاية الاعتبار والاتعاظ، لكن كثيراً من الناس لا يؤمنون، وبعضهم لا يعقلون، أو يتجاهلون، وفي سورة القمر دون سواها من السور القرآنية تكرر طرح سؤال بنص: {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟} في ست آيات منها، جاء هذا السؤال في أربع منها تعقيباً على الإخبار بتيسير القرآن للذكر، وذلك في عبارة تكرر ذكرها بالألفاظ والصياغة نفسها، ونصها: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}، حيث تكرر ذكر هذه الآية القرآنية في سورة القمر في الآيات: (17، و22، و32، و40)، أما الآيتان الأخيرتان، فورد السؤال فيهما عن المدكر، تعقيباً على الإخبار عن ترك الله آية للاتعاظ، فقال تعالى: {وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر:15)، والأخرى جاء السؤال فيها عن المدكر، بعد الإخبار عن إهلاك أشياع المخاطبين، فقال عز وجل: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر:51)

* صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ...

المدكر:

جاء في التفسير الكبير للرازي، أن {مُّدَّكِرٍ} مفتعل من ذكر يذكر، وأصله مذتكر، ولما كان مخرج الذال قريباً من مخرج التاء، والحروف متقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي، ولهذا إذا نظرت إلى الذال مع التاء عند النطق، تقرب الذال من أن تصير تاء، والتاء تقرب من أن تصير دالاً، فجعل التاء دالاً، ثم أدغمت الدال فيها، ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر، فيقلب التاء، ولا يدغم، ولكل وجهة.

والمدكر المعتبر المتفكر، وفي قوله تعالى: {مُّدَّكِرٍ} إما إشارة إلى ما في قوله: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى} (الأعراف: 172)، أي هل من يتذكر تلك الحالة؟ وإما إلى وضوح الأمر، كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ يتذكر شيئاً منها؟ وقوله تعالى: {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قد تم، ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم، بأن كانوا منذرين متفكرين، يهتدون بفضل الله، فهل من مدكر مهتد؟[1، 2]

تيسير القرآن للذكر:

من آيات سورة القمر التي ورد فيها سؤال:{فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟} قوله عز وجل: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، وتفسيره كما جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أي يسرناه للحفظ، وهذا معلوم بالمشاهدة، فإنه يحفظه الأطفال الصغار وغيرهم، حفظاً بالغاً، بخلاف غيره من الكتب، وقد روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن، وقيل: معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به؛ لما تضمن من البراهين والحكم البليغة، وإنما كرر هذه الآية البليغة، وقوله: {فذوقوا عذابي ونذر} لينبه السامع عند كل قصة، فيعتبر بها، ففي كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد، في قوله تعالى: {فكيف كان عذابي ونذر} ومن الملاطفة، في قوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[3].

1. التفسير الكبير: 29/ 37.
2. التسهيل لعلوم التنزيل:4/ 81.
3. التسهيل لعلوم التنزيل 2/ 324

الاتعاظ بالآيات الربانية:

عني القرآن الكريم أيما عناية بتذكير الخلق بالآيات الربانية، للاتعاظ بها، كما في قوله عز وجل: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} (هود:103)، وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ} (الحجر:77)

حتى الآيات المشاهدة في الزرع والمناخ والبيئة والحيوان والإنسان جديرة بالعناية والتدبر، والاستدلال بها على عظمة الله، وبالغ قدرته، ومن ذلك لفت الأنظار إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض، كما في قوله تعالى: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}(العنكبوت:44)، فخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يعني: بالعدل والحكمة، ويقال: لبيان الحق، ولم يخلقها باطلاً. وفي ذلك عبرة لِلْمُؤْمِنِينَ، يعني: المصدقين. وإنما أضاف إلى المؤمنين، لأنهم هم الذين ينتفعون بها.[1]

وفي سورة النحل عدد من الآيات القرآنية المحفزة للتدبر والاتعاظ في آيات الله الكونية، حيث يقول جل شأنه: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(النحل:10 - 11)

لَمَّا قَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الِاسْتِدْلَالَ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، بِعَجَائِبِ أَحْوَالِ الْحَيَوَانَاتِ، أَتْبَعَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِذِكْرِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، بِعَجَائِبِ أَحْوَالِ النَّبَاتِ، وَقَوْلُهُ: {فِيهِ تُسِيمُونَ} أَيْ فِي الشَّجَرِ تَرْعَوْنَ مَوَاشِيَكُمْ.[2]

1- السمرقندي،2/ 634، والبغوي،3/ 557.

2- التفسير الكبير، للرازي: 19/ 176.

المتعظون:

هناك آيات قرآنية كثيرة نبهت إلى آيات الله التي يتعظ بها الذين يعقلون والذاكرون، والسامعون والمتفكرون والعالمون، منها أربع أخرى في سورة النحل غير آنفة الذكر، فيقول تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(النحل:12)

ويقول عز وجل:{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} (النحل:13)، ويقول تعالى: {وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}(النحل: 65)، ويقول جل ذكره: {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(النحل:69)، وفي سورة النمل يقول تعالى:{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (النمل:52)، وفي سورة سبأ يقول عز وجل: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}(سبأ:9)

أكثرية معرضة عن الاستذكار بالآيات:

تكررت في سورة الشعراء الإشارة الصريحة إلى إعراض أكثرية الناس عن الإيمان بالآيات الربانية، فذُكر قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} في ثماني آيات منها، هي: الآية: 8، و67، و103، و121، و139، و158، و174، و190)

والمشار إليه باسم الإشارة {ذلك} في هذه الآيات الكريمة، يعود إلى ما أنزله الله عز وجل من عذاب، أو إهلاك لبعض الأقوام والأمم السابقة.

وقوله عز وجل: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} المتكرر في هذه الآيات الثماني، تأكد خبره ومعناه في آيات قرآنية أخرى، منها قوله تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} (الأنعام:116)، وفي الجدول الآتي إشارة إلى آيات وصفت أكثر الناس بأنهم لا يعلمون، ولا يشكرون، ولا يؤمنون، وَأَبَى أَكْثَرُهمُ إِلاَّ كُفُوراً، وَمَا أَكْثَرهُمْ بِمُؤْمِنِينَ:

توزيع وصف أكثر الناس حسب الوصف والسورة والآية والتكرار

الرقم	الصفة	السورة	رقم الآية	المجموع
1.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	الأعراف	187	
2.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	يوسف	21	
3.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	يوسف	40	
4.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	يوسف	68	
5.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	النحل	38	
6.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	الروم	6	
7.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	الروم	30	
8.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	سبأ	28	
9.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	سبأ	36	
10.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	غافر	57	
11.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}	الجاثية	26	11
12.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}	البقرة	243	
13.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}	يوسف	38	
14.	{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ }	غافر	61	3
15.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}	هود	17	
16.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}	الرعد	1	
17.	{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}	غافر	59	3
18.	{فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً}	الإسراء	89	
19.	{فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً}	الفرقان	50	2
20.	{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}	يوسف	103	1
	المجموع			20

يلاحظ المتدبر في معطيات هذا الجدول، أن القرآن الكريم وصف أكثر الناس بأنهم لا يعلمون في إحدى عشرة آية، وأنهم لا يشكرون في ثلاث آيات، ولا يؤمنون في ثلاث أخرى كذلك، وعبارة {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً} ذكرت في سورتين، وهما الإسراء والفرقان، وعبارة: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} ذكرت مرة واحدة، وذلك في سورة يوسف.

كما يلاحظ أن سورة يوسف حظيت بالذكر الأكثر لهذه الصفات، حيث ذكر 25 % من المذكورات فيها، أي خمس آيات من بين العشرين المشار إليها في الجدول أعلاه، كما أن سورة غافر ذكرت فيها ثلاث من تلك الصفات، في ثلاث آيات منها.

الحكمة من تقنين إنزال الآيات المرسلة للخلق:

نبه القرآن الكريم إلى علة رفض الاستجابة لطلب الآيات من قبل بعض الناس، فقال عز وجل: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً} (الإسراء: 59)

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن الآيات هنا يراد بها التي يقترحها الكفار، فإذا رأوها، ولم يؤمنوا؛ أهلكهم الله، وسبب الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأخبر الله أنه لم يفعل ذلك لئلا يكذبوا فيهلكوا، وعبر بالمنع عن ترك ذلك، و(أن نرسل)، في موضع نصب، و(أن كذب) في موضع رفع، ثم ذكر ناقة ثمود تنبيهاً على ذلك؛ لأنهم اقترحوها وكانت سبب هلاكهم، ومعنى (مبصرة) بينة، واضحة الدلالة، {وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً} إن أراد بالآيات هنا المقترحة، فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من العذاب العاجل، وهو الإهلاك، وإن أراد المعجزات غير المقترحة، فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من عذاب الآخرة، ليراها الكافر فيؤمن، وقيل: المراد بالآيات هنا الرعد، والزلازل، والكسوف، وغير ذلك من المخاوف.(*)

* التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 174.

خاتمة:

بعـد هـذا العـرض لبعـض جوانـب مسـألة اسـتثارة العقـول للتفكـر بالآيـات، بهـدف الوصـول إلى الحقائـق الإيمانيـة الدامغـة، يبقـى السـؤال الـذي طـرح مـع نـزول القـرآن الكريـم معروضـاً: {فهـل مـن مدّكِـر؟!} يعـي الحقائـق والمجريـات، ويفكـر في الظواهـر الكونيـة، والأحـوال المناخيـة، والتقلبـات الـتي يشـهدها الكـون، والزمـان الـذي تتقلـب فيـه الأحـوال والظـروف، للوصـول إلى معـززاتٍ للإيمـان، ومضمـداتٍ للجـراح، ودواعٍ لليقـين بقـدرة اللـه جل في عـلاه، خالـق الكـون، ومدبـر شـأنه، ومسـير الأمـور، وهـو بيـده سـبحانه ذلـك دون سـواه، فأمـره بـين الـكاف والنـون، فـإذا أراد أمـراً قـال لـه: كـن فيكـون، ولا يعجـزه شيء في الأرض ولا في السـماء، يقلّـب الليـل والنهـار، يـؤتي الملـك مـن يشـاء، وينزعـه ممـن يشـاء، وهـو القائـل جـل في عـلاه: {لِلَّـهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ يَهَـبُ لِمَـنْ يَشَـاءُ إِنَاثـاً وَيَهَـبُ لِمَـن يَشَـاءُ الذُّكُـورَ} (الشـورى:49)، وآياتـه الكونيـة مسـتمرة في الوجـود، مثلـما آياتـه القرآنيـة، الـتي أنزلهـا عـلى قلـب نبيـه محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وتكفـل بحفظهـا، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل: {إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُـونَ} (الحجـر: 9)، وسـتبقى الآيـات القرآنيـة مـع الآيـات الكونيـة المتعاقبـة مفتوحـة للتدبـر والتفكـير واسـتخلاص العـبر، مـن قبـل المدكريـن، والمؤمنـين، والعالمـين، وأولي الألبـاب وأصحـاب الأسـماع والعيـون المبـصرة، والقلـوب الخاشـعة اليقظـة.

والمتدبـر في الآيـات القرآنيـة الـتي تضمنـت ذكـراً أو إشـارة إلى الآيـات الربانيـة في خلقـه، يلاحـظ أن القـرآن يهـدف مـن وراء ذلـك إلى الاسـتدلال عـلى عظمـة الخالـق سـبحانه، وقدرتـه، وتفـرده في الخلـق وحياتهـم، ومماتهـم، والتحكـم بأقدارهـم، ومثلـما أن الآيـات باهـرة في الخلـق والتكويـن، فهـي جليـة واضحـة أيضـاً في تصريـف الأمـور وتدبيرهـا، فاللـه الـذي يجـري السـحاب، وينـزل المطـر، ويقلـب الليـل والنهـار بأمـره وقدرتـه وحكمتـه، فإنـه سـبحانه كذلـك

يملي للظالم حتى إذا أخذه؛ فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فهذا فرعون، وذاك قارون، وتلكما عاد وثمود، وما لحقهم من اللات والعزى، وتطهير الكعبة المشرفة منهما، فإنه سبحانه قادر على أن يجعلها زلزلة وصيحة، كما جعلها من قبل، والله قادر على قلب الأحوال من قوة إلى ضعف، والعكس، فها هي آيات الله في الكون من هذا القبيل واضحة للعيان، فكم من أناس تبجحوا وتغطرسوا، وقالوا للأرض اهتزي ما عليك أحد مثلي، وإذا بهم بين ليلة وضحاها مكبلين وراء قضبان، أو مرتجفين أمام فيروس اقتحم أبدانهم، فارتفعت حرارتهم، وبعضهم هزم أمام مخلوق لم يقدر له الله أن يُرى بالعين المجردة.

والنتيجة المرجوة من هذا التدبر والادّكار تتلخص بالآتي:

1. تعزيز الإيمان بقدرة الله على تسيير الأمور، وتقليبها، وتغيير الأحوال، فدوام الحال من المحال، وظلام الليل، يتبعه فجر النهار.

2. توثيق عرى الأمل بالله، في الأحول كلها، حتى لا يساور المؤمن إحباط ولا يأس، وهو يؤمن بأن الأيام دول، {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران: 140) فلن تستحوذ الهزائم على حاضرنا ومستقبلنا، والنصر لا محالة قادم، وظلام الليل سينجلي، بقدرة من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير، ولا يجار عليه، فسبحانه رب العزة وتعالى عما يصفون.

سورة الإسراء تبعث الأمل بانتصار الحق واندحار الطغيان

الصراع بين الحق والباطل يتواصل ما دامت الحياة الدنيا قائمة، ولكل منهما أهل وأتباع، بغض النظر عن تفاوت العدد والعدة بينهما، كما أن لكل منهما خصائص وميزاتٍ، والله تعالى أمر المؤمنين باتباع درب الحق، وحذرهم من الانخداع بالباطل وبريقه ولمعانه، ومن السور القرآنية التي تناولت قضية هذا الصراع سورة الإسراء، التي عرضت صوراً له، ولفتت الأنظار إلى عواقبه ونتائجه، منبهة إلى أن الأمور تجري في فلك المشيئة الربانية، وتحكمها القدرة الإلهية، وأن العبرة ليست بزوبعة الفنجان، ولا بزبد الماء، وإنما هي بالنهايات، فما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع، وبنو إسرائيل ذكرت سورة الإسراء فسادهم في الأرض، واستكبارهم فيها، وما آلت إليه النهايات بهم، ومن المفيد الوقوف عند الآيات القرآنية التي جاءت في مقدمة سورة الإسراء، وتحدثت عن بني إسرائيل، وتشردهم في الأرض مرتين، بسبب طغيانهم فيها، وعصيانهم أوامر الله تعالى.

البداية بآية الإسراء:

من اللافت للنظر أن سورة الإسراء افتتحت بالإخبار الرائع عن حادثة الإسراء، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}(الإسراء: 1)، ثم فوراً انطلقت الآيات التالية مباشرة إلى الحديث عن بني إسرائيل، فهل يا ترى كان هذا التواصل في الحديث عن الإسراء إلى المسجد الأقصى، والمباركة حوله، وبين الحديث عن بني إسرائيل

وإفسادهم وطغيانهم واستكبارهم في الأرض، دون مسوغ أو رابط رئيس؟ من المحال قرآنياً أن يكون هذا التتابع، بل التلاصق بين هذين الحديثين إلا بمناسبة ووشيجة قويتين، وما شهدته أرض الإسراء وما زالت تشاهده من أحداث ومجريات، تنم عن أطماع بني إسرائيل في المسجد الأقصى، والقدس التي تحتضنه، إضافة إلى الأرض المباركة التي تحيط به، تدل بجلاء على عمق جذور الربط بين المسجد الأقصى وطغيان بني إسرائيل في الأرض، وتكرارهم الاستكبار عليها، وممارسة الظلم لأهلها من غير أتباعهم.

فساد بني إسرائيل في الأرض وعلوهم:

تحدثت أوائل آيات سورة الإسراء عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، فقال الله تعالى:

{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً} (الإسراء:4)

فالله تعالى قضى إلى بني إسرائيل؛ أي أتمَّ وأحكم، وأوحى إليهم من خلال ما أوحى إلى نبيه موسى، عليه السلام، في التوراة، أن الإفساد في الأرض من قبلهم سيتكرر مرتين، تتجليان بمخالفة حكم التوراة التي أنزلها الله تعالى عليهم، وبقتلهم الأنبياء، كزكريا ويحيى، ومحاولة قتل عيسى، عليه السلام.

وعلوهم في الأرض يعني استكبارهم فيها عن طاعة الله، ومن خلال غرورهم بغلبة الناس وظلمهم، والعدوان عليهم، على وجه يتجاوزون فيه الحدود.(*)

وفي التسهيل لعلوم التنزيل، قيل إنّ {قَضَيْنَا} في قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ..} معناها علمنا وأخبرنا، كما قيل في {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ} (الحجر: 66)، والكتاب على هذا التوراة.

وقيل: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ} من القضاء والقدر، و{الْكِتَابِ} على هذا اللوح المحفوظ، الذي كتبت فيه مقادير الأشياء. وإلى بمعنى على.

* تفسير أبي السعود، 5/ 156.

{لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}هذه الجملة بيان للمقضي، وإن المرتين المشار إليهما إحداهما قتل زكريا، والأخرى قتل يحيى، عليهما السلام.

{وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}: من العلو، وهو الكبر والتخيل.[1]

وفي تفسير الثعالبي، إن قوله: {وَلَتَعْلُنَّ}؛ أي لتتجبرن، وتطلبون في الأرض العلو.

ومتقتضى الآيات أن الله سبحانه أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وكفر لنعم الله، وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك، ويجعل لهم الكرة، ويردهم إلى حالهم من الظهور، ثم تقع منهم أيضاً تلك المعاصي والقبائح، فيبعث الله تعالى عليهم أمة أخرى تخرب ديارهم، وتقتلهم، وتجليهم جلاء مبرحاً، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله.

قيل كان بين المرتين مائتا سنة وعشر سنين، ملكاً مؤيداً بأنبياء، وقيل سبعون سنة.[2]

ثم سردت سورة الإسراء بعض التداعيات العقابية التي لحقت تكرر الإفساد الصادر من بني إسرائيل في الأرض، وعن ذلك يقول الله تعالى: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}. (الإسراء:5 - 6)

ومعنى قوله تعالى: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا...} أنهم إذا أفسدوا في المرة الأولى بعث الله عليهم عباداً له؛ لينتقم منهم على أيديهم، واختلف في هؤلاء العبيد، فقيل جالوت وجنوده، وقيل بختنصر ملك بابل.

{فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ}؛ أي ترددوا بينها بالفساد، وروي أنهم قتلوا علماءهم، وأحرقوا التوراة، وخربوا المعابد، وسبوا منهم سبعين ألفاً.

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/167.
2. تفسير الثعالبي، 2/ 330

والمقصود بقوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ...} أي الدولة، والغلبة على الذين بعثوا عليكم، ويعني رجوع الملك إلى بني إسرائيل، واستنقاذ أسراهم، وقتل بختنصر، وقيل قتل داود لجالوت.

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}؛ أي أكثر عدداً. (*)

التعقيب القرآني على خبر إفساد بني إسرائيل وتداعياته:

في أعقاب ذكر خبر إفساد بني إسرائيل في الأرض وعلوهم فيها، وما أعقب ذلك من تداعيات، تداخل خلالها العقاب بالإفساد، ثم ما لحق بهما من منحهم فرصاً جديدة، كرد الكَرة لهم، وإمدادهم بالأموال والبنين، وتكثير عددهم؛ ليستعيدوا قوتهم من جديد.

جاء التعقيب القرآني الذي أرسى قاعدة الجزاء، سواء للإحسان أم للإساءة، فقال تعالى:{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً* عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} (الإسراء:7 - 8)

في قوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ...} أحسنتم الأولى بمعنى الحسنات، والثانية بمعنى الإحسان، كقولك أحسنت إلى فلان، ففيه تجنيس، واللام فيه بمعنى إلى، وكذلك اللام في قوله: {وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}.

{فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ...} يعني إذا أفسدوا في المرة الأخيرة، بعث الله عليهم أولئك العباد للانتقام منهم، فالآخرة صفة للمرة.

ومعنى{لِيَسُوؤُوا} يجعلونها تظهر فيها آثار الشر والسوء، واللام لام كي، وهي تتعلق ببعثنا، المحذوف لدلالة الأول عليه، وقيل هي لام الأمر.

* التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 167

{وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ} يعني بيت المقدس.

{وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً...} من التبار، وهو الإهلاك وشدة الفساد.

{مَا عَلَوْاْ} ما مفعول ليتبروا، أي يهلكون ما غلبوا عليه من البلاد.

وقيل: إن (ما) ظرفية؛ أي يفسدون مدة علوهم.

وقوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ...} خطاب لبني إسرائيل، ومعناه ترجية لهم بالرحمة إن تابوا بعد الرحمة الثانية.[1]

وقوله جلَّ شأنه: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} خطاب لبني إسرائيل؛ أي إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى عقابكم، وقد عادوا، فبعث الله عليهم محمداً، صلى الله عليه وسلم، وأمته يقتلونهم، ويذلونهم، إلى يوم القيامة.[2]

ومعنى حصيراً في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً}؛ أي سجناً، وهو من الحصر، وقيل أراد به ما يفرش، ويبسط، كالحصير المعروف.

ومعنى الهداية للتي هي أقوم، في قوله تعالى:{إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...}؛ أي إن القرآن الكريم يرشد إلى الطريقة، والحالة التي هي أصوب وأعدل، وقيل يعني لا إله إلا الله، واللفظ أعمّ من ذلك.[3]

البشرى للمؤمنين والعذاب الأليم للكافرين:

ما سبق من حديث قرآني عن إفساد بني إسرائيل وطغيانهم، ومنحهم الفرص في إعادة الكَرة لهم ليستعيدوا قوتهم، بعد تسليط عباد لله عليهم، تبعه التأكيد على امتياز القرآن الكريم بخاصية هداية الناس لأعدل السبل، وأوضحها، وأصوبها، إضافة إلى حمل البشرى بالأجر الكبير للمؤمنين، الذين يعملون الصالحات، التي أرشدهم إليها

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 167.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 167 - 168.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 168

القرآن الكريم، ووافق هذه البشرى الوعيد للكافرين بالعذاب الأليم، فقال تعالى: {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً* وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الإسراء:9 - 10)

وهذه القضايا الثلاث، المتمثلة بهداية القرآن الكريم للتي هي أقوم، وتبشير المؤمنين، ووعيد الكافرين، تتصل بما سبق من حديث عما جرى من بني إسرائيل، ولهم، فرشاد الناس وخلاصهم منبعهما القرآن الكريم، فإذا ما أراد المسلمون الخلاص مما هم فيه من انحدار، لا بد لهم أن يعودوا لما يأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمان، ويكون ذلك بانتهاج سبيل القرآن الكريم، فيما يحملون من عقيدة، وما يسلكون من أعمال، ويقولون من أقوال، فإن وُفقوا لذلك، فقد اهتدوا، وإن تعثّرّوا وتخبطوا، فقد ضلوا الصراط، وشتان بين من يوفق إلى الهداية، فله الفوز، والأجر، والثواب، وبين الذي يضل، فله العذاب، وسوء المصير، والعياذ بالله تعالى.

دعوة للعظة والاعتبار... فهل من معتبر؟!

في ضوء ما سبق من وقفة عند مقطع من مطلع سورة الإسراء، بما تضمنه من إخبار عما مضى من تاريخ، وتوجيهات لمن حضرها، ومن سيلحق بهم من العالمين، وبعد النظر فيما يدور حولنا من أحداث معاصرة، يتعرض خلالها المسجد الأقصى المبارك، وما حوله من الأرض التي باركها الله تعالى للاعتداءات، لا بدَّ من التأكيد على الدعوة إلى أخذ العظة، والاعتبار مما جرى في حقب الزمان الماضية، لتسليط الضوء على ما يحدث في الحاضر، عسى أن يتم بذلك استلهام ما ينير الدرب للمؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويتحصّنوا بهداهم في الصمود أمام آلة الطغيان وأدواته ورجاله وجبروته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ففي هذا التذكير عبرة للطغاة أنفسهم، إن بقي لديهم من قلوب يفقهون بها، وعيون يبصرون بها، ووجل

مـن طامـة قـد يتعرضـون لهـا؛ بسـبب ظلمهـم وطغيانهـم، وجبروتهـم عـلى الأرض، وانتهاكهـم لحرمـات، توعـد اللـه تعـالى مـن يتعـرض لهـا بالخـزي والعـار وشـديد العـذاب، كتوعـده سـبحانه وتعـالى مـن يعتـدي عـلى بيـوت اللـه ومسـاجده، فقـال تعـالى: {وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـن مَّنَـعَ مَسَـاجِدَ اللّـهِ أَن يُذْكَـرَ فِيهَـا اسْـمُهُ وَسَـعَى فِي خَرَابِهَـا أُوْلَـئِكَ مَـا كَانَ لَهُـمْ أَن يَدْخُلُوهَـا إِلاَّ خَآئِفِـينَ لهُـمْ فِي الدُّنْيَـا خِـزْيٌ وَلَهُـمْ فِي الآخِـرَةِ عَـذَابٌ عَظِيمٌ}(البقـرة: 114)، فكيـف بالذيـن يعتـدون عـلى حرمـة المسـجد الأقـصى، قبلـة المسـلمين الأولى، ومسرى نبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وثالـث المسـاجد الـتي شرع اللـه تعـالى شـد الرحـال إليهـا، وهـو المسـجد الثـاني الـذي بـني في الأرض لعبـادة اللـه تعـالى، بعـد البيـت الحـرام في مكـة المكرمـة، مصداقـاً لمـا رواه أبـو ذَرٍّ، رضي اللـه عنـه، قـال: (قلـت: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ؛ أَيُّ مَسْـجِدٍ وُضِـعَ في الأرض أَوَّلُ؟ قـال: الْمَسْـجِدُ الْحَـرَامُ، قلـت: ثُـمَّ أَيٌّ؟ قـال: المَسْـجِدُ الأَقْـصَى، قلـت: كَـمْ بَيْنَهُمَـا؟ قـال: أَرْبَعُـونَ سَـنَةً، وَأَيْنَمَـا أَدْرَكَتْـكَ الصَّـلاةُ فَصَـلِّ، فَهُـوَ مَسْـجِدٌ) وفي حديـث أبي كَامِـلٍ: (ثُـمَّ حَيْثُمَـا أَدْرَكَتْـكَ الصَّـلاةُ فَصَلِّـه، فإنـه مَسْـجِدٌ). (*)

راجـين للمسـجد الأقـصى، وللمرابطـين فيـه وأكنافـه، السـلامة مـن كل كيـد، وآملـين أن لا تطـول بـه وبهـم المحنـة، مـع يقيننـا بحسـن العاقبـة لـه ولهـم، والويـل والثبـور لمـن عاداهـم، وانتهـك حرماتهـم، والنـصر صـبر سـاعة، وغـداً لناظـره قريـب، ولكـن أكـثر النـاس لا يفقهـون، ولا يعلمـون.

---

* صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم 520.

متاع الغرور

متاع الغرور معناه: الشيء الذي لا يُعْظِم الاستمتاع به إلا مغتر. [1]

ويروى عن ابن عباس، قوله: إن متاع الغرور، مثل الكوز والقارورة، ونحو ذلك؛ لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول، وتفنى، ولا تبقى، ويقال: هو مثل الزجاج الذي يسرع الكسر إليه، ولا يصلحه الجبر، ويقال: كزاد المسافر، يسرع إليه الفناء، فكذلك الدنيا. [2]

وورد في التفسير الكبير، أن الغرور مصدر من قولك غررت فلاناً غروراً، شبه الله الدنيا بالمتاع الذي يُدَلّس به على المستام -الذي يسوم السلعة- ويغر عليه حتى يشتريه، ثم يظهر له فساده ورداءته، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير أن هذا في حق من آثر الدنيا على الآخرة، وأما من طلب الآخرة بها، فإنها نعم المتاع، والله أعلم.

ثم قال الرازي: واعلم أن فساد الدنيا من وجوه:

أولها: أنه لو حصل للإنسان جميع مراداته، لكان غمه وهمه أزيد من سروره؛ لأجل قصر وقته، وقلة الوثوق به، وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا.

وثانيها: أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر، كان حرصه في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر، كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد، فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده، سكنت نفسه، وليس كذلك، بل يزداد طلبه، وحرصه، ورغبته.

---

1. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 267
2. تفسير السمرقندي: 1/ 296

وثالثها: أن الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا، يبقى محروماً عن الآخرة، التي هي أعظم السعادات والخيرات.

ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة، علمت أن الدنيا متاع الغرور، وأنها كما وصفها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حيث قال: ليِّنٌ مسها، قاتلٌ سُمُّها.

وقال بعضهم: الدنيا ظاهرها مطية السرور، وباطنها مطية الشرور.[1]

الوصف القرآني للحياة الدنيا بمتاع الغرور:

ورد ذكر متاع الغرور وصفاً للحياة الدنيا مرتين في القرآن الكريم:

إحداهما في سياق التأكيد على حتمية الموت، وما يتبعه من جزاء مفضٍ إلى الجنة أو النار.

وثانيهما في سياق بيان أن حقيقة الحياة الدنيا المتمثلة في كونها لَعِبٌ، وَلَهْوٌ، وَزِينَةٌ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَ الناس، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وتشبيهها بالغيث الذي يخرج النبات، الذي يؤول إلى حال الاصفرار، ثم إلى الحطام.

وفي الأولى يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}. (آل عمران: 185)

وفي الثانية يقول تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}.(الحديد: 20)

فالدنيا متاع، فانٍ غارٍّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.[2]

1. التفسير الكبير: 9/ 103
2. تفسير ابن كثير: 4/ 314

متاع الدنيا أمام نعيم الآخرة:

بالإضافة إلى وصف الحياة الدنيا بمتاع الغرور، فإن الله تعالى قابل أبرز مكونات هذا المتاع بما عند الله تعالى، فبين سبحانه أن َاللّه عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، فقال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}(آل عمران: 14)، فما عند الله من حسن الجزاء أعز وأنفس من شهوات الدنيا، التي زين للناس حبها، فيكفي أن شهوات الدنيا إلى زوال، وما عند الله باق، وشهوات الدنيا لا تسلم من النقص، والنكد، والتنغيص مما يرافق الاستمتاع بها في كثير من الأحيان، بينما خيرات الله الحسان التي أعدها لعباده الصالحين، لا تشوبها المنغصات، فالحور العين مثلاً، هن المطهرات، والكواعب أتراباً، وقاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وهن أبكاراً عرباً أتراباً، فهذه بعض صفاتهن المذكورة في القرآن الكريم، ومن وصفهن الوارد في الحديث الشريف، قول رَسُول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (... وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً من نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، اطَّلَعَتْ إلى الأرض لأَضَاءَتْ ما بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْ ما بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا، يَعْنِي الْخِمَارَ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها).(*)

ووصف الله تعالى تقلب الذين كفروا في البلاد وحيازتهم لمفاخرها وزينتها، بأنه متاع قليل، فقال تعالى:{لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}(آل عمران: 196 - 197)

فمتاع الدنيا قليل إذا ما قورن بما عند الله تعالى من خير وفير، وهذا ما أكده الله تعالى في آيات عديدة، منها قوله تعالى: {... قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}. (النساء: 77)

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار .

وقوله تعالى:{...أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ}. (التوبة: 38)

ومتاع الحياة الدنيا بالإضافة إلى أنه متاع الغرور، وقلته، فهو مجرد متاع زائل، كما جاء في قوله تعالى: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}. (يونس: 70)

وقوله تعالى: {اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ}. (الرعد: 26)

فالحياة الدنيا برمتها مجرد متاع، نهايته الزوال والفناء، بينما خيرات الآخرة التي أعدها الله تعالى لعباده الصالحين باقية، مصداقاً لقوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}. (الشورى: 36)

وفي الآخرة نعيم يعجز الخلق في الدنيا عن تصور حقيقته، حتى إن أهل الجنة يجدون بين المتشابه منه اختلافاً وتنوعاً في الطعم والمذاق، رغم المشابهة في الشكل والصورة، والله تعالى يقول: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. (البقرة: 25)

وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ}).(*)

فمتاع الحياة الدنيا لا يُذكر أمام نعيم الآخرة، سواء من حيث النوع، أم الديمومة، أم الكثرة، أم السعة، وغير ذلك من الخصائص والصفات، فعن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول اللَّهِ،

*صحيح البخاري، كتاب بدئ الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

صلى الله عليه وسلم: أَنَّهُ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ). [1]

وعن نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ قال: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: يُدْخِلُ الله أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ، فيقول: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، كُلٌّ خَالِدٌ فِيمَا هو فيه). [2]

فهذه بعض صفات الحياة الدنيا ومتاعها، التي تقلل من شأنها إذا ما قورنت بمتاع الآخرة الخالد، والواسع، والمتنوع، والتطرق لهذا الموضوع لا يهدف إلى تشجيع هجر الدنيا واعتزالها، فهي دار العمل، وميدان النشاط، الذي يترتب عليه نوع الجزاء في الآخرة، وإنما يهدف هذا التطرق إلى إعطاء الدنيا الاهتمام الذي تستحق، دون زيادة ولا نقصان، والكف عن المبالغة في التكالب عليها، وبخاصة عبر استخدام وسائل حقيرة، وغير مشروعة، يستبيح بعض الناس من خلالها دماء بعضهم بعضاً، ويسلبون أموالهم بغير حق، ويترك بعضهم السعي إلى الآخرة، في ظل انشغاله المطبق بالدنيا، والركض وراء الاستزادة من متاعها الغرور، وفي التفسير الكبير أن المقصود الأصلي من وصف الحياة الدنيا بمتاع الغرور تحقير حالها، وتعظيم حال الآخرة، فالدنيا لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة، وأما الآخرة، فهي عذاب شديد دائم، أو رضوان الله على سبيل الدوام، ولا شك أن ذلك عظيم. [3]

العمل للدنيا والآخرة:

الساعي للدنيا فحسب، يكون أكبر همه حصد المزيد من متاعها، فهو يلهث وراء شهواته، دون ضوابط، بينما الذي يرجو الفوز بالآخرة يصبر على أداء الطاعة، والامتناع عن المحرمات، فعن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ). [4]

1. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها
2. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء
3. التفسير الكبير: 29/ 203
4. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب منه.

بينما الساعي إلى الفوز بنعيم الآخرة لا يركن إلى الدنيا، ولا يخدعه بريق متاعها، بل يروض نفسه على التطلع للآخرة، وانتظار الفوز بها، عملاً بتوجيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي خاطب به الصحابي الجليل عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، الذي قال: (أَخَذَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِمَنْكِبِي، فقال: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وكان ابن عُمَرَ يقول: إذا أَمْسَيْتَ، فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ، فلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ).[1]

فلا يغر المتطلع إلى الفوز بالآخرة طول الأمل، ولا ينشغل بطلب متاع الدنيا الغرور على حساب تقربه إلى الله تعالى، ففي صحيح البخاري، بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عن النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} وَقَوْلِهِ{ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وقال عَلِيٌّ بن أبي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا من أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، ولا تَكُونُوا من أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فإن الْيَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ ولا عَمَلٌ).[2]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ).[3]

وفي رواية: (يَكْبَرُ ابن آدَمَ، وَيَكْبَرُ معه اثْنَانِ؛ حُبُّ الْمَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ).[4]

ومن أتاه الله حسن البصيرة، يخفف من مستوى التطلع إلى حيازة متاع الدنيا، فيطلبها على قارعة طريقه إلى طلب الآخرة، والعمل لها، والله تعالى يقول: {وَابْتَغِ فِيمَا

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر
4. التخريج نفسه

آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص: 77).

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حذر من التكالب على الدنيا، والتنافس عليها، ففي صحيح البخاري، بَاب ما يُحْذَرُ من زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فيها، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: (... فَوَاللَّهِ ما الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كما بُسِطَتْ على من كان قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كما أَلْهَتْهُمْ). [1]

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَكْثَرَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ، ما يُخْرِجُ الله لَكُمْ من بَرَكَاتِ الأرض، قِيلَ: وما بَرَكَاتُ الأرض؟ قال: زَهْرَةُ الدُّنْيَا، فقال له رَجُلٌ: هل يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، فَصَمَتَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى ظننا أَنَّهُ يُنْزَلُ عليه، ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عن جَبِينِهِ، فقال: أَيْنَ السَّائِلُ؟ قال: أنا، قال أبو سَعِيدٍ: لقد حَمِدْنَاهُ حين طَلَعَ ذلك، قال: لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إلا بِالْخَيْرِ، إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ ما أَنْبَتَ الرَّبِيعُ، يَقْتُلُ حَبَطًا، أو يُلِمُّ، إلا آكِلَةَ الخضرة، أَكَلَتْ حتى إذا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ، فَاجْتَرَّتْ، وَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ، فَأَكَلَتْ، وَإِنَّ هذا الْمَالَ حُلْوَةٌ، من أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ في حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هو، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كان كَالَّذِي يَأْكُلُ، ولا يَشْبَعُ). [2]

هدانا الله تعالى إلى العمل لدار الخلد ونعيمها، والانتفاع بحياتنا الدنيا بما لا ينقص حظنا الحسن في الآخرة.

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها
2. التخريج نفسه

الفصل الرابع /من معين الفتوى

الرقم	المقال	الصفحة
1.	الاهتمام بالرياضة وممارستها من منظور شرعي	139
2.	اسم المرأة ليس بعورة ولا صوتها	150

الاهتمام بالرياضة وممارستها من منظور شرعي

تحتل الرياضة بمختلف أشكالها مكانة فائقة في سلم اهتمامات الناس، والتغطيات الإعلامية المعاصرة، ومسألة الرياضة وممارستها ومسابقاتها تخضع للنقاش الشرعي، ووجهات النظر المختلفة حولها في أوساط الناس، وبخاصة في المجتمعات العربية والإسلامية، فهي من ناحية أضحت أمراً واقعاً، يخوض غماره كثير من الناس، سواء بالممارسة أم بالمتابعة والاهتمام، ويروج له الإعلام ببرامج واسعة ومنوعة، مما يستدعي طرق هذا الموضوع، والوقوف عند بعض محطاته، وبخاصة الشرعية منها، ولو على مستوى التذكير بما تيسر من هذا الجانب، عسى أن يكون في ذلك فائدة ونفع، والذكرى تنفع المؤمنين، وتنير عقول الباحثين عن الحقيقة.

مناقشة تأصيل مشروعية ممارسة أصل الرياضة ومسابقاتها:

تتضارب آراء الناس حول شرعية الاهتمام بالرياضة وممارستها، وهل هي من قضايا الحياة المهمة، أو الجانبية والعارضة والكمالية؟

لمناقشة هذا التساؤل والتفاعل مع أبعاده، لاستخلاص النتائج، نشير إلى أن ممارسة اللعب ورد ذكرها في القرآن الكريم بصيغ متنوعة، فعلى لسان إخوة يوسف، عليه السلام، ذكر اللعب بصريح اللفظ، فيقول عز وجل: {قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ* أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (يوسف:11 - 12)

فإخوة يوسف، عليه السلام، طلبوا من أبيهم أن يأذن لهم باصطحاب أخيهم يوسف ليلعب معهم، ومعظم التفاسير تبين أن معنى اللعب هنا الاستباق والتناضل ونظائرهما، ويرى الثعالبي أن لعبهم هذا داخل في اللعب المباح والمندوب، كممارسة سباق الخيل والرمي، وعللوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه، من الرتوع، واللعب، والنشاط. [1]

وبعض المفسرين ذكر اللهو من معاني اللعب، ففي معنى نرتع ونلعب، قال قتادة: ننشط ونسعى ونلهو. [2]

وقيل: المراد باللعب هنا المباح، من الانبساط، لا اللعب المحظور، الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم ونلعب. [3]

ومما يدل على أن مرادهم من اللعب تعلق بمباريات، بصفة معينة ومخصوصة، أنهم لما عادوا لأبيهم عبروا عن لعبهم بالتسابق، فقال تعالى:{قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} (يوسف:17)؛ أي إننا متسابقون في العدو والرمي. [4]

وقيل: ذهبنا نستبق إما على الأقدام أو بالرمي والنضال. [5] وقيل: {نستبق} يعني تتصيد، ويقال: ننتضل؛ أي يسابق بعضنا بعضاً في الرمي. [6]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، رغم انشغاله بالأمور العظيمة، ومقامه الرفيع، وتعبده الفائق، مارس بعض أنواع الرياضة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أنها كانت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سَفَرٍ، قالت: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ على رِجْلَيَّ، فلما حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فقال هذه بِتِلْكَ السَّبْقَةِ) [7]

---

1. تفسير الثعالبي، 2/ 227
2. تفسير السمرقندي، 2/ 182
3. تفسير القرطبي، 9/ 139
4. تفسير أبي السعود، 4/ 259
5. تفسير السعدي، 1 /395
6. تفسير السمرقندي، 2 /184
7. سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، وصححه الألباني

ولـم تقـف ممارسـة الرياضـة في عهـد النبـوة عنـد الرمـي والجـري، بـل كانـت تُجـرى مباريـات للحيوانـات، فعـن أَنَـسٍ، قـال: (كانت نَاقَـةٌ لِرَسُـولِ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، تُسَـمَّى العَضْبَـاءَ، وَكَانَـتْ لا تُسْـبَقُ، فَجَـاءَ أَعْـرَابِيٌّ عـلى قَعُـودٍ لـه فَسَـبَقَهَا، فَاشْـتَدَّ ذلـك عـلى المُسْـلِمِينَ، وَقَالُـوا: سُـبِقَتْ العَضْبَـاءُ، فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: إِنَّ حَقًّـا عـلى اللَّـهِ أَنْ لا يَرْفَـعَ شـيئاً مـن الدُّنْيَـا إلا وَضَعَـهُ)[1] ويشـبه هـذا التسـابق في عصرنـا الحـاضر سـباق الدراجـات الهوائيـة، والسـيارات، وغـير ذلـك ممـا شـابه.

وكانـت الرياضـة تمـارس أحيانـاً في المسـجد، وشـاهد عليـه الصـلاة والسـلام، بعـض مبارياتهـا، فعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: (بَيْنَـا الحَبَشَـةُ يَلْعَبُـونَ عِنْـدَ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسلم، بِحِرَابِهِـمْ، دخـل عُمَـرُ، فَأَهْـوَى إلى الحَـصَى فَحَصَبَهُـمْ بهـا، فقـال: دَعْهُـمْ يـا عُمَـرُ). [2] وعـن عَائِشَـةَ، رضي اللـه عنهـا، قالـت: (رأيـت النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يَسْـتُرُنِي بِرِدَائِـهِ، وأنـا أَنْظُـرُ إلى الحَبَشَـةِ يَلْعَبُـونَ في المَسْـجِدِ، حـتى أَكُـونَ أنـا الـتي أَسْـأَمُ، فَاقْـدُرُوا قَـدْرَ الجَارِيَـةِ الحَدِيثَـةِ السِّـنِّ، الحَرِيصَـةِ عـلى اللَّهْـوِ) [3]

فالحـرص عـلى السـتر والحشـمة لـم يمنـع حـتى المـرأة مـن مشـاهدة المباريـات الرياضيـة المشروعـة، وممـا يسـترعي الانتبـاه أن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، تـرك عائشـة، رضي اللـه عنهـا، حـتى قـررت هـي الكـف عـن المشـاهدة.

الرياضة قوة بدنية وذهنية:

الرياضـة إعـداد للأبـدان، ورشـاقتها، وقوتهـا، فهـي تتمـاشى مـع الأمـر بإعـداد القـوة، الـوارد في قـول اللـه تعـالى: {وَأَعِـدُّواْ لَهُـم مَّـا اسْـتَطَعْتُم مِّـن قُـوَّةٍ وَمِـن رِّبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدْوَّ اللّـهِ وَعَدُوَّكُـمْ وَآخَرِيـنَ مِـن دُونِهِـمْ لاَ تَعْلَمُونَهُـمُ اللّـهُ يَعْلَمُهُـمْ وَمَـا تُنفِقُـواْ مِـن شَيْءٍ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ يُـوَفَّ إِلَيْكُـمْ وَأَنتُـمْ لاَ تُظْلَمُـونَ} (الأنفال: 60)، وقـد فـسر الرسـول، صـلى اللـه

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اللهو بالحراب ونحوها
3. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة

عليه وسلم، المراد بالقوة هنا بالرمي، فعن عُقْبَة بن عَامِرٍ يقول: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو على المِنْبَرِ يقول: {وَأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُمْ من قُوَّةٍ} ألا إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ).[1]

ومما يدل على الحث على ممارسة رياضة الرمي، إضافة إلى الآية الكريمة، والحديث الشريف السابقين، ما رواه عُقْبَة بن عَامِرٍ أيضاً، حيث قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ الله، فلا يَعْجِزُ أحدكم أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ).[2]

فمن أبرز أهداف الرياضة بناء الأجساد، والمحافظة على قوتها، وهي بهذا تلتقي مع تقدير الشرع لمنزلة القوة، وأهميتها للإنسان المؤمن، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ من المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ، كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدر اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[3]

اللهو بالرياضة عن الانشغال بالقضايا الجدية:

بعض الناس ينفر من الرياضة ومتابعتها، بحجة أنها لهو يشغل عن الأمور المهمة، والقضايا المصيرية، ومن أبسط الردود على ذلك، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مارس الرياضة وشجعها، وهو المقدم على غيره من المسلمين في الاهتمام بالأمور الجدية، ولا يقتصر الحث على ممارسة الرياضة البدنية على ما يلزم الجهاد والعسكرية، كما يحلو لكثير من العلماء القول بهذا الحصر، فقد وردت آثار تدل على

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه
2. التخريج نفسه.
3. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله

أن اللهو بالرياضة المشروعة مشروع، كحديث عائشة، رضي الله عنها، سالف الذكر الذي قالت فيه: (...فَاقْدُرُوا قَدْرَ الجَارِيَةِ الحَدِيثَةِ السِّنِّ، الحَرِيصَةِ على اللَّهْوِ) [1]

وحديث جَابِرِ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، الذي فضل فيه النبي، صلى الله عليه وسلم، زواج البكر لتلاعب زوجها ويلاعبها، وهذا لا يخص العسكرية، بحال من الأحوال، فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: (هَلَكَ أبي، وَتَرَكَ سَبْعَ بَنَاتٍ، أو تِسْعَ بَنَاتٍ، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ثَيِّبًا، فقال لي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تَزَوَّجْتَ يا جَابِرُ؟ فقلت: نعم، فقال: بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟ قلت: بَلْ ثَيِّبًا، قال: فَهَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ، وَتُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ...) [2]

والمتدبر بواقع المسلمين، لا يجدُ جلَّهم منشغلاً بالعسكرية، وحتى المنشغلين بها يكون لديهم من الأوقات والظروف التي يُروّحون فيها عن قلوبهم باللهو المباح، كممارسة بعض الألعاب الرياضية التي يهوونها.

ممارسة الرياضة المنضبطة بالشرع، في إطار منظومة الوسطية والاعتدال، وشمولية الحياة، ينبغي لأي شخص أن يدرك المراد من التوضيح السابق الخاص باللهو بالرياضة عن الانشغال بالقضايا الجدية، فلا تضارب بينه وبين ضرورة ولزوم الانضباط بأحكام الشرع بالخصوص، إذ من المحال أن يقبل مسلم معتبر الرأي أن تنفلت الرياضة وممارستها من عقال الشرع وضوابطه وأحكامه، فالرياضة التي تستحق التشجيع والممارسة، هي المفيدة للأبدان، فتمنحها القوة والرشاقة، ومرونة الحركة، والملتزمة بأحكام الشرع في لبسها وشكلها ومسابقاتها، فكشف العورات حرام في الرياضة

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوه من غير ريبة
2. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب عون المرأة زوجها في ولده

وغيرها، وكذلك سوء الأدب، والإضرار بالآخرين، ولعب القمار، وتجاوز الأدب في الرضا والغضب، باللفظ والممارسة، وترك واجب من صلاة وغيرها بسبب الرياضة، كل ذلك من المحظورات الشرعية التي يجب تجنبها، لتكون رياضتنا عبادة نمارسها، نؤجر عليها وثاب.

فيحرم الانشغال بممارسة الرياضة، أو متابعتها عن أداء الواجبات، وينبغي أن لا يشغل المسلم عن أداء واجباته شيء، سواء أكان هذا الشيء رياضة أم غيرها من النشاطات والأمور، فالحياة في جملتها لهو ولعب، كما جاء في قوله تعالى:{وَمَا هَـذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت: 64)

فأداء الواجب يجب أن لا يشغل المسلم عنه شيء، وفي هذا السياق جاء التوجيه الإلهي للمؤمنين، في قوله عز وجل: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الجمعة: 11)، وأثنى سبحانه على عباده المخلصين، الذين لا يلهون بأي أمر، مهما عظم شأنه، عن واجباتهم، فقال تعالى: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}(النور: 37)

والإسلام لا يريد من المسلم التفرغ لعبادة مخصوصة، بل يريده أن يعبد الله في نسكه وصلاته ونشاطاته كافة، ومنها الرياضة، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (يا عَبْدَ اللَّهِ؛ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، قلت: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ؛ قال: فلا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فإن لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا) (*)

* صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لزوجك عليك حق

نتائج المسابقات الرياضية:

ينتاب بعض الناس أحياناً إحباط من نتائج بعض المباريات الرياضية، أو طريقة أدائها ومستواها، حتى إن بعضهم يفقد الثقة بنفسه وبمن حوله، بسبب الفشل في مباريات الدوري وغيرها، وما كان ينبغي للإحباط أن يجد سبيلاً إلى قلوب المسلمين بسبب الرياضة أو غيرها، فالأيام دول، يوم لك ويوم عليك، والذي يفوز اليوم قد يخسر غداً أو العكس، ويحصل هذا مع الدول العربية والإسلامية وغيرها، حتى مع الأفراد والفرق الجماعية، وحصل هذا أيضاً في سباق الرسول، صلى الله عليه وسلم، وزوجه عائشة، رضي الله عنها، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: (فسابقتُه فسبقتُه على رجليَّ...) (*)

وبسبب خيبة الأمل من بعض نتائج المباريات الرياضية، يصل ببعض الناس الغضب، ليخرج عن طوره المقبول في السلوك اللفظي والعملي، فتجده يصرخ، ويشتم بما هبَّ ودبَّ من المسبات، لأن لاعباً أخطأ في توجيه الكرة، أو لأن فريقاً خسر مباراة، أو لأن فريقاً أحرز هدفاً، إذ إن بعض الناس يصرخون ويسلكون ما لا يليق من السلوك عند الفرح والبهجة أحياناً، ولا يقتصر تصرفهم المشين على انفعالاتهم التي تحدث عند الخسارة أو الفشل.

وبعضهم كما لوحظ مؤخراً، يعبر عن حال إحباط ويأس يستشري للأسف بسبب خيبة أمل رياضية، فتراه يلحقها بخيبة الأمل الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وبعضهم يصاب بحالة إحباط بسبب النتائج الرياضية، فيتعزز ما لديه من إحباطات أخرى، وللأسف المرير، والإسلام يرفض الاستسلام للهزائم والجراح، ففي مجالات أهم من الرياضة، بلسم الله جراح المسلمين بعد الذي أصابهم في أحد، فقال عز وجل: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}(آل عمران: 140)

---

*سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، وصححه الألباني.

الرهان والقمار:

تروج بعض الجهات في كثير من بقاع الأرض ممارسة الميسر من خلال استغلال اهتمام الناس بالرياضة ونتائج مسابقاتها، وتطلعهم إلى الغنى السريع، فيحرم الرهان والقمار الممارس من قبل بعض الناس ممن يجعلون المسابقات الرياضية وسيطاً لميسرهم، تحت مسميات منمقة مختلفة، فالله تعالى ذم الميسر في أكثر من آية قرآنية، فقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...} (البقرة: 219)، ويقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (المائدة:90 - 91)

الانضباط والصرامة في زمن المباريات الرياضية وأماكنها ومجرياتها:

تحكم المباريات الرياضية أنظمة وقوانين، والممارس لأي نوع من أنواع الرياضة يجد نفسه مضطراً لتعلم تلك الأنظمة والانضباط بها، سواء من حيث الضبط الزمني أم المكاني أم الإجرائي، وتلك أمور تجدر الاستفادة منها في تعزيز مبدأ الانضباطية الذي عني به الإسلام أيما عناية، فالعبادات لها أوقات محددة، وكيفيات معينة، وبعضها يرتبط بأمكنة معينة، حتى إن القرآن الكريم نبه إلى ضرورة الالتزام بالضابط الزمني للصلاة، وغيرها من العبادات، فقال جل شأنه: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً }(النساء: 103)

وركن الصيام محدد أداؤه بشهر رمضان الذي يبدأ برؤية هلاله، وينتهي برؤية هلال الشهر الذي يليه، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه

وسلم، ذَكَرَ رَمَضَانَ فَضَرَبَ بِيَدَيْهِ، فقال: الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، ثُمَّ عَقَدَ إِبْهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ، فَصُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ ثَلَاثِينَ) [1]

والإسلام حث على الانضباط حتى في صفوف الصلاة، فعن أبي مَسْعُودٍ، قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قال أبو مَسْعُودٍ: فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا) [2].

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: (أنه كان إذا مَرَّ بين الصَّفَّيْنِ قال: اسْتَوُوا حتى إذا لم يَرَ فيهن خَلَلاً، تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ) [3]، مما يدل بوضوح على عناية الإسلام بالاستقامة في الشكل والمضمون، فهو رائد بهذا، ولكن أكثر الناس لا يفقهون، وبخاصة أولئك الذين يكيلون المدح للانضباط في ممارسات الناس، ونشاطاتهم الدنيوية تبعاً للأنظمة التي تحكم ذلك، ويتغافلون عن التدبر في أمور دينهم السبّاق للانضباط، والحث عليه، وإعداد المسلمين وتربيتهم.

التعاون بين عناصر الفريق الرياضي الواحد:

لا يحقق فريق رياضي نتائج مثمرة، إذا لم تسد روح التعاون بين عناصره، بعيداً عن الأنانية والاستحواذ، وهكذا الأمة برمتها، والله تعالى يوجه المسلمين إلى العناية بهذا الجانب المهم في نشاطاتهم وحياتهم كلها، فيقول عز وجل: {...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة: 2)، ويأمر سبحانه وتعالى المسلمين على النفير متعاونين، فيقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً} (النساء: 71)

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال
2. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها...
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان

الروح الرياضية:

التحلي بحسن الخلق في الملاعب درج الناس على وصفه بالروح الرياضية، التي تلتقي في غالبها وتتقاطع مع منظومة القيم الإسلامية، فالقوي ليس بالصرعة، وإنما الذي يملك نفسه عند الغضب، والاعتراف بالجميل، وشكر صاحبه قيمة أخلاقية، يمارسها بعضهم في ملاعب الكرة، والتحية المتبادلة بين الفريقين عند بداية اللعب تلتقي مع حث الإسلام على إفشاء السلام، وطرح التحية، والرد عليها بأحسن منها، حسب ما جاء في قوله عز وجل: {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً}(النساء: 86)

ومن اللفتات التي تسترعي الانتباه أن سلوك اللاعبين يفصل أحياناً في النتائج ويحسمها، فلما تعادل فريق مع آخر في عدد النقاط التي حصل عليها الفريقان من المجموعة نفسها في تصفيات التأهل للمرحلة الثانية من المسابقة العالمية للعبة كرة القدم، التي جرت مؤخراً في روسيا، حسم الأمر عدد البطاقات الصفراء التي حصل عليها الفريقان، فمن كانت لديه بطاقات أكثر خسر التأهل، إذ إن البطاقة الصفراء بمثابة إنذار بمستوى معين، يوجهه حكم المباراة للاعب حين يتصرف بطريقة غير لائقة في اللعب أو الملعب.

اللاعب المسلم يمارس الدعوة بسلوكه الطيب والقويم:

يؤثر السلوك، وبخاصة المشاهد منه من قبل الجماهير، التأثير السلبي أو الإيجابي تجاه صاحب السلوك، فالناس عند السوية يحبون صاحب الخلق الذي يتصرف بلياقة عالية، ولوحظ أن سلوك بعض اللاعبين المشهورين في الملاعب، استجلب اهتمام الناس وتفاعلهم مع أخلاق الإسلام، أكثر بكثير من الدعوة اللسانية التي توجه خصيصاً للدعوة، وبخاصة إذا لم تكن مصحوبة بأساليب ووسائل مشوقة وفاعلة.

فاللاعب الذي يؤدي الصلاة في الملعب على مرأى الناس حرصاً على أن لا تفوته، وليس رياء، وكذلك الذي يسجد شكراً لله، يثير في المشاهدين الانتباه لهذا السلوك، وبخاصة حين يكون قد مارس أمامهم حسن الخلق، مع إتقان مهارات اللعب، مما قد يحفز بعض المشاهدين لممارسة السلوك نفسه في مواقف أخرى.

فهذه وقفات تيسَّر الوقوف عندها بعجالة، بهدف لفت الأنظار إلى موقف الإسلام من ممارسة الرياضة ومتابعتها، والاهتمام بها، وتشجيعها ومشاهدتها، في محاولة لتسليط الضوء على هذه القضية، فيما يتسع له المجال والمقام، عسى أن يحقق ذلك الهدف العام المتمثل في إزالة اللبس عن موقف الشرع من الرياضة المنضبطة في ممارستها ومشاهدتها، ومتابعتها بأحكام الشرع الحنيف وقيمه، إضافة إلى استخلاص بعض الدروس والعبر من ممارسة الرياضة في مجال تعزيز منظومة القيم الشرعية، التي يعنى الإسلام بالحث على امتثالها والتحلي بها، في نشاطات المسلم وسلوكه في ميادين الحياة كافة.

اسم المرأة ليس بعورة ولا صوتها

يصر بعض الناس على إخفاء أسماء النساء، بحجة أنها عورة ينبغي سترها، والتورية عنها برموز دالة على أنها أنثى، وهم بهذا يخالفون القرآن الكريم، ومنهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسيرة السلف الصالح، حيث عرفت المرأة باسمها، وما حصل من إخفاء للاسم إلا حين لم يكن مراداً ذكره، كما حصل للذكر أحياناً، فقيل في القرآن الكريم امرأة فرعون، وقيل رجل ورجلان، وقيل كذلك مريم ابنة عمران، وموسى وعيسى، وغير أولئك من الأسماء، ولم يعهد إخفاء أسماء بسبب كونها عورة عند أحد من السلف الصالح، بل أمهات المؤمنين كن يعرفن بأسمائهن الشخصية، ونساء الصحابة وبناتهم وأخواتهم كذلك، فالهدف من الاسم أن يكون علماً دالاً على شخص صاحبه وذاته، حتى إن بعض المواقف المورية لأسماء النساء، تحول دون تحقيق أهداف نبيلة ومشروعة، مثل إشهار الزواج، الذي يصعب تحقيقه إذا أعلن عن اسم الزوج الذكر، وبقيت شريكته مستورة الاسم، أو معبر عنها بوردة أو حرف يرمز لها، أو كتابة لفظ كريمته تحت اسم والدها المبرز في بطاقة الدعوة إلى حفل الزفاف أو الخطوبة، وغالباً ما يكون لوالدها أكثر من كريمة، فكيف يتحقق الإشهار دون تحديد اسم تلك الكريمة التي يحتفل بزواجها أو خطبتها؟ حتى إن بعض الناس يرون أن التلفظ بكلمة امرأتي أو زوجتي عيب، علماً أن التعامل مع هذه المسألة كان واضحاً وبسيطاً وذلك في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، فلم يكن الستر والإخفاء

يشمل سوى ما لزم من عورات الأبدان والمعاشرة بين الأزواج، أما أن يعرف الناس أن فلانة زوجاً لفلان، فلم يكن مطلوباً ستر ذلك، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن المطلوب الشرعي إشهاره، والإعلان عنه، حتى يكون الناس على علم برباط الزوجية، الذي يقوم بين الأزواج؛ لأن بعض متعلقات هذه العلاقة تخص اهتمام عموم الناس، أو على الأقل الأقارب والأصدقاء والمعارف منهم.

صوت المرأة ليس عورة:

يبدو أن بعض الناس تتولد لديهم ردات فعل عكسية مبالغ فيها حيال الانحلال الأخلاقي والفساد المجتمعي، فيأخذون مواقف حادة تجاه بعض المسائل والقضايا، دون استناد إلى دليل شرعي معتبر، ومن تلك المواقف منع المرأة من التلفظ ببنت شفة على مسمع رجال أجانب، بحجة أن صوتها من العورات التي يجب سترها، ولا ندري من أين جاءوا بتلك الأحكام المغلوطة، التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، بل على العكس من تلك المواقف تماماً، فإن المرأة المسلمة في عصور الإسلام المختلفة كانت تعلم الناس وتتعلم منهم، وتسأل وتجيب، وحوادث حضورها إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وسؤالها ومناقشتها، تحفل بذكرها صحاح السنة والسيرة النبوية، وكذلك كانت أمهات المؤمنين يسمعن الحديث، وينقلنه إلى من يسمعه منهن، ولم يكونوا بالضرورة من المحارم أو الأزواج، ولو منعت نساء الرسول، صلى الله عليه وسلم، من تبليغ حديثه للناس؛ لتعطل كثير من أمور الدين، كونهن في بعض المسائل هن الشاهدات على أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله، التي بعضها يخص صلب العبادات، ففي غسل التطهر مثلاً، تروي عائشة للناس بلسانها، واصفة غسله، صلى الله عليه وسلم (*)، والمجادلة التي أنزل الله تعالى فيها قرآناً، لم تكن من نساء الرسول، صلى الله عليه

* صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب غسل الرجل مع امرأته.

وسلم، ولا من محارمه، لكنها جاءته تشكو زوجها، وتجادل بشأن قوله لها، فقال تعالى في افتتاح السورة التي سميت نسبة لمجادلتها: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (المجادلة: 1)

منع الخضوع بالقول:

نفيُ أن يكون صوت المرأة عورة لا يعني بحال فتح الباب على غاربه لها، لتتكسر في صوتها كيف تشاء، فالله تعالى نهى عن الخضوع في القول، فقال جلَّ شأنه: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} (الأحزاب: 32)، فالله تعالى لما منع النساء من الفاحشة، وهي الفعل القبيح، منعهن من مقدماتها، ومن ذلك محادثة الرجال بتكسر في الصوت، والانقياد في الكلام للفاسق. (*)

فالنهي ليس لمجرد إبداء الصوت وإسماعه، وإنما يتعلق بحال مرافقة الصوت بتكسر وتليين يحدث افتتاناً به، وبخاصة لدى أصحاب القلوب المريضة التي يتوق أصحابها إلى الانجذاب للنساء، والهيمان بهن عند سماع أصواتهن المرققة أو الملينة، والأمر لا يتعلق بنبرة الصوت فقط، وإنما يتعلق بمضمون الكلام أيضاً، ففحش القول، أو ما فيه بذاءة من الحديث، هو المنهي عنه، وليس المراد ستر الصوت بكليته، حتى إن بعض المفسرين لم يمنع مطلق الكلام اللين، ففي تفسير السعدي (لم يقل الله: (فلا تلن بالقول)؛ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه.

* التفسير الكبير، 25 /180.

ودل قوله: {فيطمع الذي في قلبه مرض} مع أمره بحفظ الفرج، وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى كلام من يهواه أو يسمعه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض، فليجتهد في إضعاف هذا المرض، وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به {وقرن في بيوتكن}؛ أي إلزمن بيوتكن؛ لأنه أسلم وأحفظ، لكن {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}؛ أي لا تكثرن الخروج متجملات، أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه، ولما أمرهن بالتقوى عموماً وبجزئيات من التقوى، نص عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خاصةً الصلاة والزكاة، اللتين يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد، ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: {وأطعن الله ورسوله} يدخل في طاعة الله ورسوله كل أمر أمرا به؛ أمر إيجاب، أو استحباب، أنما يريد الله بأمركن بما أمركن به، ونهيكن عما نهاكن عنه؛ ليذهب عنكم الرجس؛ أي الأذى والشر والخبث.(*)

المرأة شريكة في البيت والمجتمع بل رائدة فيهما:

بعض الناس يعطي صوراً قاتمة وظالمة عن الإسلام حين يحلل أو يحرم على المزاج، فأحكام الحلال والحرام، ينبغي أن تبنى استناداً إلى نصوص شرعية وقواعد فقهية واضحة، ومن الخطيئة بمكان أن يكون مرتكزها الأهواء، والرغبات، والنظرات الظنية، فبعض الناس، بحجة اتقاء الفتن، يحرم كثيراً من المباحات، وما درى أن تحريم المباح لا يقل إثماً وخطورة عن إباحة الحرام، فالله تعالى ينكر على مرتكبي إثم تحريم المباح، فيقول

* تفسير السعدي، 1 /664.

جل شأنه: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (الأعراف: 32)

وحين يُعطَّلُ دور المرأة في الحياة العامة والمجتمعية، بسبب آراء ما أنزل الله بها من سلطان، فإن إجحافاً يحصل لها ولمجتمعها، وللدين من وراء ذلك، كون تلك الآراء تلبس ثوب الدين، وهو منها براء، براءة الذئب من دم يوسف، عليه السلام.

فالمرأة تشارك زوجها تحمل المسؤولية في بيتها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، عني بذكر دورها المهم على هذا الصعيد، فعن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ، يقول: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسئول عن رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ، ومسئول عن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ، وهو مسئول عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا، ومسئولة عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ، ومسئول عن رَعِيَّتِهِ، قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قد قال: وَالرَّجُلُ رَاعٍ في مَالِ أبيه، ومسئول عن رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ومسئول عن رَعِيَّتِهِ). [1]

فالمرأة الراعية في بيت زوجها لا يعقل أن يُكمَّمَ فمها عن الكلام، أو يخجل من ذكر اسمها على الملأ من الناس، وإنما هي رائدة في الإبداع، والتطوير، والبناء البيتي والمجتمعي، هي التي شاركت في السياسة والمعارك وفي الحياة الاقتصادية، وقد عمل الرسول، صلى الله عليه وسلم، في تجارة خديجة، رضي الله عنها، قبل أن يتزوجها [2]، وجاءته النساء يطلبن أن يعلمهن ويعظهن، وما بخل عليهن، ولا منعهن من السؤال بأصواتهن، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قالت النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم: (غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَتَيْنِ). [3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن
2. طبقات ابن سعد، ذكر علامات النبوة في رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل أن يوحى إليه، 1/ 155 - 157
3. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم؟

والمرأة صاحبة المال ليس لأحد حق في مالها إلا بإرادتها، فذمتها المالية مستقلة تماماً، والله تعالى حذر الأزواج والأولياء من سلب النساء شيئاً من أموالهن دون موافقة صريحة منهن، فقال جل شأنه: {وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} (النساء: 20)، فالأخذ من مهور النساء يكون حراماً وسحتاً إلا إذا تم برضاهن، وهذا ما يؤكده الله تعالى بقوله: {وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً} (النساء: 4)، فلا يكن أكل مال المرأة حلالاً طيباً لزوجها، إلا إذا طابت نفسها بما أعطته.

بل إن المرأة ذات اليسار سألت عن مشروعية تصدقها على زوجها المعسر، وكان السؤال بلسانها وصوتها، فعن زَيْنَبَ امْرَأَةِ عبد اللَّهِ، قالت: (كنت فِي الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: تَصَدَّقْنَ وَلَوْ من حُلِيِّكُنَّ - وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ على عبد اللَّهِ، وَأَيْتَامٍ في حَجْرِهَا - قال: فقالت لِعَبْدِ اللَّهِ: سَلْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَعَلَى أيتامٍ في حَجْرِي من الصَّدَقَةِ؟ فقال: سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَانْطَلَقْتُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَوَجَدْتُ امْرَأَةً من الْأَنْصَارِ على الْبَابِ حَاجَتُهَا، مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٌ، فَقُلْنَا: سَلِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ على زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لي في حَجْرِي؟ وَقُلْنَا: لَا تُخْبِرْ بِنَا، فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ، فقال: من هُمَا؟ قال: زَيْنَبُ، قال: أَيُّ الزَّيَانِبِ؟ قال: امْرَأَةُ عبد اللَّهِ، قال: نعم لها أَجْرَانِ؛ أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ). (*)

* صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر

ليس المقصود شرعنة الانفلات من أحكام الشرع وضوابطه:

يظن بعض من يطالع مثل هذا المقال مخطئاً أن المقصود دعوة إلى التفلت من قيود الشرع وضوابطه، فيما يخص علاقة الرجال بالنساء، والأمر ليس كذلك على الإطلاق، وإنما المراد أن تكون الدعوة إلى الانضباط مضبوطة بحكم الشرع وضوابطه وقيوده، دون أن يشدد على الناس بغير ما أنزل الله تعالى، ولا جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم ، فالمرأة والرجل ينبغي أن يتحلّيا بقيم الإسلام وأخلاقه، وأن يلتزما أحكامه المستندة إلى الأدلة الشرعية الصحيحة، في لبسهما وكلامهما وصوتيهما، وفي حدود علاقتهما ببعض، وفي بيعهما وشرائهما، وشؤون حياتهما كلها، وفي شعائرهما التي يتقربان بها إلى الله تعالى، ليحصلا على الثناء الرباني الذي يتفضل الله عليهما به حال برهما، فقال جل شأنه: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب: 35).

فالمقصود أن تسير الحياة وفق هذه المنظومة من القيم الربانية، دون تفريط ولا إفراط، فالمرأة المصونة يمكن لها أن تنال أعلى الدرجات العلمية، وأن تتولى أرفع المسؤوليات، وأن تقوم بخير الخدمة لمجتمعها، ولا يعقل أن يتم ذلك منها، واسمها مغمور، وصوتها مكتوم.

الفصل الخامس/ في رحاب شمائل النبي وسيرته، صلى الله عليه وسلم

الرقم	المقال	الصفحة
.1	استذكار سجاياه في ذكرى مولده، صلى الله عليه وسلم	158
.2	ذكرى ميلاد العزيز عليه ما عنتنا، صلى الله عليه وسلم	164
.3	هو النبي لا كذب، صلى الله عليه وسلم	174
.4	تأملات في الهجرة والمناصرة في ضوء آيات الذكر الحكيم والسيرة النبوية	181

استذكار سجاياه في ذكرى مولده، صلى الله عليه وسلم

السنة النبوية مدرسة في أهدافها ومحتواها وتطبيقاتها وآثارها، والوقوف عند أي جزء منها، بمناسبة أو دونها، يلهم المتدبرين الدروس والعبر والعظات، ومناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، فرصة لاستذكار شمائله، عليه الصلاة والسلام، ومزاياه وخصائصه، التي منها سجاياه وخصائصِ جبلَّتهِ، التي خلق عليها وبها، فهو خلق من خير جِبلَّة.

فُطر على التوحيد:

يشارك الرسول، صلى الله عليه وسلم، سائر البشر في الخلق على فطرة التوحيد، التي أكد حقيقتها في الحديث الذي يرويه أَبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، حيث قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم :(ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو ينصرانه، أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ؟ ثُمَّ يقول أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: {فِطْرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ الناس عليها})(*)

ومعنى فطرة الله، خلقة الله، والمراد بها دين الإسلام؛ لأن الله خلق الخلق عليه؛ إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو ينصرانه) وقوله تعالى:{لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أن الله لا يبدلها، أي لا يخلق الناس على غيرها، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن، بعد الخلقة الأولى.

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ.

أو يكـون المعـنى أن تلـك الفطـرة لا ينبغـي للنـاس أن يبدلوهـا، فالنفـي عـلى هـذا حكـم لا خـبر، وقيـل: إنـه عـلى الخصـوص في المؤمنـين؛ أي لا تبديـل لفطـرة اللـه في حـق مـن قـضى اللـه أنـه يثبـت عـلى إيمانـه، وقيـل: إنـه نهـى عـن تبديـل الخِلقـة، كخصـاء الفحـول مـن الحيـوان، وقطـع آذانهـا، وشـبه ذلـك. [1]

فالنـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، خُـلـق مسـلماً موحـداً، واسـتقام عـلى ذلـك، ولـم يعبـد صنمـاً قـط، ولـم يتلبـس بـشرك، وقـد يكـون تحقَّـق لـه هـذا الـشرف، اسـتجابة لدعـاء أبيـه إبراهيـم، عليـه السـلام، إذ يذكـر القـرآن الكريـم قولـه: {وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيـمُ رَبِّ اجْعَـلْ هَــذَا الْبَلَـدَ آمِنـاً وَاجْنُبْـنِي وَبَـنِيَّ أَن نَّعْبُـدَ الأَصْنَـامَ} (إبراهيـم: 35)، بـل كان عليه الصلاة والسـلام، قبـل أن يبعـث يـنزوي عـن قومـه ليتعبـد في غـار حـراء الليـالي ذوات العـدد، فعـن عُـرْوَةُ بـن الزُّبَـيْرِ، أَنَّ عَائِشَـةَ زَوْجَ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أَخْبَرَتْـهُ، أنهـا قالـت: (كان أَوَّلُ مـا بُـدِئَ بِـهِ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن الْوَحْـيِ الرُّؤْيَـا الصَّـادِقَـةَ في الـنَّـوْمِ، فَـكَانَ لَا يَـرَى رُؤْيَـا إلا جَـاءَتْ مِثْـلَ فَلَـقِ الصُّبْـحِ، ثُـمَّ حُبِّـبَ إليـه الْخَـلَاءُ، فَـكَانَ يَخْلُـو بِغَـارِ حِـرَاءٍ، يَتَحَنَّـثُ فيـه - وهـو التَّعَبُّـدُ- اللَّيَـالِيَ أُوْلَاتِ العَـدَدِ، قبـل أَنْ يَرْجِـعَ إلى أَهْلِـهِ، وَيَـتَزَوَّدُ لِذَلِـكَ، ثُـمَّ يَرْجِـعُ إلى خَدِيجَـةَ، فَيَـتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَـا، حـتى فَجِئَـهُ الحَـقُّ، وهـو في غَـارِ حِـرَاءٍ، فَجَـاءَهُ الْمَلَـكُ، فقـال: اقْـرَأْ، قـال: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، قـال: فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي حـتى بَلَـغَ مِـنِّي الجَهْـدَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: اقْـرَأْ، قـال: قلـت: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، قـال: فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي الثَّانِيَـةَ، حـتى بَلَـغَ مِـنِّي الْجَهْـدَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: اقـرأ، فقلـت: مـا أنـا بِقَـارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـنِي الثَّالِثَـةَ، حـتى بَلَـغَ مِـنِّي الجَهْـدَ، ثُـمَّ أَرْسَـلَنِي، فقـال: {اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الـذي خَلَـقَ* خَلَـقَ الْإِنْسَـانَ مـن عَلَـقٍ* اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ* الـذي عَلَّـمَ بِالْقَلَـمِ* عَلَّـمَ الْإِنْسَـانَ مـا لـم يَعْلَـمْ}) [2]

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 122 - 123
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما بعث نبياً ورسولاً للعالمين، حمل الدعوة إلى توحيد رب العالمين، وتنزيهه عن كل شرك، متجاوباً مع روح الفطرة التي جبل عليها، فكان حنيفاً مسلماً على ملة أبيه إبراهيم، عليه السلام، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (البقرة: 132)

اختار الفطرة:

النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو في بيت المقدس خلال رحلة الإسراء، وقبيل عروجه إلى السماء، شهد له اختياره للفطرة، لما أُرسلَ إليه جبريل، عليه السلام، فجاءه بإناء من خمر، وآخر من لبن، ليختار أحدهما، فاختار اللبن، فقال له جبريل، عليه السلام: (اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ) فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وهو دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، قال: فَرَكِبْتُهُ حتى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قال: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ التي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، قال: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ، عليه السَّلَام، بِإِنَاءٍ من خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ من لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فقال جِبْرِيلُ، صلى الله عليه وسلم: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ) [1]

يذكر النووي أن الفطرة فسرت هنا بالإسلام، والاستقامة، ومعناه، والله أعلم؛ اخترت علامة الإسلام والاستقامة، وجعل اللبن علامة، لكونه سهلاً طيباً طاهراً، سائغاً للشاربين، سليم العاقبة، وأما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل، والله أعلم.[2]

ومن حرصه، صلى الله عليه وسلم، على موافقة الفطرة، أنه حث المسلمين على فعل سنن ورد ذكرها في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم،

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 2/ 212.

يقول: (الْفِطْرَةُ خَمْسٌ؛ الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْآبَاطِ) [1]

وقوله: (الْفِطْرَةُ خَمْسٌ)؛ أي خمسة أشياء، وأراد بالفطرة السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، عليهم السلام، واتفقت عليها الشرائع، فكأنها أمر جلي، فطروا عليه.[2]

جاء في عون المعبود، أن (الخِتان) بكسر أوله، اسم لفعل الخاتن، وهو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة من الذكر، و(الِاسْتِحْدَادُ) هو حلق العانة، سمي استحداداً لاستعمال الحديدة، وهي الموسى، ويكون بالحلق والقص والنتف والنورة، قال النووي: والأفضل الحلق، ونتف الإبط أفضل من حلقه إن قوي عليه، ويحصل أيضا بالحلق والنورة، و(تقليم الأظفار) التقليم تفعيل من القلم، وهو القطع، والأظفار جمع ظفر، و(قص الشارب)؛ أي قطع الشعر النابت على الشفة العليا من غير استئصال، وورد في قطع الشارب لفظ القص، والحلق، والتقصير، والجز، والإحفاء، ولأجل هذا التنوع وقع الاختلاف بين العلماء، فبعضهم قالوا بقص الشارب، وبعضهم باستئصاله، وبعضهم بالتخيير في ذلك، قال القرطبي: وقص الشارب أن يأخذ ما طال على الشفة، بحيث لا يؤذي الأكل، ولا يجتمع فيه الوسخ، قال: والجز والإحفاء هو القص المذكور، وليس بالاستئصال عند مالك، قال: وذهب الكوفيون إلى أنه الاستئصال، وبعض العلماء إلى التخيير في ذلك.[3]

فُطر على نبذ الفحش:

لم تقتصر السجايا السوية التي تميز بها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، على جانب العقيدة والتوحيد، بل امتدت لتشمل السلوك والقيم، ففطر على الخُلِق الحسن، والنقاء من الفحش، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: (لم يكُنْ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا، وكان يقول: إِنَّ من خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا) [4]

1- صحيح البخاري، كتاب اللباس، بَابُ تَقْلِيمِ الأَظْفَارِ.

2- عمدة القاري: 22/ 45.

3- عون المعبود: 11/ 169.

4- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

والفاحشة تطلق على كلِّ خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال، وأصل الفحش: القبح، والخروج عن الحد والمقدار في كلِّ شيء، ويذكر العيني قوله: (ولا متفحشاً)؛ أي ولا متكلفاً في الفحش، حاصله أنه لم يكن الفحش له لا جِبِلياً، ولا كسبياً.[1]

ومن التطبيقات العملية الثابتة لنبذه، صلى الله عليه وسلم، الفحش حتى في الرد على المسيئين، ما روي عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ يَهُودَ أَتَوا النبي، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا، السَّامُ عَلَيْكُمْ، فقالت عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكم الله، وَغَضِبَ الله عَلَيْكُمْ، قال: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ، وَالْفُحْشَ، قالت: أولم تَسْمَعْ ما قالوا؟ قال: أولم تَسْمَعِي ما قلت؟ رَدَدْتُ عليهم، فَيُسْتَجَابُ لي فِيهِمْ، ولا يُسْتَجَابُ لهم فِيَّ)[2]

وشهد الصحابة، رضي الله عنهم، للرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه لم يكن فحاشاً، حتى حين يغضب ويعتب، كان يقول كلاماً معبراً عن العتب دون فحش، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (لم يَكُن النبي، صلى الله عليه وسلم، سَبَّابًا، ولا فَحَّاشًا، ولا لَعَّانًا، كان يقول لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتِبَةِ: ما له تَرِبَ جَبِينُهُ؟)[3]

حرص على أن لا يموت إلا على الفطرة:

الله أمر المؤمنين أن يحرصوا على أن لا يموتوا إلا وهم مسلمون، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (آل عمران: 102)،

ومن البديهي أن الإنسان لا يعلم متى سيموت، وأين؟ مصداقاً للواقع المشاهد، ولقوله جل شأنه: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان: 34)

1- عمدة القاري: 16/ 112.
2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.
3- المصدر السابق.

الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الـذي بلّـغ الخلـق الحقائـق الإيمانيـة، الـتي منهـا حتميـة المـوت، وأنـه يـأتي في زمـان ومـكان مجهولـين للمـرء، يعلـم أن الأمـر بالحـرص عـلى أن لا يمـوت إلا مسـلماً، يعـني ضرورة المحافظـة عـلى الالـتزام بالإسـلام في الأوقـات جميعهـا، والأحـوال والظـروف كلهـا، حـتى إذا مـا جـاء المـوت للمـرء، وجـده عـلى الفطـرة الـتي خلـق اللـه النـاس عليهـا، ومـن حرصـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـلى الفـوز بهـذه الخاتمـة، أن شـجع المسـلمين عـلى الأخـذ بأسـباب المـوت عـلى الفطـرة، ومـن ذلـك حثـه عـلى الدعـاء قبـل النـوم، بمـا ينفـع في هـذا المجـال، فعـن الْـبَرَاءِ بـن عَـازِبٍ، قـال: قـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إذا أَتَيْـتَ مَضْجَعَـكَ فَتَوَضَّـأْ وُضُـوءَكَ لِلصَّـلَاةِ، ثُـمَّ اضْطَجِـعْ عـلى شِـقِّكَ الْأَيْمَـنِ، ثُـمَّ قُـلْ: اللهـم أَسْـلَمْتُ وَجْهِـي إِلَيْـكَ، وَفَوَّضْـتُ أَمْـرِي إِلَيْـكَ، وَأَلْجَـأْتُ ظَهْـرِي إِلَيْـكَ، رَغْبَـةً وَرَهْبَـةً إِلَيْـكَ، لَا مَلْجَـأَ ولا منجـا مِنْـكَ إلا إِلَيْـكَ، اللهـم آمَنْـتُ بِكِتَابِـكَ الـذي أَنْزَلْـتَ، وَبِنَبِيِّـكَ الـذي أَرْسَـلْتَ، فَـإِنْ مُـتَّ مـن لَيْلَتِـكَ، فَأَنْـتَ عـلى الْفِطْـرَةِ، وَاجْعَلْهُـنَّ آخِـرَ مـا تَتَكَلَّـمُ بِـهِ، قـال: فَرَدَّدْتُهَـا عـلى النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فلمـا بَلَغْـتُ، اللهـم آمَنْـتُ بِكِتَابِـكَ الـذي أَنْزَلْـتَ، قلـت، وَرَسُـولِكَ، قـال: لَا، وَنَبِيِّـكَ الـذي أَرْسَـلْتَ) (*)

وقد اهتم بمثل هذا الحرص أبو الأنبياء إبراهيم، عليه وإياهم السلام، فقال تعالى على لسـانه: {إِنِّي وَجَّهْـتُ وَجْهِـيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام: 79)

فهـذه جوانـب مـن خصائـص الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وسـجاياه الفطريـة، أو المنسـجمة مـع الفطـرة السـوية، الـتي خلـق اللـه النـاس عليهـا، تـدل عـلى عمـق الصلـة بـين حسـن صفاتـه المكتسـبة مـع فطرتـه النقيـة الـتي خلقـه اللـه عليهـا في أحسـن تقويـم، سـائلين اللـه العـلي القديـر أن ينفـع في التذكـير بهـا، بمناسـبة ذكـرى ميـلاده، صـلى اللـه عليـه وسـلم، القارئـين والمتدبريـن، ومحبيـه مـن العالمـين.

* صحيح البخاري، كتاب الوضوء، بَابُ فَضْلِ مَنْ بَاتَ عَلَى الوُضُوءِ.

ذكرى ميلاد العزيز عليه ما عنتنا، صلى الله عليه وسلم

في ذكرى ميلاد الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، يستذكر المرء كثيراً من شمائله، وحق له أن يستذكر، فالذكرى تنفع المؤمنين، فكيف إذا تعلقت بخاتم النبيين، الذي بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً ورحمة للعالمين؟! ومن المسلمات والبديهيات العجز عن حصر شمائل النبي، صلى الله عليه وسلم، في موقف أو مقال، فهي كثيرة العدد، والأنواع، وفي ظل ما تعانيه أمتنا اليوم من تشرذم وضعف وتيه، قد يكون من المفيد الوقوف عند واحدة من شمائله، صلى الله عليه وسلم، ذات الصلة الوثيقة بكيان أمة الإسلام وعناصرها، تلكم هي: أنه حَرِيصٌ عَلَيْنا، وعَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّنا.

معنى العنت:

جاء في لسان العرب: (أن معنى العنت دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة، قال ابن الأثير: العنت المشقة والفساد والهلاك، والإثم والغلط والخطأ والزنا، كل ذلك قد جاء، وأطلق العنت عليه، وقال ابن الأنباري: أصل التعنت التشديد، فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلاناً ويعنته، فمرادهم يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه، قال: ثم نقلت إلى معنى الهلاك، قال ابن الأعرابي: الإعنات تكليف غير الطاقة، والعنت الزنا، وروى المنذري عن أبي الهيثم، أنه قال: العنت في كلام العرب الجور والإثم والأذى، قال: فقلت له: التعنت من هذا؟ قال: نعم، يقال تعنت فلان فلاناً إذا أدخل عليه الأذى، وقوله تعالى: {عزيز عليه ما عنتم}قال الأزهري: معناه عزيز عليه

عنتكم، وهو لقاء الشدة والمشقة، وقال بعضهم: معناه عزيز؛ أي شديد ما أعنتكم؛ أي أوردكم العنت والمشقة). [1]

لفظ العنت في القرآن الكريم:

ورد لفظ العنت في القرآن الكريم في بعض الآيات القرآنية، ضمن الحديث عن موضوعات مختلفة، ففي سورة البقرة، يقول تعالى: {...وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة: 220)

أي لو شاء الله لحملكم على العنت، وهو المشقة، وأحرجكم، فلم يطلق لكم مداخلتهم. [2]

وفي سورة آل عمران، يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} (آل عمران:118)

قوله تعالى: {وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ}؛ أي يودون ما يشقُّ عليكم، والعنت المشقة، قال السدي: أراد به أنهم يودون ردكم إلى الكفر والضلالة. [3]

وفي سورة النساء يقول تعالى: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(النساء: 25)

1. لسان العرب، 2/ 61
2. الكشاف، 1/ 291
3. تفسير السمعاني، 1/ 351

واسـم الإشـارة (ذلـك) في قولـه: {ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ} إشـارة إلى تـزوج الأمـة ـ الجاريـة ـ أي إنما يجـوز لمـن خـشي عـلى نفسـه الزنـا، لا لمـن يملـك نفسـه، وقولـه تعـالى: {وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ} المـراد الصبر عـن نـكاح الإماء، وهـذا ينـدب إلى تركـه، وعلتـه مـا يـؤدي إليـه مـن اسـترقاق الولـد. [1]

فنكاح الإماء أبيح لمـن خـاف وقوعـه في الإثم، الـذي تؤدي إليـه غلبة الشـهوة، وأصل العنـت انكسـار العظـم بعـد الجبر، فاسـتعير لـكل مشـقة وضرر، يعـتري الإنسـان بعـد. [2]

وفي سـورة التوبـة يقـول جـل ذكـره: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}. (التوبـة:128)

أي يشـق عليـه عنتكـم، والعنـتُ هـو مـا يضرهـم في دينهـم أو دنياهـم، وعزيـز صفـة للرسـول، صـلى اللـه عليـه وسلم، ومـا عنتـم فاعـل بعزيـز، ومـا مصدريـة، أو مـا عَنِتُّمْ مصـدر، وعزيـز خـبر مقـدم، والجملـة في موضـع الصفـة {حَرِيصٌ عَلَيْكُم}؛ أي حريـص عـلى إيمانكـم وسـعادتكم، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} سـماه اللـه هنـا باسـمين مـن أسـمائه. [3]

أمـا في سـورة الحجـرات، فيقـول جـل شـأنه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} (الحجـرات:7)

وقولـه تعـالى: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} أي لشـقيتم، والعنت المشـقة، وإنمـا قـال: لـو يطيعكـم ولـم يقـل لـو أطاعكـم؛ للدلالـة عـلى أنهـم كانـوا يريـدون اسـتمرار طاعتـه عليـه الصـلاة والسـلام، لهـم، والحـق خـلاف ذلـك، وإنمـا الواجـب أن يطيعـوه لا أن يطيعهـم، وذلـك أن رأي رسـول اللـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، خير وأصـوب مـن رأي غـيره،

1. التسهيل لعلوم التنزيل 1/ 138
2. تفسير أبي السعود 2 /167
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 88

ولـو أطاع النـاس في رأيهـم لهلكـوا، فالواجـب عليهـم الانقيـاد إليـه، والرجـوع إلى أمـره، وإلى ذلـك الإشـارة بقولـه: {وَلَكِـنَّ اللَّـهَ حَبَّـبَ إِلَيْكُـمُ الْإِيمَـانَ وَزَيَّنَـهُ فِي قُلُوبِكُمْ}(الحجـرات: 7). [1]

وفي سـورة طـه، يقـول تعـالى: {وَعَنَـتِ الْوُجُـوهُ لِلْحَـيِّ الْقَيُّـومِ وَقَـدْ خَـابَ مَـنْ حَمَـلَ ظُلْمـاً} (طـه:111)، فقولـه تعـالى: {وعَنَـتِ}؛ أي ذلـت وخضعـت، تقـول العـرب عنا يعنـو عنـواً وعنـاء، إذ ذل وخضـع وخشـع، ومنـه قيـل للأسـير عـان، لذلِّـه وخضوعـه لمـن أسره. [2]

رزمة من الصفات والشمائل ذات الصلة بمصالح المؤمنين:

جمعـت إحـدى الآيـات القرآنيـة سـالفة الذكـر، مجموعـة مـن شـمائل النـبي، صـلى الله عليـه وسـلم، الـتي يجمعهـا قاسـم مشـترك يشـير إلى صلتـه الوثيقـة عليـه الصـلاة والسـلام بنـا نحـن المؤمنـين برسـالته، وعنايتـه الفائقـة بمصالحنـا، ففـي سـورة التوبـة يقـول جـل ذكـره: {لَقَـدْ جَاءكُـمْ رَسُـولٌ مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـا عَنِتُّـمْ حَرِيـصٌ عَلَيْكُـم بِالْمُؤْمِنِـينَ رَؤُوفٌ رَّحِيـمٌ} (التوبـة:128)

فهـو مـن أنفسـنا، ويعـز عليـه عنتنـا، وحريـص علينـا، ورؤوف بنـا ورحيـم، فتلـك صفـات خمـس، لـكل واحـدة منهـا دلالـة، والمشـترك بينهـا بَـيّن جـلي.

يقـول صاحـب أضـواء البيـان: هـذه الآيـة الكريمـة تـدل عـلى أن بعـث هـذا الرسـول الـذي هـو مـن أنفسـنا المتّصـف بهـذه الصفـات المشـعرة بغايـة الكمـال، وغايـة شـفقته علينـا هـو أعظـم مـنن اللـه تعـالى، وأجـزل نعمـه علينـا، وقـد بـين اللـه ذلـك في مواضـع أُخـرَ، كقولـه تعـالى: {لَقَـدْ مَـنَّ اللَّـهُ عَـلَى الْمُؤْمِنِـينَ إِذْ بَعَـثَ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّـنْ أَنفُسِـهِمْ}(آل عمـران: 164) [3]

وعنـون البخـاري، رحمـه اللـه، لبـاب في صحيحـه بهـذه الآيـة، ففيه:(بَـاب قَوْلِـهِ: {لقـد جَاءَكُـمْ رَسُـولٌ مـن أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عليـه مـا عَنِتُّـمْ حَرِيـصٌ عَلَيْكُـمْ بِالْمُؤْمِنِـينَ رؤوف رَحِيـمٌ} مـن الرَّأْفَةِ)

1. التسهيل لعلوم التنزيل 4/ 59
2. أضواء البيان، 4/.101
3. أضواء البيان 2/ 149

وفي التفسير أن الرسول في قوله تعالى: {لقد جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أَنْفُسِكُمْ} يعني النبي، صلى الله عليه وسلم، والخطاب للعرب، أو لقريش خاصة، أي من قبيلتكم، حيث تعرفون حسبه، وصدقه وأمانته، أو لبني آدم كلهم، أي من جنسكم، وقرأ {مِن أَنْفُسِكُمْ} بفتح الفاء، أي من أشرفكم.

وجاء في التفسير الكبير أنه تعالى وصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية بخمسة أنواع من الصفات:

مِّنْ أَنفُسِكُمْ:

الصفة الأولى، قوله: {مِّنْ أَنفُسِكُمْ} وفي تفسيرها وجوه:

الأول، يريد أنه بشر مثلكم، كقوله: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ} (يونس: 2)، وقوله: {إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} (فصلت:6)، والمقصود أنه لو كان من جنس الملائكة لصعب الأمر بسببه على الناس.

والثاني، {مِّنْ أَنفُسِكُمْ}؛ أي من العرب، قال ابن عباس: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي، عليه السلام، بسبب الجدات، مضرها وربيعها ويمانيها، فالمضريون والربيعيون هم العدنانية، واليمانيون هم القحطانية، ونظيره قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} (آل عمران: 164) والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا، فهو سبب لعزكم ولفخركم؛ لأنه منكم ومن نسبكم.

والثالث، {مِّنْ أَنفُسِكُمْ} خطاب لأهل الحرم، وذلك لأن العرب كانوا يسمون أهل الحرم أهل الله وخاصته، وكانوا يخدمونهم، ويقومون بإصلاح مهمّاتهم، فكأنه قيل للعرب: كنتم قبل مقدمه مجدين مجتهدين في خدمة أسلافه وآبائه، فلِمَ تتكاسلون في خدمته؟

والقول الرابع، أن المقصود من ذكر هذه الصفة التنبيه على طهارته، كأنه قيل هو من عشيرتكم، تعرفونه بالصدق، والأمانة، والعفاف، والصيانة، وتعرفون كونه

حريصاً على دفع الآفات عنكم، وإيصال الخيرات إليكم، وإرسال من هذه حالته وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم. وقرىء مّنْ أَنفسِكُمْ؛ أي من أشرفكم وأفضلكم. [1]

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ:

العزيز في قوله تعالى: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} هو الغالب الشديد، والعزة هي الغلبة والشدة، فإذا وصلت مشقة إلى الإنسان عرف أنه كان عاجزاً عن دفعها، إذ لو قدر على دفعها لما قصر في ذلك الدفع، فحيث لم يدفعها علم أنه كان عاجزاً عن دفعها، وأنها كانت غالبة على الإنسان، فلهذا السبب إذا اشتد على الإنسان شيء قال: عز عليّ هذا، وأما (العنت) فيقال: عنت الرجل يعنت عنتاً، إذا وقع في مشقة وشدة لا يمكنه الخروج منها، ومنه قوله تعالى: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ}(النساء: 25) وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ} (البقرة: 220)

وقال الفراء: (مَا) في قوله: {مَا عَنِتُّمْ} في موضع رفع، والمعنى عزيز عليه عنتكم، أي يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه. [2]

حَرِيصٌ عَلَيْكُم:

الحرص في قوله تعالى: {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة.

وعلى هذا التقدير يكون قوله: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} معناه شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وبهذا التقدير لا يحصل التكرار، قال الفراء: الحريص الشحيح، ومعناه أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار، وهذا بعيد؛ لأنه يوجب الخلو عن الفائدة.[3]

---

1. التفسير الكبير، 16/ 187
2. المصدر نفسه.
3. التفسير الكبير 16 /188

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ:

والصفتان الرابعة والخامسة، يشملهما قوله جل ذكره:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ}

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه، رؤوف ورحيم.

والرازي في أعقاب ما ذكر من تفسير لهذه الآية الكريمة والصفات المذكورة فيها، يطرح سؤالين، ويجيب عنهما:

السؤال الأول: كيف يكون كذلك، وقد كلفهم في هذه السورة بأنواع من التكاليف الشاقة التي لا يقدر على تحملها إلا الموفق من عند الله تعالى؟

وأجاب عن ذلك، بأنه قد ضرب لهذا المعنى، مثل الطبيب الحاذق والأب المشفق، والمعنى أنه إنما فعل بهم ذلك؛ ليتخلصوا من العقاب المؤبد، ويفوزوا بالثواب المؤبد.

السؤال الثاني: لما قال: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ}فهذا النسق يوجب أن يقال رؤوف رحيم بالمؤمنين، فلم ترك هذا النسق، وقال: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ}؟

وأجاب عن ذلك أيضاً، بأن قوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ}يفيد الحصر، بمعنى أنه لا رأفة، ولا رحمة له إلا بالمؤمنين، فأما الكافرون، فليس له عليهم رأفة ورحمة، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ، كأنه يقول: إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ، إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين، وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل عن ذلك النسق. (*)

لماذا الإصرار على استجلاب العنت؟!

كثير من الناس، وبعضهم ينتسبون إلى الإسلام بالاسم أو الهوية الرمزية، دون أن يمتطوا صهوة جواده، سيجدون أنفسهم خارج نطاق الانتفاع بآثار الخير التي وعدها المؤمنون، ومع أن الخلق جميعاً مستهدفون بالهداية التي كلف بها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، تجاه العالمين، إلا أن ثمرات الشمائل المشار إليها آنفاً لن يقطفها المتنكبون دربه، فهم لن يجدوا منه، صلى الله عليه وسلم، الحرص عليهم والرأفة

* التفسير الكبير 16 /188.

بهم أو الرحمة، ولن يأسف على دخول الجاحدين نبوته النار، وتكبد ضنك العيش، لأنه صلى الله عليه وسلم، لن يخالف ما وعدهم الله بالخصوص، حيث يقول جل شأنه: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى* وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} (طه:124 - 127) بينما قال عز وجل في الآية السابقة لهذه الآيات من سورة طه: {...فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى} (طه:123) فمن يتبع دين الإسلام لن يضل ولن يشقى، والرسول، صلى الله عليه وسلم، العَزِيز عَلَيْهِ مَا عَنِتنا، الحَرِيص عَلَينا، الذي بنا رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، كوننا نؤمن بنبوته ورسالته ودينه، يشفع لنا يوم القيامة حتى لا نكون من الهالكين المعذبين، كما جاء في حديث أَنَس، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ، فقلت: يا رَبِّ؛ أَدْخِل الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ، فَيَدْخُلُونَ، ثُمَّ أَقُولُ أَدْخِل الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ، فقال أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى أَصَابِعِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم).[1]

فشفاعة النبي، صلى الله عليه وسلم، للمؤمنين يوم القيامة تتسق مع حرصه عليهم، وكرهه العنت لهم، ورأفته بهم ورحمته، وهم الذين يردونه على الحوض، بخلاف الذين بدلوا وغيروا وتقهقروا، فسيحرمون خيرات كثيرة يوم القيامة، فعن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ، رضي الله عنهما، قالت: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إني على الْحَوْضِ، حتى أَنْظُرَ من يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يا رَبِّ؛ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هل شَعَرْتَ ما عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ والله ما بَرِحُوا يَرْجِعُونَ على أَعْقَابِهِمْ، فَكَانَ ابن أبي مُلَيْكَةَ يقول: اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ على أَعْقَابِنَا، أو نُفْتَنَ عن دِينِنَا {أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} تَرْجِعُونَ على الْعَقِبِ).[2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض

وفي ضوء ما تقدم، وبالتزامن مع مشاهدة حال المتقهقرين، ممن اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، فأرادوها معيشة ضنكاً، اكتووا ببعض ويلاتها في الدنيا، وما تبقى لهم في الآخرة أشد وأعظم وأنكى، حقَّ لكل عاقل بصير متدبر بالعواقب والمصير، أن يتساءل: لماذا الإصرار على استجلاب العنت للأنفس؟! أيظن أولئك أن لهم خلداً لم يكن لأحد من سابقيهم من المؤمنين والغاوين؟!

فالحقيقة المشاهدة بأم الأعين أن الكل عن الدنيا راحل، من لم يكن سفره اليوم فغداً أو بعده، أو في يوم قريب، فهو مهما طال قريب، فلماذا يبغيها بعضهم شقاء مع سبق الإصرار؟! ألم يصدقوا أن بعض سالفيهم لما روجعوا في مثل حالهم، {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ} (المؤمنون: 106)

خاتمة:

في ذكرى ميلاد خاتم النبيين، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، كان هذا الاختيار للتطرق لعينة من شمائله صلى الله عليه وسلم، ذات الصلة بتحقيق مصالح المؤمنين في الدارين، حيث تم التركيز على ما تضمنته إحدى آيات القرآن الكريم، الذي نزل به الروح الأمين على قلب صاحب الذكرى، عليه من الله أفضل الصلاة، وأتم التسليم؛ ليهدي به الناس، وينقذ من اهتدى بهديه من ظلام الضلال، إلى نور الإيمان، بخلاف الذين تنكبوا دربه، فانخرطوا في درب الظلمات المفضية إلى نار السعير، مصداقاً لقوله جل شأنه: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. (البقرة:257)

فمن أراد النعيم عليه بحب محمد الأمين، صلى الله عليه وسلم، واتّباع صراط الله المستقيم، والنور المبين، الذي جاء به عن رب العالمين، ومن أراد العنت والشقاوة

وضنك العيش، وسوء المصير، فدرب الظلمات لذلك سبيل، على سنة الغابرين من أمثال فرعون، وقارون، وأبي لهب، وأبي جهل، من أصحاب الوجوه التي عليها غبرة، ترهقها قترة؛ لأنهم كفرة فجرة، بينما الذين حرص عليهم الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، يأتون ربهم يوم القيامة بقلوب سليمة، فتلك لعمري الجائزة، التي سألها أبو الأنبياء إبراهيم، عليه وإياهم الصلاة والسلام، فقال جل شأنه، على لسانه: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء: 89-87)

سائلين الله العلي القدير أن يهدينا لنأتي الله بقلوب سليمة، ووجوه ناضرة، لنفوز بالجنة التي وعدنا، وننجو من النار التي أعدت للغاوين، الذين ذكر الله مصيرهم في آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ* وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ* فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ* وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} (الشعراء: 90 - 95).

هو النبي لا كذب، صلى الله عليه وسلم

في ظلال ذكرى المولد النبوي الشريف، يطيب المقام باستذكار غيض من فيض خصائص صاحب هذه الذكرى العطرة النبي لا كذب، صلى الله عليه وسلم، فهو البشير النذير، والصادق الأمين، والجواد الكريم، والشجاع الصبور، وهو صاحب الخلق العظيم، الذي أثنى عليه رب العالمين، إذ يقول جل شأنه: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}. (القلم: 4)

وعبارة (النبي لا كذب) ورد أصلها على لسانه، صلى الله عليه وسلم، في مناسبة شهدت له بالشجاعة والاستبسال، ففي الحديث الصحيح، أن رجلاً قال لِلْبَرَاءِ بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما: (أَفَرَرْتُمْ عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يوم حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، لم يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عليهم، فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ على الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فلم يَفِرّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لعلى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، يقول: أنا النبي لَا كَذِبْ، أنا ابن عبد الْمُطَّلِبْ). (*)

فهي عبارة تدل على اعتزاز محمود بالذات في موضع ثبتت فيه أقدام الرسول، صلى الله عليه وسلم، راسخة، وارتفع رأسه شامخاً وهو يواجه أخطبوط الأعداء، بينما انهزم كثير ممن حوله، حين دبت الفوضى في الصفوف، لمَّا كان العُجْبُ بالكثرة والقوة، بينما هو، صلى الله عليه وسلم، ثبت بنفسه، وقلة ممن معه، غير آبهين بما يدور؛ لأن

*صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب

عقيدتهم بالله راسخة، وأشار القرآن الكريم في محكم التنزيل إلى هذا الموقف، فقال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}.(التوبة: 25 - 26)

التأهل بالمكارم:

النبي لا كذب، صلى الله عليه وسلم، أهَّله الله بمكارم الخصائص والشمائل، فكانت من مقومات نجاح دعوته، واستجابة الناس إليها، مصداقاً لقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}. (آل عمران: 159)

والإحاطة بشمائله، صلى الله عليه وسلم، وخصائصه وفيض أخلاقه، أمرٌ عسير، وبخاصة في هذا المقام الذي لا يتسع سوى للتذكير بما يتيسر منها؛ لخدمة هدف تأكيد الاعتزاز بنبينا الحبيب، صلى الله عليه وسلم، الذي يحاول المغرضون استهدافه بالأباطيل والأراجيف، كما فعل الذين من قبلهم ممن أعمى الله بصائرهم، وطمس على عيونهم، فرموه والمؤمنين الذين اتبعوه بالاتهامات الباطلة، والصفات الكاذبة، فذهبوا وإياها إلى الدرك الأسفل، بينما هو ودينه ما يزالان يرتقيان في العلا، ولا يكاد بلد في العالم إلا فيه مؤمنون بهما، ومحبون لهما، ويتسمَّوْنَ باسمه، صلى الله عليه وسلم، وينافحون عن دينه الذي بلغ عن ربه، مصداقاً لبشراه، إذ يقول: (لَا يزال طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ) [1] بل ذهب إلى أبعد من بشائر بقاء الإسلام والمسلمين وانتشار دينه في الدنيا، إلى رجاء الله أن يكون الأكثر تابعاً يوم القيامة، فقال: (ما من الْأَنْبِيَاءِ من نَبِيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الْآيَاتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كان الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى الله إِلَيّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يوم الْقِيَامَةِ). [2]

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي...)...
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته

شهادة للشاهد:

وصف القرآن الكريم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصفات كريمة كثيرة، منها الصفات المذكورة في قوله جل شأنه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً}. (الأحزاب:45 - 46)

وقد وصف الله عز وجل محمداً، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة بثماني صفات، تمثل الوصف الأول منها كونه نبياً، والثاني كونه رسولاً، والثالث كونه شاهداً، والرابع كونه مبشراً، والخامس كونه نذيراً، والسادس كونه داعياً إلى الله تعالى بإذنه، والسابع كونه سراجاً، والثامن كونه منيراً. [1]

ويذكر الرازي أن المقصود بالشاهد هنا يحتمل وجوهاً:

أحدهما أنه شاهد على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} (البقرة: 143)، وعلى هذا؛

فالنبي بعث شاهداً؛ أي متحملاً للشهادة، ويكون في الآخرة شهيداً؛ أي مؤدياً لما تحمله.

وثانيها أنه شاهد أن لا إله إلا الله؛ أي شاهد على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحدانية مدعياً لها؛ لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي، عليه السلام، كان ادّعى النبوة، فجعل الله نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً لله، فقال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}. (المنافقون: 1)

وثالثها أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار، والميزان والصراط، وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا، بالطاعة والمعصية، والصلاح والفساد.

والمراد بالسِرَاجَ المُّنِير؛ أي المبرهن على ما يقول، مظهراً له بأوضح الحجج. [2]

ورد ذكر بعض صفاته، صلى الله عليه وسلم، في التوراة والإنجيل، كما أخبر القرآن الكريم عن ذلك، وكذلك الحديث النبوي الشريف، التي منها حديث عَطَاءِ بن يَسَارٍ،

1. التفسير الكبير، 2/ 208
2. التفسير الكبير، 25/ 187

قـال: (لَقِيـتُ عَبْـدَ اللَّـهِ بْـنَ عَمْـرِو بْـنِ الْعَـاصِ، رضي اللـه عنهمـا، قلـت: أَخْـبِرْنِي عـن صِفَـةِ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم ، في التَّـوْرَاةِ؟ قـال: أَجَـلْ والله، إنـه لَمَوْصُـوفٌ في التَّـوْرَاةِ بِبَعْـضِ صِفَتِـهِ في الْقُـرْآنِ {يـا أَيُّهَـا النبـي إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَـشِّرًا وَنَذِيـرًا} وَحِـرْزًا لِلْأُمِّيِّـينَ، أنـت عَبْـدِي وَرَسُـولِي، سَـمَّيْتُكَ المتـوَكِّلَ، ليـس بِفَـظٍّ، ولا غَلِيـظٍ، ولا سَـخَّابٍ في الْأَسْـوَاقِ، ولا يَدْفَـعُ بِالسَّـيِّئَةِ السَّـيِّئَةَ، وَلَكِـنْ يَعْفُـو وَيَغْفِـرُ، وَلَـنْ يَقْبِضَـهُ اللـه حـتى يُقِيـمَ بِـهِ الْمِلَّـةَ الْعَوْجَاءَ، بِـأَنْ يَقُولُـوا لَا إِلَـهَ إلا اللـه، وَيَفْتَـحُ بهـا أَعْيُنًـا عُمْيًـا، وَآذَانًـا صُمًّـا، وَقُلُوبًـا غُلْفًـا.

تَابَعَـهُ عبـد الْعَزِيـزِ بْـن أبي سَـلَمَةَ عـن هِـلَالٍ، وقال سَـعِيدٌ عن هِـلَالٍ عن عَطَـاءٍ، عن ابن سَلَامٍ، غُلْفٌ كُلُّ شَيْءٍ، في غِلَافٍ، سَيْفٌ أَغْلَفُ، وَقَوْسٌ غَلْفَاءُ، وَرَجُلٌ أَغْلَفُ، إذا لم يَكُنْ مَخْتُونًا). [1]

رسول من أنفسهم رؤوف بهم:

مـنَّ اللـه تعـالى عـلى المسـلمين في قرآنـه الكريـم، أن بعـث فيهـم مـن أنفسـهم النـبي محمـداً، صـلى اللـه عليـه وسـلم؛ لينقذهـم مـن الضـلال إلى الهـدى، فقـال تعـالى: {لَقَـدْ مَـنَّ اللّـهُ عَـلَى الْمُؤمِنِـينَ إِذْ بَعَـثَ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّـنْ أَنفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِـمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِن كَانُـواْ مِـن قَبْـلُ لَفِـي ضَـلالٍ مُّبِـينٍ}. (آل عمـران: 164)

فمحمـد، عليـه الصـلاة والسـلام، ولـد فيهـم، ونشـأ فيمـا بينهـم، وكانـوا مشـاهدين لهـذه الأحـوال، مطلعـين عـلى هـذه الدلائـل، فـكان إيمانهـم مـع مشـاهدة هـذه الأحـوال أسـهل ممـا إذا لـم يكونـوا مطلعـين عليهـا، فلهـذه المعـاني مَـنَّ اللـه عليهـم بكونـه مبعوثـاً منهـم، فقـال: {إِذْ بَعَـثَ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّـنْ أَنفُسِـهِمْ}. [2]

وصـلى اللـه عليـه وسـلم لـم يكـن فظـاً، ولا غليـظ القلب مـع النـاس عامة، وعـلى وجه الخصـوص كانـت علاقتـه مـع أتباعـه تقـوم على أسـاس من الرحمـة بهـم والرفـق، والحرص على

---

1. صحيح البخاري كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق
2. التفسير الكبير، 9/ 65

مصالحهم، ودفع الشر عنهم، وقد شهد له رب العالمين بهذا، فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}. (التوبة: 128)

رحمة للعالمين:

بُعِثَ الرسول، صلى الله عليه وسلم، رحمة للعالمين، فقال عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}(الأنبياء: 107)، وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ على المُشْرِكِينَ، قال: إني لم أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً). [1]

والله أنزل على نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، القرآن لينذر به العالمين، فقال جل شأنه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً} (الفرقان: 1)، فمهمته تمثلت بحمل رسالة الإسلام، لهداية البشرية جمعاء، وأن تبشرهم، وتنذرهم، وتنجيهم من عقاب الله، وترشدهم إلى ثوابه، وحسن جزائه، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (سبأ: 28)،

وفي الحديث الصحيح، يقول صلى الله عليه وسلم: (...وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ). [2]

فكل خلق الله مخاطبون برسالة الإسلام، ومطالبون أن يؤمنوا بها، وبهذا جاء صلى الله عليه وسلم، عاملاً بأمر الله، حيث يقول جل شأنه: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. (الأعراف: 158)

والله تعالى أنزل القرآن هدى للعالمين، وليس للمسلمين فحسب، بل للناس جميعاً، عربهم وعجمهم، أسودهم وأبيضهم، غنيهم وفقيرهم، نسائهم ورجالهم، صغارهم

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها
2. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً

وكبارهـم، وكلهـم في ميزانه سـواء، لا فضل لأحـد منهم على غيره إلا بالتقوى، فيقول جل شـأنه:

{شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّـذِي أُنـزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ ...}.(البقرة: 185)

هو والذين معه رحماء بينهم:

لا تقتـصر الرحمـة عـلى الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، تجـاه أتباعـه المؤمنـين برسـالته، بـل يفـترض أن تكـون بـين المؤمنـين أنفسـهم، فالنـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والمؤمنـون رحمـاء بينهـم، بدليـل قولـه تعـالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِيـنَ مَعَهُ أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ رُحَمَـاء بَيْنَهُـمْ تَرَاهُـمْ رُكَّعـاً سُـجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِـم مِّـنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِـكَ مَثَلُهُـمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَمَثَلُهُـمْ فِي الْإِنجِيـلِ كَـزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَـآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْـتَوَى عَـلَى سُـوقِهِ يُعْجِـبُ الـزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِـمُ الْكُفَّـارَ وَعَـدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ مِنْهُـم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيمـاً}. (الفتـح: 29)

وتآلـف المؤمنـين فيمـا بينهـم مـا كان لـه أن يوجـد لـولا فضـل اللـه ونعمتـه، الـتي امـتنَّ بهـا عليهـم، فقـال جـل شـأنه: {وَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِهِـمْ لَـوْ أَنفَقْـتَ مَـا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مَّـا أَلَّفَـت بَـيْنَ قُلُوبِهِـمْ وَلَـكِنَّ اللّـهَ أَلَّـفَ بَيْنَهُـمْ إِنَّـهُ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ} (الأنفـال: 63)

وإذا وجـدت الرحمـة بـين المؤمنـين أنفسـهم فيمـا بينهـم، وبينهـم وبـين قادتهـم، فإنهـم بهـذا يقتفـون أثـر نبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وهـدي ربهـم، ومـن ناحيـة أخـرى؛ فإنهـم يتمترسـون بمتانـة علاقاتهـم الوثيقـة فيمـا بينهـم، في مواجهـة الأخطـار المحدقـة بهـم، أمـا حـين يتجاهلـون هـذا العتـاد، فإنهـم يعرضـون أنفسـهم لاسـتهداف المتربصـين بهـم مـن كل حـدب وصـوب، وفي التحذيـر مـن بلـوغ حـال الضعـف بسـبب التشـاحن والتنـازع، وهمـا نقيضـان للرحمـة، والحـب، والتآلـف، يقـول اللـه تعـالى: {وَأَطِيعُـواْ اللّـهَ وَرَسُـولَهُ وَلاَ تَنَازَعُـواْ فَتَفْشَـلُواْ وَتَذْهَـبَ رِيحُكُـمْ وَاصْـبِرُواْ إِنَّ اللّـهَ مَـعَ الصَّابِرِيـنَ}. (الأنفـال: 46)

فطاعة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، وتجنب التنازع سلاحان متينان، يقيان من الفشل والهزائم، وحال المسلمين اليوم يدل بوضوح على تحقق مصداقية هذه الحقيقة الربانية، التي أرجع الله فيها الفشل، وذهاب الريح إلى التنازع، الذي ما كان لهم أن يكونوا على هذا النحو، لولا تنكبهم هدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فالمسلون اليوم في دويلاتهم المجتزأة من كيان الأمة الأعلى، أضحوا فرقاً شتى في كياناتهم تلك، فتجزأ المجزأ، وازداد تشرذماً، فصاروا نهباً لكل طامع، لا يردون يد لامس، بل صار كثير منهم يهرولون إلى تقبيل يد قاتلهم وقدميه، مختارين غير مكرهين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سائلين الله العلي القدير أن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يهدينا والعالمين صراطه المستقيم، {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأن يمدنا بمدد من لدنه، ينصر به أولياءه، ويعزهم، ويخلصهم من كيد أعدائهم ومكرهم، ويحمي مسرى نبيه، صلى الله عليه وسلم، وأن يتقبل الذين قضوا شهداء في سبيله، ويفك قيد إخوانهم الأسرى، ويشافي جراح المكلومين، ممن أصابهم البغي والظلم والعدوان، إنه سبحانه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

تأملات في الهجرة والمناصرة في ضوء آيات الذكر الحكيم والسيرة النبوية

انطلقت الدعوة إلى الإسلام من مكة المكرمة، التي وجدت من صناديد أهلها عداء ظاهراً وباطناً، وقد عرج القرآن الكريم على بعض أشكال ذاك العداء، الذي انتهى في نهاية المطاف إلى اتخاذ قرار الهجرة، بل الأمر الرباني بها، بحثاً عن حضن دافئ لدعوة الإسلام، الموحى بها من رب العالمين، وقد اختلفت الأحوال بعد الهجرة عما قبلها، ومما لا ريب فيه أن الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة أحدثت انقلاباً في أحوال المسلمين، فقد أصبحت لهم دولة تحمي حماهم، وأرضاً تأويهم، وأخوة تقوي عضدهم، إذ الفرق كبير بين المستندين إلى الحمى، وبين مكشوفي الظهور.

ودلت الهجرة من جانب آخر على أن العزة والانتصارات يلزمها عمل ومثابرة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، شمر عن سواعد الجد وأصحابه الغر الميامين، بعد الهجرة بطريقة تليق بمقام من يحملون رسالة الهدى للعالمين، فلم يكتفوا باهتداء نفوسهم، ونجاة أبدانهم، بل بقيت عيونهم ترنوا إلى عرض الهداية على الناس بطريقة سلسة، لا إجبار فيها على اتباع الحق، ولا تقصير في أداء واجب الدعوة والتبليغ.

لماذا الهجرة؟

قد يسأل سائل عن مبررات الهجرة، والله قادر على نصر الحق وأصحابه، دون أن يعرضهم إلى مجازفات ومخاطر ومتاعب، فالدين لله، وهو سبحانه أولى بحفظه وحمايته، وفرش الأرض وروداً له، لكن سنة الله في خلقه، وفي الكون الذي يأويهم، جرت

على إفساح المجال لهم، ليسلكوا فيه سبل النجاة والعيش، وفق معايير وضوابط، ترك علم نتائجها غيباً، لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه، أو من أوحى الله إليه بشيء من علمه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، فقه متطلبات المهمة التي أنيطت به، فسعى إلى النصر، موقناً بالعاقبة، وتحمَّل في سبيل الله الأذى، وواجهته المصاعب، وأخذ بالأسباب، فأعدَّ العدة، بناء على ما تلقاه من الأوامر الإلهية، التي منها قوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (الأنفال: 60).

وقام عليه الصلاة والسلام بمهمة الدعوة إلى الله، وهو يوقن أن الهداية ليست ملكه، وإنما هي من اختصاص رب العالمين، وهو الذي خاطب نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} (آل عمران: 128) ويقول جل شأنه: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف: 103)، فالأمر أولاً وأخيراً لله، مصداقاً لقوله جل ذكره: {... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ...} (الروم: 4)

وفي هذا الإطار الإيماني، إلى جانب ما جاءت من إشارات قرآنية لدواعي الهجرة ومبرراتها، يمكن الخوض في محاولة الإجابة عن سؤال: لماذا الهجرة؟

طلب رَحْمَةَ اللّهِ:

المهاجر الذي اختار أن يخوض غمار الصعاب بهدف الانتصار لدينه، لن يتركه الله بلا رعاية، بل وعده سبحانه بنيل رحمته ورضوانه ومغفرته، فقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة:218)، وأي شيء أعظم من نيل رحمة الله، التي بها تتحقق المغفرة للعباد،

وبها ينجون من النار، ويدخلون الجنة، مصداقاً لما رواه أَبو هُرَيْرَةَ، قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: لَا ولا أنا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وأما مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ) [1]،

وكان عليه الصلاة والسلام يحرص على سؤال الله الرحمة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو مُسْتَنِدٌ إِلَيّ يقول: اللهم اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ)[2]

ورحمة الله واسعة، لا تحدها حدود زمانية ولا مكانية، وليس لها سقوف محصورة، وهي كذلك شاملة لكل دواعي الرحمة، والتي منها العفو والمغفرة، ومنها الرعاية والرزق، والشفاء والنجاة، ومنها بالنسبة إلى المهاجر أن ينصره الله ويعينه، ويرده إلى موطنه عزيزاً كريماً، رافع الهامة، كما كان للنبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الذين هاجروا بأمر الله من مكة، وعادوا إليها فاتحين برحمة الله، وإرادته، وعونه، وقدرته سبحانه، وهكذا المضطهدون الذين يجبرهم القهر البشري على هجر أوطانهم، وديارهم، ومساكنهم، وأهليهم، فينبغي للمؤمنين منهم أن يبقوا على أمل بالعودة المظفرة، ولو بعد حين.

اشتراط الهجرة:

لأهمية الهجرة فقد اشترطها الله في الذي تجوز موالاته ممن يدخل الإسلام، فقال تعالى:{وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً} (النساء:89)

---

1. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت
2. التخريج نفسه

وفي التفسير الكبير وقفة لطيفة عند هذا الاشتراط، فيقول أبو بكر الرازي: (التقدير حتى يسلموا ويهاجروا؛ لأن الهجرة في سبيل الله، لا تكون إلا بعد الإسلام، فقد دلت الآية على إيجاب الهجرة، بعد الاسلام وأنهم وإن أسلموا لم يكن بيننا وبينهم موالاة إلا بعد الهجرة ونظيره قوله:{... وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ...}(الأنفال72)

فالتكليف إنما كان لازماً حال ما كانت الهجرة مفروضة، فكانت الهجرة واجبة إلى أن فُتحت مكة، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا) [1] وروي عن الحسن أن حكم الآية ثابت في كل من أقام في دار الحرب، فرأى فرض الهجرة إلى دار الإسلام قائماً.

وفيه أيضاً أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، وأخرى تحصل بالانتقال عن أعمال الكفار إلى أعمال المسلمين، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ من هَجَرَ ما نهى الله عنه) [2]

وقال المحققون: الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته، وفعل منهياته، ولما كانت كل هذه الأمور معتبرة لا جرم، ذكر الله تعالى لفظاً عاماً يتناول الكل، فقال: {حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فإنه تعالى لم يقل حتى يهاجروا عن الكفر، بل قال: {حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} وذلك تدخل فيه مهاجرة دار الكفر، ومهاجرة شعار الكفر، ثم لم يقتصر تعالى على ذكر الهجرة، بل قيده بكونه في سبيل الله، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام، لغرض من أغراض الدنيا، إنما المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى.) [3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
3. التفسير الكبير: 10/ 176

فلا بد من إخلاص النية في الهجرة، فعن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه). (*)

توبيخ من لم يسلك بالهجرة سبيل الخلاص من الاستضعاف:

الهجرة تتحتم في بعض الظروف، للخروج من حالة الاستضعاف، وقد وبخ الله الذين استكانوا للهوان، وسبيل الهجرة أمامهم متاح، من أجل النجاة بها إلى شاطئ الأمان، لكنهم لم يسلكوا دربها، فقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً* إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً* وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}. (النساء: 97 - 100)

جزاء المهاجرين والأنصار:

أجزل الله الثناء على المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعض، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال:72)

* صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة.

وهُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً، ووعدهم الله بالمغفرة والرزق الحسن، فقال عز وجل:

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } (الأنفال:74)

والمهاجرون والأنصار يشتركون في حسن الجزاء والمثوبة، ووعدهم الله الفوز العظيم، فقال عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(التوبة:100)، ومن الجزاء المشترك الذي منَّ الله به على المهاجرين والأنصار، أن تاب الله عليهم، فقال جل ذكره: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (التوبة:117)

ووعد الله المهاجرين بمغفرة ذنوبهم، فقال عز وجل: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النحل:110)

ومن أسمى نعم الله على المهاجرين، إدخالهم الجنة، ومن الآيات القرآنية التي تضمنت الوعد بذلك، قوله تعالى:{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} (آل عمران:195)

ومن مزايا المهاجرين شهادة الله لهم بالإيمان، فقال جل ذكره: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الأنفال:75)

والمهاجرون أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ، وهُمُ الْفَائِزُونَ، مصداقاً لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} (التوبة:20)

والمهاجرون لهم المثوبة الحسنة في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} (النحل:41)

ووعدهم ربهم بالرزق الحسن، فقال جل ذكره: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الحج:58)

فهذه بعض مزايا المهاجرين والأنصار، في ضوء ما تيسر ذكره من الآيات القرآنية والسنة النبوية خاصة، فلهم الأجر الحسن في الدنيا والآخرة، كيف لا؟ وهم الذين حملوا على أكتافهم أعباء نشر الإسلام، وحماية حياضه، برعاية كريمة من رب العالمين، فكانت عين الله ترعاهم، وجنده تساندهم، وتشد من عضدهم، ومن روعة البيان القرآني، النص على فضل المهاجرين، ثم فضل الأنصار، ثم الذين اتبعوهم بإحسان، وذلك في آيات ثلاث متتالية في سورة الحشر، فقال عز وجل في فضل المهاجرين ومزاياهم: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحشر: 8).

ثم انتقل الحديث إلى بيان فضل الأنصار ومزاياهم، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر: 9).

وبعد ذلك كان الدور للذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار، الذين يتواصلون مع سابقيهم من السلف الصالح بالدعاء، وحسن الاقتداء، ويقيمون علاقاتهم مع إخوانهم المؤمنين على أساس من الحب والأخوة، بعيداً عن الغِل والحقد والتنازع والشقاق، وفيهم يقول جل شأنه: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحشر: 10)

خاتمة:

هـذه الوعـود الصادقـة مـن رب البريـة، للمهاجريـن والأنصـار، تشـير إلى عظـم مقامهـم، ورفيـع منازلهـم عنـده سـبحانه، فهـم الذيـن جاهـدوا في سـبيله ونـصروا دينـه، وحملـوه عـلى أكتافهـم للعالمـين، فانتـشر في الأصقـاع، ودان لـه الجبابـرة، فهـم السـابقون السـابقون، الذيـن حملـوا لـواء الإسـلام، وضحـوا بالغـالي والنفيـس مـن أجلـه، فالمهاجـرون تركـوا رغـد العيـش، ورفقـة الأهـل، وأنـس العشـيرة، في سـبيل دينهـم، والأنصـار كان منهـم الكـرم والجـود، والنـصر والمنـاصرة، ففتحـوا بيوتهـم لإخوانهـم المهاجريـن، وتقاسـموا معهـم القـوت، وهكـذا ينبغـي أن يكـون المسـلمون، على غـرار المهاجريـن والأنصـار، وإلا فلا.

عـسى اللـه أن يهدينـا لنكـون مـن الأخيـار الذيـن جـاءوا بعـد المهاجريـن والأنصـار، فالتزمـوا نهجهـم القويـم، وصراط اللـه المسـتقيم، فكانـوا خـير خلـف لخـير سـلف، بخـلاف الذيـن تنكـروا لسـلفهم، وجحـدوا فضلهـم، مـن أمثـال الذيـن قـال فيهـم عـز وجـل: {قَـالَ ادْخُلُـواْ فِي أُمَـمٍ قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِكُـم مِّـن الْجِـنِّ وَالإِنـسِ فِي النَّـارِ كُلَّمَـا دَخَلَـتْ أُمَّـةٌ لَّعَنَـتْ أُخْتَهَـا حَـتَّى إِذَا ادَّارَكُـواْ فِيهَـا جَمِيعـاً قَالَـتْ أُخْرَاهُـمْ لأُولاهُـمْ رَبَّنَـا هَـؤُلاء أَضَلُّونَـا فَآتِهِـمْ عَذَابـاً ضِعْفـاً مِّـنَ النَّـارِ قَـالَ لِـكُلٍّ ضِعْـفٌ وَلَـكِن لا تَعْلَمُـونَ} (الأعـراف: 38)

الفصل السادس /إضاءات منوعة

الرقم	المقال	الصفحة
.1	هلال ذي الحجة ووحدة الأمة	190
.2	التضامن الإسلامي المُسانَد بولاية الله ورعايته ضرورة لا مناص عنه	198
.3	الصبر والمصابرة والرباط في الحالة الفلسطينية عائلة أبو حميد نموذجاً	207
.4	ذكرى النكبة واستهداف وكالة غوث اللاجئين	217
.5	نصرة الأسرى ومواساة ذوي الشهداء بين الواقع والمأمول	224
.6	معارك طاحنة وقودها نحن ومالنا وعيالنا وقضايانا المصيرية	235
.7	ما بين مجزرتي نيوزيلندا والخامس عشر من رمضان في المسجد الإبراهيمي قواسم مشتركة	241
.8	متحف فلسطين ومسجدا القدس والرابع في كيب تاون	252
.9	أيتها الشقائق حسبكنَّ	265
.10	نفحات من آمال العام الدراسي الجديد وآلامه	273
.11	تأملات في مبادئ الخطاب الديني المنشود وتصوراته	282
.12	إياكم والهرج	290
.13	تجنب الاستخدام السيئ لوسائل الاتصال الحديثة	297
.14	الإسلام منارة فلا تجعلوه مغارة	303

هلال ذي الحجة ووحدة الأمة

العبادات الرئيسة في الإسلام مرتبطة بالزمن، فصيام رمضان تبدأ أيامه من ثبوت هلال شهره، وتنتهي بثبوت رؤية هلال شهر شوال الذي يليه، وكل يوم فيه يبدأ بزمن وينتهي به، فهو يبدأ ببزوغ الفجر، وينتهي بغروب شمس اليوم، والزكاة مرتبطة بالحول، وهو السنة القمرية التي يبدأ حسابها من يوم امتلاك نصاب الزكاة، حتى ينتهي العام، والحج له مواقيت زمانية، ومعظم شعائره مرتبط بالزمن، فأهم أركان الحج وهو الوقوف بعرفة له يوم محدد، فيه مواعيد معينة لبدايته ونهايته، وكذلك يوم النحر، وأيام الرمي، والحج برمته يُؤدى في أشهر معلومة، مصداقاً لقوله تعالى:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} (البقرة: 197)

والسؤال عن الأهلة أجاب عنه سبحانه بأنها مواقيت للناس والحج، فقال عز وجل:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(البقرة: 189)

فقد سئل الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الهلال وما فائدته، ومخالفته لحال الشمس، وقد جاءت هذه الآية الكريمة تجيب السائلين عن الهلال، وهو ليلتان من أول الشهر، وقيل: ثلاث، ثم يقال له قمر.

{مَوَاقِيتُ} جمع ميقات لمحل الديون، والأكرية، والقضاء، والعُدُد وغير ذلك، ثم ذكر الحج اهتماماً بذكره، وإن كان قد دخل في المواقيت للناس.(*) فالأهلة مهمة، ولها دور في تحديد الشهور، وأداء العبادات، وإجراءات حياة الناس، فهي جديرة بالاهتمام، والعناية، والمتابعة، وتطوير آليات استطلاعها، والكشف عنها.

* التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 73.

الأعوام والشهور:

الأعـوام كل منهـا محـدد باثـني عشر شـهراً، تقـع خلالها الأحـداث ويؤرخ لها، ويسـتذكر النـاس بهـا الحـوادث، وحركـة الزمـن ترتبـط بالقمـر وأهلتـه، فبهـا تتحـدد الشـهور، الـتي تتحدد بهـا الأعـوام، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل: {إِنَّ عِـدَّةَ الشُّـهُورِ عِنـدَ اللّهِ اثْنَـا عَـشَرَ شَـهْراً فِي كِتَـابِ اللّهِ يَـوْمَ خَلَـقَ السَّـمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَـا أَرْبَعَـةٌ حُـرُمٌ ذَلِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ فَـلاَ تَظْلِمُـواْ فِيهِـنَّ أَنفُسَـكُمْ وَقَاتِلُـواْ الْمُشْرِكِـينَ كَآفَّـةً كَمَـا يُقَاتِلُونَكُـمْ كَآفَّـةً وَاعْلَمُـواْ أَنَّ اللّـهَ مَـعَ الْمُتَّقِـينَ} (التوبـة: 36)

فالسـنة عنـد العـرب عبـارة عـن اثـني عـشر شـهراً قمريـة، وهـي: محـرم، وصفـر، وربيـع الأول، وربيـع الثـاني، وجمـادى الأولى، وجمـادى الآخـرة، ورجـب، وشـعبان، ورمضـان، وشـوال، وذو القعـدة، وذو الحجـة، جـاء في التفسـير الكبـير، أن السـنة عنـد العـرب عبـارة عـن اثـني عـشر شـهراً مـن الشـهور القمريـة، والدليـل عليـه هـذه الآيـة، وعنـد بعـض طوائـف النـاس هـي المـدة الـتي تـدور الشـمس فيهـا دورة تامـة، والسـنة القمريـة أقـل مـن السـنة الشمسـية بمقـدار معلـوم، وبسـبب ذلـك النقصـان تنتقـل الشـهور القمريـة مـن فصـل إلى فصـل، فيكـون الحـج أو الصـوم واقعـاً في الشـتاء مـرة، وفي الصيـف أخـرى، وكان يشـق الأمـر عليهـم بهـذا السـبب، وأيضـاً إذا حـضروا الحـج حـضروا للتجـارة، فربمـا كان ذلـك الوقـت غـير موافـق لحضـور التجـارات مـن الأطـراف، فلهـذا السـبب أقدمـوا عـلى التلاعـب في مواعيـد الشـهور، وعنـد ذلـك بقـي زمـن الحـج مختصـاً بوقـت واحـد معـين، موافقـاً لمصلحتهـم، وانتفعـوا بتجاراتهـم ومصالحهـم، فهـذا النـسيء المذمـوم، وإن كان سـبباً لحصـول المصالـح الدنيويـة، إلا أنـه لـزم منـه تغيـير حكـم اللـه تعـالى.

والسـنة الشمسـية لمـا كانـت زائـدة عـن السـنة القمريـة، جمعـوا تلـك الزيـادة، فـإذا بلـغ مقدارهـا شـهراً، جعلـوا تلـك السـنة ثلاثـة عـشر شـهراً، فأنكـر اللـه تعـالى ذلـك عليهـم، وحكـم أن تكـون السـنة اثـني عـشر شـهراً، لا أقـل ولا أزيـد، ومذهـب العـرب مـن الزمـان الأول، أن تكـون السـنة قمريـة لا شمسـية، وهـذا حكـم توارثـوه عـن إبراهيـم وإسـماعيل، عليهمـا الصـلاة والسـلام.(*)

* بتصرف عن التفسير الكبير، 16 - 41.

منازل القمر :

في سـورة يونـس تمـت الإشـارة إلى صفتـين رئيسـتين مـن صفـات القمـر، وهمـا أنـه نـور، ومنـازل مقـدرة: فقـال عـز وجـل: {هُـوَ الَّـذِي جَعَـلَ الشَّـمْسَ ضِيَـاء وَالْقَمَـرَ نُـوراً وَقَـدَّرَهُ مَنَـازِلَ لِتَعْلَمُـواْ عَـدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ مَـا خَلَـقَ اللّـهُ ذَلِـكَ إِلاَّ بِالْحَـقِّ يُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ}(يونـس: 5)

والضمـير في {وَقَـدَّرَهُ مَنَـازِلَ} يعـود للقمـر، والمعنـى قُـدِّرَ سـيره في منـازل، {والْحِسَـاب} يعـني حسـاب الأوقـات، مـن الأشـهر والأيـام والليـالي. [1]

يقـول الشـوكاني: (ومنـازل القمـر هـي المسـافة الـتي يقطعهـا في يـوم وليلـة بحركتـه الخاصـة بـه، وجملتهـا ثمانيـة وعـشرون، وهـي معروفـة، يـنزل القمـر في كل ليلـة منهـا مـنزلاً لا يتخطـاه، فيبـدو صغـيراً في أول منازلـه، ثـم يكـبر قليـلاً قليـلاً حـتى يبـدو كامـلاً، وإذا كان في آخـر منازلـه رق واسـتقوس، ثـم اسـتتر ليلتـين، إذا كان الشـهر كامـلاً، أو ليلـة إذا كان ناقصـاً، والـكلام في هـذا يطـول).[2]

وورد ذكـر منـازل القمـر في سـورة يـس، فقـال تعـالى: {وَالْقَمَـرَ قَدَّرْنَـاهُ مَنَـازِلَ حَـتَّى عَـادَ كَالْعُرْجُـونِ الْقَدِيـمِ} (يـس: 39)، فالقمـر يـؤدي دوراً مهمـاً في خدمـة النظـام الكـوني، وحسـاب السـنين والشـهور والأعمـار، وهـو بالتـالي مـن أجـلّ النعـم الـتي امـتن اللـه بهـا عـلى خلقـه، فقـال جـلَّ ذكـره: {فَالِـقُ الإِصْبَـاحِ وَجَعَـلَ اللَّيْـلَ سَـكَناً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ حُسْـبَاناً ذَلِـكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيـمِ} (الأنعـام: 96)

جـاء في التفسـير الكبـير: (أن اللـه تعـالى قـدّر حركـة الشـمس مخصوصـة بمقـدار مـن السرعـة والبـطء، بحيـث تتـم الـدورة في سـنة، وقـدر حركـة القمـر بحيـث تتـم الـدورة في شـهر، وبهـذه المقاديـر تنتظـم مصالـح العالـم في الفصـول الأربعـة، وبسـببها يحصـل مـا يحتـاج إليـه مـن نضـج الثمـار، وحصـول الغـلات، ولـو قدرهـا بـأسرع أو أبطـأ ممـا وقـع لاختلـت هـذه المصالـح، فهـذا هـو المـراد مـن قولـه تعـالى: {وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ حُسْـبَاناً}

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 89.
2. فتح القدير، 2/ 425.

وفي الحسبان قولان: الأول، وهو قول أبي الهيثم، أنه جمع حساب، مثل ركاب وركبان، وشهاب وشهبان، والثاني، أن الحسبان مصدر، كالرجحان والنقصان، وقال صاحب الكشاف: الحُسبان بالضم مصدر حسب، كما أن الحِسبان بالكسر مصدر حسب، ونظيره الكفران والغفران والشكران.

وعلى هذا يكون معنى جعل الشمس والقمر حسباناً، أي جعلهما على حساب؛ لأن حساب الأوقات لا يُعلم إلا بدورهما وسيرهما. [1]

وورد في القرآن الكريم أيضاً ذكر أن الشمس والقمر بحسبان، في قوله عز وجل: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} (الرحمن:5)

جاء في أضواء البيان: (أن الحسبان مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى بحسبان أي بحساب، وتقدير من العزيز العليم، وذلك من آيات الله، ونعمه أيضاً على بني آدم؛ لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويوم الجمعة، وعُدُد النساء اللاتي تعتد بالشهور، كاليائسة، والصغيرة، والمتوفى عنها.) [2]

إثبات بدايات الشهور ونهاياتها برؤية هلال القمر:

كل شهر قمري يبدأ بتولد هلاله وظهوره بعد غروب شمس اليوم الأخير من أيام الشهر الذي يسبقه، وتنتهي أيامه بالتالي ببزوغ هلال الشهر الذي يليه، ومن أكثر الشهور التي يتابع المسلمون أهلتها، شهرا رمضان وشوال، ثم هلال ذي الحجة لتعلقه بالحج، وعيد الأضحى المبارك، وقد حدد الله عز وجل بداية شهر رمضان بشهود هلال شهره، فقال تعالى:{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ

1. التفسير الكبير، 13/ 81.
2. أضواء البيان، 7/ 491.

أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة: 185)

ومعنى {شَهِدَ} أي حضر، والشهود الحضور. [1]

وطبق النبي، صلى الله عليه وسلم، دلالة ربط فرض الصيام بشهادة هلال شهر رمضان، والانفكاك عن الصيام برؤية هلال شهر شوال، ففي صحيح البخاري، بَاب قَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: إذا رَأَيْتُمْ الْهِلَالَ فَصُومُوا، وإذا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، وفيه عن مَالِك عن نَافِعٍ، عن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ذَكَرَ رَمَضَانَ، فقال: لَا تَصُومُوا حتى تَرَوْا الْهِلَالَ، ولا تُفْطِرُوا حتى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ، فَاقْدُرُوا له)[2]

جاء في عمدة القاري: (أنه اختلف في هذا التقدير، يعني في قوله: (فَاقْدُرُوا له) فقيل: معناه قدروا عدد الشهر الذي كنتم فيه ثلاثين يوماً؛ إذ الأصل بقاء الشهر، وهذا هو المرضي عند الجمهور، وقيل: قدروا له منازل القمر وسيره؛ فإن ذلك يدل على أن الشهر تسعة وعشرون يوماً، أو ثلاثون، فقالوا: هذا خطاب لمن خصه الله بهذا العلم، والوجه هو الأول. وقد استفيد من هذا الحديث أن وجوب الصوم ووجوب الإفطار عند انتهاء الصوم متعلقان برؤية الهلال.) [3]

وقد ورد في الباب المشار إليه آنفاً من صحيح البخاري، روايات عدة تؤكد مضمون الحديث آنف الذكر، منها ما روي عن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فلا تَصُومُوا حتى

1. التفسير الكبير، 5/ 75.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا».
3. عمدة القاري، 10/ 272.

تَـرَوْهُ، فَـإِنْ غُـمَّ عَلَيْكُـمْ، فَأَكْمِلُـوا الْعِـدَّةَ ثَلَاثِـينَ)[1] وعنـه، رضي اللـه عنهمـا، يقـول: قـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (الشَّـهْرُ هَكَـذَا وَهَكَـذَا، وَخَنَـسَ الْإِبْهَـامَ فِي الثَّالِثَـةِ) [2]

الاختـلاف الـذي حصـل بـين أقطـار الأمـة الإسـلامية بسـبب هـلال شـوال لعـام 1440هــ، مـا كان لـه أن يحـدث لـو أن كلمة الأمـة واحـدة، وبخاصـة في أمـور العبـادات مـن هـذا القبيـل، لكـن واقـع الأمـة المتفرقـة، ممزقـة الأشـلاء، نتـج عنـه مثـل هـذا الاختـلاف غـير المقبـول عـلى هـذا الصعيـد التعبـدي، الـذي كان مـن تداعياتـه احتـدام النقـاش مـن قبـل بعـض الفئـات حـول هـذه المسـألة العلميـة الفقهيـة بامتيـاز، وإن كان للاختـلاف بـين الأقطـار الإسـلامية أسـباب قهريـة، فـإن الاختـلاف داخـل القطـر الواحـد لـم يكـن لـه أي مـبرر، سـوى التعنـت والانتصـار لـلآراء الحزبيـة، الـذي نتـج عنـه إثـارة الفـتن وإحـداث القلاقـل، وللحقيقـة والتاريـخ وللباحثـين عـن الحقيقـة، نوضـح أن إعـلان دار الإفتـاء الفلسـطينية عـن أن عيـد الفطـر هـو يـوم الأربعـاء بعـد إتمـام شـهر رمضـان ثلاثـين يومـاً، اسـتند إلى حقائـق علميـة وواقعيـة وفقهيـة، فقـد تواتـرت آراء أهـل العلـم المتبحريـن في علـم الفلـك، وأجمعـت عـلى اسـتحالة تحقـق رؤيـة هـلال شـهر شـوال مسـاء يـوم مراقبتـه ليلـة الثلاثـين مـن رمضـان، لأنـه لـن يمكـث في سـماء أي مـن الـدول العربيـة إلا دقائـق محـدودة جـداً، ومـن ذلـك القـدس وعمـان والريـاض والقاهـرة، حيـث أعلـن أن الهـلال سـيغيب بعـد أقـل مـن خمـس دقائـق عـلى بزوغـه، بعـد غـروب شـمس ذلـك اليـوم، وبالتـالي، فـإن نـوره سـيتلاشى مـع بقايـا شـعاع الشـمس الذاهـب إلى الغـروب، وقطـع الفلكيـون باسـتحالة الرؤيـة المطلوبـة شرعـاً للهـلال الجديـد، ممـا يسـتلزم الإعـلان عـن اليـوم التـالي متممـاً لشـهر رمضـان، تبعـاً لتوجيهـات الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، المبينـة في الأحاديـث الصحيحـة، ومنهـا مـا

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا».
2. التخريج نفسه.

رواه أبو هُرَيْرَة، رضي الله عنه، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمّيَ عَلَيْكُمْ، فَأَكْمِلُوا العَدَد)، وفي رواية عنه: (فَعدُّوا ثَلاثِينَ)(*) مع التنويه إلى ضرورة الاستئناس بآراء العلماء القطعية خاصة، وهو أمر لا يتجاهله إلا من أعمى الله بصيرته، فتجاهل الحقائق الدامغة.

فالمسألة لم تتعلق بجانب وحدة المطالع أو اختلافها، كما تصور بعض الناس، وإنما رجع القرار بشأنها إلى قناعة المسؤول عن مثل هذا القرار الخاص بعبادة جمهور المسلمين، التابعين لإمرته، بصفته المفوض بالإعلان لهم عن ثبوت الرؤية أو تعذرها، وانطلاقاً من هذه المسؤولية وعبء هذه الأمانة العظيمة، وحيث لم يبلغ عن شهادة برؤية الهلال في محيط قطره، رغم استخدام تقنيات المجاهر في مواقع مختلفة، ومنها المسجد الأقصى المبارك، فغابت الشمس، ولم يظهر أثر للهلال المتولد، وكان الرجاء أن يتفق المسلمون على قرار صائب في المسألة، وقررت الأقطار قراراتها حسب قناعات المسؤولين فيها، ولم يكن اختيار دار الإفتاء الفلسطينية لما ذهبت إليه سهلاً، لأن الوفاق والاتفاق هدف لها، غير أنه تعذر تحققه بقرارها ودونه، وباختصار لم تكن قناعة بتحقق الرؤية المطلوبة للهلال، لا بالبصر المجرد، ولا بالاستعانة بالمجاهر، أما عند من لا يشترطون الرؤية، ويكتفون بالحساب الفلكي، فقد بدأ الشهر الجديد لتولد هلاله فلكياً، وهذا ما لا يتبنى الأخذ به أصحاب الرأي المشترط لثبوت الرؤية.

هذا ملخص ما كان، ولم تكن للآراء الفئوية والمواقف السياسية أي دور فيما جرى، بخلاف التهم الباطلة، التي روج لها بعض ممن سول لهم الشيطان زيغ أعمالهم، فرأوها حَسنة، وتناسوا أن درء المفاسد أولى من جلب المنافع والمصالح، فأوقعوا في

* صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، والفطر لرؤية الهلال، وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً.

المساجد، وحتى البيوت، فُرقة ما أنزل الله بأسبابها من سلطان، فليتقوا الله، وليقولوا قولاً سديد، وليستغفروا الله على ما اقترفوا، ويقضوا يوم المتمم الذي أفطروا فيه، وأغروا بعض الناس بإفطاره، وهو المتمم عند من اشترط الرؤية لثبوت الأهلة.

تحديد أيام الحج وعيد الأضحى المبارك:

يتساءل بعض الناس عما سيكون في أوساط المسلمين حول هلال شهر ذي الحجة القادم، في ضوء ما جرى من اختلاف في شهر شوال، هل سيكون لذلك تداخل وتبعات؟ والجواب، أن الأمر يتعلق بأمانة ومسؤولية غير منفصمة عن الحرص على تحقق وحدة المسلمين، ورجاء أن يكون عيدهم واحداً، وحجهم واحداً، فإن قرار الإعلان عن تحديد هلال ذي الحجة الذي تتحدد بناء عليه أيام الحج وعيد الأضحى المبارك، ينبغي أن لا يُختلف بشأنه، ودار الإفتاء الفلسطينية لن تكون إلا مع وحدة الكلمة والقرار بالخصوص، والذي من المتعارف عليه سنوياً أن يصدر من جهات الاختصاص في بلاد الحج، فلا يعقل قبول مناكفة من أحد أو مخالفة له، راجين أن يوحد الله كلمة المسلمين، وأن يؤلف بينهم، تحقيقاً واستجابة لأمره جلَّ في علاه، الوارد في آياته القرآنية الكريمة، ومنها قوله عز وجل: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (آل عمران: 103)

التضامن الإسلامي المُساندَ بولاية الله ورعايته ضرورة لا مناص عنه

التضامن مصطلح يعبر عن معنى جميل، وأكثر من يشعر بأهميته هم الذين يستقوي عليهم المتغطرسون، ويجحف بحقهم الظالمون، فيحتاجون إلى أقوياء بالنوع، أو بالوصف، ليساعدوهم أو ينقذوهم مما يجدون، والناس بعامة يتعرضون لمثل هذا الحال في ظروف مختلفة، بغض النظر عن الجنس، واللون، والدين، والأعمار، والقرآن الكريم نبه إلى قضية التضامن في مواضع متعددة، وبصيغ متنوعة، فأي شيء أكثر صراحة من الحث القرآني على التضامن مع الضعفاء، من قوله جل شأنه: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.(النساء: 75)

والمستضعفون المذكورون في الآية الكريمة هنا هم الذين حبسهم مشركو قريش بمكة؛ ليفتنوهم عن الإسلام، والقرية الظالم أهلها، هي مكة حين كان النفوذ فيها للمشركين.(*)

لكن لفظ الآية العام يتيح المجال لتعميم الأمر؛ ليتعدى من نزلت بشأنهم الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والقرآن الكريم الذي نزل لمواكبة حياة الخلق إلى يوم القيامة، تميز بصيغ التعميم التي خلا كثير منها من ذكر مسمى من نزلت الآيات بسببه، لتفسح المجال رحباً للاستناد إليها في أحوال مشابهة.

* التسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 148

مسائل تتعلق بالآية الكريمة:

الآيـة الكريمـة المذكـورة آنفـاً بدئـت بسـؤال إنـكاري، موجـه للجماعـة أو الأفـراد، الذيـن يملكـون قـوة وإمكانـات، يقاتلـون بهـا الظالمـين الذيـن ألجـأوا المسـتضعفين للتوجـه إلى اللـه، متضرعـين بالدعـاء، أن يخرجهـم مـن ديارهـم الـتي يحكمهـا ظالمـون جـاروا عليهـم، طالبـين منـه سـبحانه النـصر والعـون، وأن يخصهـم بولايتـه لهـم، معبريـن بهـذا عـن يقـين بـأن مـن يتـولاه اللـه بعونـه ونـصره، فلـن يكـون مـن الخاسريـن.

جـاء في التفسـير الكبـير ذكـر لمسـائل تتعلـق بهـذه الآيـة الكريمـة، منهـا: أن قولـه تعـالى: {وَمَـا لَكُـمْ لاَ تُقَاتِلُـونَ...} يـدل عـلى أن الجهـاد واجـب، ومعنـاه أنـه لا عـذر لكـم في تـرك المقاتلـة، وقـد بلـغ حـال المسـتضعفين مـن الرجـال والنسـاء والولـدان مـن المسـلمين مـا بلـغ في الضعـف، فهـذا بيـان للعلـة الـتي صـار بسـببها القتـال واجبـاً، إذ يتـم بـه إنقـاذ المسـتضعفين مـن جـبروت الظالمـين وطغيانهـم.

المسـألة الثانيـة، اتفقـوا عـلى أن قولـه تعـالى: {وَالْمُسْـتَضْعَفِينَ مِـنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدانِ} متصـل بمـا قبلـه، وفيـه وجهـان:

أحدهمـا: أن يكـون عطفـاً عـلى السـبيل، والمعنـى مـا لكـم لا تقاتلـون في سـبيل اللـه، وفي المسـتضعفين؟

والثاني: أن يكون معطوفاً على اسم الله عز وجل؛ أي في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين.

المسـألة الثالثـة، المـراد بالمسـتضعفين مـن الرجـال والنسـاء والولـدان، قـوم مـن المسـلمين بقـوا بمكـة، وعجـزوا عـن الهجـرة إلى المدينـة، وكانـوا يَلْقُـون مـن كفـار مكـة أذى شـديداً، وعـن ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهمـا، قـال: (كنـت أنـا وَأُمِّـي مـن الْمُسْـتَضْعَفِينَ، أنـا مـن الْوِلْـدَانِ، وَأُمِّـي مـن النِّسَـاءِ).(*)

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي ، فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام

المسألة الرابعة، الوِلْدان جمع الولد، ونظيره ما جاء على فعل وفعلان، نحو: (حزب وحزبان)، وعن صاحب الكشاف، قال: ويجوز أن يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر، وبالولدان العبيد والإماء؛ لأن العبد والأمة، يقال لهما الوليد والوليدة، وجمعهما الولدان والولائد، إلا أنه جعل هاهنا الولدان جمعاً للذكور والإناث، تغليباً للذكور على الإناث، كما يقال آباء وإخوة، والله أعلم.

المسألة الخامسة، إنما ذكر الله الولدان مبالغة في شرح ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، ومبغضة لهم بمكانهم؛ ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم، استنزالاً لرحمة الله، بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء.

ثم ذكر تعالى أن هؤلاء المستضعفين كانوا يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً} وفيه مسائل، منها:

المسألة الأولى، أجمعوا على أن المراد من هذه القرية الظالم أهلها مكة، وكون أهلها موصوفين بالظلم، يحتمل أن يكون لأنهم كانوا مشركين، قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}(لقمان: 13)، وأن يكون لأجل أنهم كانوا يؤذون المسلمين، ويوصلون إليهم أنواع المكاره.

المسألة الثانية، في قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً} قولان:

أحدهما، ما ورد في قول ابن عباس: يريدون اجعل علينا رجلاً من المؤمنين يوالينا، ويقوم بمصالحنا، ويحفظ علينا ديننا وشرعنا، فأجاب الله تعالى دعاءهم؛ لأن النبي، عليه الصلاة والسلام، لما فتح مكة جعل عتاب بن أسيد أميراً لهم، فكان الولي هو الرسول، عليه الصلاة والسلام، وكان النصير عتاب بن أسيد، وكان عتاب ينصف الضعيف من القوي، والذليل من العزيز.

الثاني، المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة، والحاصل كن أنت لنا ولياً وناصراً. (*)

* التفسير الكبير: 10/ 145 - 146

عينة من الدواعي الشرعية للتضامن الإسلامي:

في ضوء كثرة ما يواجهه أبناء المسلمين من ألوان الاضطهاد والظلم والاستضعاف، وبخاصة ما تتعرض له زهرة المدائن، القدس ومسجدها الأقصى وباقي مقدساتها وأهلها المرابطون في جنباتها، يحسن تذكير كل من تسول له نفسه الغفلة عن واجبه تجاهها منهم، فمناصرتها وأهلها ومقدساتها واجب على عموم العرب والمسلمين، ولا يخضع للمساومة، ولا يقبل التردد أو التهاون، فكيف بالتواطؤ أو الخذلان، فتلك لعمري طامة صعبة، وفي هذا المقام يحسن التذكير بصورة مجملة، ببعض الدواعي الشرعية لبذل الجهود تلو الجهود في سبيل دعم التضامن الإسلامي، بكل السبل والوسائل المستطاعة، ومن هذه الدواعي ما يأتي:

المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص:

ينبغي أن لا يكون هذا شعاراً فحسب، وإنما حقيقة ينبغي ترسيخها، وتوطيد معززاتها، فالله تعالى يحب المؤمنين الذين يكونون كالبنيان المرصوص، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}(الصف: 4)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حثَّ على تحقيق هذه الغاية النبيلة، فقال: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بين أَصَابِعِهِ)(*)

وخلال ثناء الله جل في علاه على المهاجرين والأنصار والمجاهدين من المؤمنين، أبرز تميزهم بولاية بعضهم بعضاً، فقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(الأنفال: 72)

* صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم

تحريم خذل المسلم لأخيه:

من حق المسلم على المسلم أن لا يخذله، حيث يجب نصره، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى ها هنا -وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)[1]

التطبيق السليم لمضمون الأمر بلزوم نصر الأخ الظالم والمظلوم:

من صور التضامن الواجبة للمسلم على أخيه المسلم، أن ينصره مظلوماً بالمعاضدة والمؤازرة، حتى إن انحرف به السلوك عن جادة الحق، فينبغي ردعه عن ضلاله، وذلك من صور نصره، فعن أَنَسِ بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا؛ قالوا: يا رَسُولَ الله؛ هذا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قال: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ) [2]

وعن الْبَرَاءَ بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما، قال: (أَمَرَنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عن سَبْعٍ، فذكر عِيَادَةَ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعَ الجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ العَاطِسِ، وَرَدَّ السَّلامِ، وَنَصْرَ المَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي، وَإِبْرَارَ المُقْسِمِ)[3]

معاضدة المستجير ولو لم يكن مسلماً:

لا تقتصر المعاضدة المطلوبة للمستجيرين بالمسلمين على إخوانهم، الذين يؤمنون بدينهم، بل هي مبدأ ينبغي الانطلاق منه في مناصرة المستجيرين بالمسلمين، حتى لو كانت الاستجارة من مشركين لا يؤمنون بالإسلام، وذلك بناء على الأمر الرباني

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله
2. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً
3. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم

المتضمن في قوله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ}(التوبة:6)

فإذا كان التضامن مطلوباً على هذا النحو، فكيف إذا كان من دواعيه الماسة استجارة القدس وأقصاها، والمرابطين في كنفيهما؟!

الله ولي المؤمنين، والظالمون لا مولى لهم:

يسند الدعوة للتضامن الإسلامي الاطمئنان إلى مساندة الله جل في علاه، ورعايته للمتضافرين في إجلاله، والمتناصرين في سبيله، ومن أجل مرضاته سبحانه، فالله يتولى المؤمنين بالحفظ، والرعاية، والحماية في كل آن وحين، ولكن المنافقين والجاهلين لا يفقهون، ولا يقف الذكر القرآني لهذه الولاية عند دعاء المستضعفين، وتوسلهم المذكور في الآية الكريمة سالفة الذكر، بل الشواهد على هذه الولاية كثيرة ودالة، منها قوله تعالى:{اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(البقرة:257)،

فالله يعلن أنه ولي للمؤمنين، والْوَلِي، فعيل، بمعنى فاعل، وأصله من الولي الذي هو القرب، ومنه يقال للمحب المعاون ولي؛ لأنه يقرب منك بالمحبة والنصرة، ولا يفارقك، ومنه الوالي؛ لأنه يلي القوم بالتدبير، والأمر والنهي، ومنه المولى، ومن ثم قالوا في خلاف الولاية العداوة، من عدا الشيء إذا جاوزه، فلأجل هذا كانت الولاية خلاف العداوة. (*)

جاء في أضواء البيان، أن الله جل في علاه صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ولي المؤمنين، وصرح في آية أخرى بأنه وليهم، وأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وليهم، وأن بعضهم أولياء بعض، فقال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}.(المائدة:55)

* التفسير الكبير: 7/ 16

وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(التوبة: 71)

وبيّن سبحانه في موضع آخر أن الولاية تكون للمسلمين دون الكافرين، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}(محمد:11).

والظالمون يتساوقون مع الكافرين في بغض الله لهم، وهو سبحانه حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، فلن ينال الظالمون من الله عوناً، ولا ولاية، ولا نصيراً.

وبين سبحانه في آية البقرة المذكورة آنفاً ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين، وهي إخراجه لهم من الظلمات إلى النور، وبين في موضع آخر، أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه، وذلك في قوله تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ}(يونس:62)

وصرح جل في علاه في موضع قرآني آخر، أنه تعالى ولي نبيه، صلى الله عليه وسلم، وأنه أيضاً يتولى الصالحين، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّـيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}(الأعراف:196) (*)

وأوضح عز وجل في آية أخرى بأن نبيه، صلى الله عليه وسلم، أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وذلك في قوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً}(الأحزاب:6)

---

* أضواء البيان: 1/ 158

ثـمار ولاية الله:

مـن حظـي بولايـة اللـه كفـاه وحمـاه، فالله جـل في عـلاه يقـول: {وَاللـهُ أَعْلَـمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَـى بِاللهِ وَلِيّـاً وَكَفَـى بِاللهِ نَصِيراً}(النساء:45)، ويقول جل شـأنه: {قُـلْ مَن ذَا الَّـذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللـهِ إِنْ أَرَادَ بِكُـمْ سُـوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}(الأحزاب:17) ويقـول عـز وجـل: {وَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللـهِ وَكَفَـى بِاللـهِ وَكِيلاً}(الأحـزاب:3)، ومـن صلـب عقيـدة الإسـلام الإيمـان بـأن اللـه يكفـي مـن ينـصره، مصداقـاً لقولـه تعـالى: {يَـا أَيُّهَـا النَّـبِيُّ حَسْـبُكَ اللـهُ وَمَـنِ اتَّبَعَـكَ مِـنَ الْمُؤْمِنِينَ}(الأنفال:64)، وقولـه جـل شـأنه: {إِنَّ اللـهَ يُدَافِـعُ عَـنِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِنَّ اللـهَ لا يُحِـبُّ كُلَّ خَـوَّانٍ كَفُورٍ}(الحـج:38)، وفي الحديـث القـدسي مـا يؤكـد هـذه المعـاني الجليلـة، فعـن أبي هُرَيْـرَةَ، قـال: قـال رسـول اللـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إِنَّ اللـهَ قـال: مـن عَـادَى لي وَلِيًّا فَقَـدْ آذَنْتُـهُ بِالْحَـرْبِ، ومـا تَقَـرَّبَ إِلَيَّ عَبْـدِي بِـشَيْءٍ أَحَـبَّ إِلَيّ مِمَّـا افْتَرَضْـتُ عليـه، ومـا يَـزَالُ عَبْـدِي يَتَقَـرَّبُ إِلَيّ بِالنَّوَافِـلِ حـتى أُحِبَّـهُ، فـإذا أَحْبَبْتُـهُ كنـت سَـمْعَهُ الـذي يَسْـمَعُ بِـهِ، وَبَـصَرَهُ الـذي يُبْـصِرُ بِـهِ، وَيَـدَهُ الـتي يَبْطِـشُ بها، وَرِجْلَـهُ الـتي يَمْـشِي بهـا، وَإِنْ سَـأَلَنِي لأُعْطِيَنَّـهُ، وَلَـئِنْ اسْـتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّـهُ، ومـا تَـرَدَّدْتُ عـن شَيْءٍ أنـا فَاعِلُـهُ تَـرَدُّدِي عـن نَفْـسِ الْمُؤْمِـنِ؛ يَكْـرَهُ الْمَـوْتَ، وأنـا أَكْـرَهُ مَسَـاءَتَهُ)(*)

ومـا دامـت ولايـة اللـه للمؤمنـين مضمونـة، ونَـصْرُه سـبحانه لمـن نَـصَرَهُ مؤكـداً، فمـن الحماقـة أن يجـبن المؤمنـون عـن حمايـة حياضهـم، والانتصـار لكرامتهـم، ولإخوانهـم، وللمسـتضعفين مـن النـاس، متسـلحين بطاعـة اللـه وتقـواه، وحسـن التـوكل عليـه سـبحانه.

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع

بيت القصيد:

بعد هذا العرض المؤيد بالشواهد الشرعية للزوم التضامن الإسلامي المحفوف برعاية الله وولايته ونصره، فإن للقدس ومسجدها الأقصى حقاً على مسلمي العالم عرباً وعجماً، ينبغي أن يؤدوه لها متضافرين متعاونين، منطلقين من دوافع إيمانية، يمثل مجملها قوله تعالى: {...وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(المائدة: 2)، فالمطلوب التضافر في سبيل تحصيل استحقاقات مشروعة، بوسائل مشروعة، نقية من التخبط والعدوان والظلاميات، المطلوب تضامن شجاع يقوم على مبادئ ربانية، وأحكام شرعية، لتحقيق التحرير المنشود للمستضعفين من الأسرى، المقيدة أيديهم وراء القضبان، أو المقيدة حريتهم بسلطان الغاصبين والظالمين، هم ومقدساتهم وأوطانهم، وشجرهم وحجرهم، ومن المؤكد عقائدياً أن العاملين وفق هذا المطلوب، يختلفون عن المتخاذلين، أو المُخَذِلين عن الانتصار لإخوانهم ومقدساتهم، والله تعالى في محكم التنزيل يقول: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}(الشعراء:227)

الصبر والمصابرة والرباط في الحالة الفلسطينية
عائلة أبو حميد نموذجاً

ورد ذكر الصبر وبيان فضله، والحثّ عليه، والاستعانة به في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، لكنَّ مصطلح المصابرة لم يرد في لفظ القرآن الكريم سوى مرة واحدة، وذلك في خاتمة سورة آل عمران، حيث يقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. (آل عمران:200)

فالله أمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، وكلها تلزم المؤمنين في سلمهم وحربهم، حال ضعفهم وقوتهم، ليظفروا بسعادة الدنيا وعزها ونصرها، وبثواب الآخرة ونعيمها.

معاني الصبر والمصابرة والرباط:

جاء في تفسير أبي السعود، أن الأمر بالصبر في آية آل عمران الكريمة المذكورة آنفاً، يعني الصبر على مشاق الطاعات، وغير ذلك من المكاره والشدائد، و{وَصَابِرُواْ}؛ أي غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر في مواطن الحروب، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر؛ لكونها أشد منه وأشق، و{وَرَابِطُواْ}؛ أي أقيموا في الثغور، رابطين خيلكم فيها، مترصدين للغزو، مستعدين له.[1]

والزمخشري في الكشاف، يقول: اصبروا على الدين وتكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد؛ أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً، والمصابرة باب من الصبر، ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدته وصعوبته.[2]

1. تفسير أبي السعود،136/2 .
2- الكشاف: 1/488-489 .

ويذكر الرازي في تفسيره الكبير أقوال بعض المفسرين في معنى الصبر والمصابرة، فعن الحسن، قال: {اصْبِرُواْ} على دينكم، ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع، و{وَصَابِرُواْ} على عدوكم، ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أحد، وقال الفراء: {اصْبِرُواْ} مع نبيكم و{صَابِرُواْ} عدوكم، فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم، وقال الأصم: لما كثرت تكاليف الله في هذه السورة ـ آل عمران ـ أمرهم بالصبر عليها، ولما كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد في هذه السورة، أمرهم بمصابرة الأعداء.

وأما قوله تعالى: {وَرَابِطُواْ}ففيه قولان:

الأول: أن يربط هؤلاء خيلهم في الثغور، ويربط أولئك خيلهم أيضاً، بحيث يكون كل واحد من الخصمين مستعداً لقتال الآخر.

الثاني: أن معنى المرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة، ويدل عليه وجهان:

الأول: ما روي عن أبي سلمة عبد الرحمن أنه قال: لم يكن في زمن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غزو يرابط فيه، وإنما نزلت هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الثاني: ما روي من حديث أبي هُرَيْرَةَ: حين ذكر (وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ).[1]

ويضيف الرازي، فيقول: «اعلم أنه يمكن حمل اللفظ على الكل، وأصل الرباط من الربط، وهو الشد، يقال لكل من صبر على أمر، ربط قلبه عليه.

وقال آخرون: الرباط هو اللزوم والثبات، وهذا المعنى أيضاً راجع إلى ما ذكر من الصبر، وربط النفس، ثم هذا الثبات والدوام، يجوز أن يكون على الجهاد، ويجوز أن يكون على الصلاة، والله أعلم».[2]

1- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره .

2- التفسير الكبير، 127/9.

منزلة الصبر والمصابرة والرباط في سبيل الله:

لما أمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى في الآية القرآنية الكريمة، التي ختمت بها سورة آل عمران، كان التعقيب بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وفي تفسير السعدي، أنه لا سبيل إلى الفلاح دون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها، أو ببعضها.[1]

والله أمر بالاستعانة بالصبر، في سياق ذكر الشهداء ومقامهم الرفيع عنده سبحانه، وبيان فضل الاسترجاع عند وقوع المصائب وحلول الابتلاء، فقال جل في علاه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}. (البقرة:153 - 157)

فالله مع الصابرين، ويذكر الرازي أن «لا شبهة أن المراد بهذه المعية النصرة والمعونة».[2]

والصابرون، الذين يبادرون إلى الاسترجاع عندما تصيبهم المصيبة، فيقولون: {إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ} يبشرهم الله برحمته ورضوانه وصلواته، وهُمُ الْمُهْتَدُونَ، ففوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهراً، وترك الكراهة باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.[3]

والمصابرة حالة متقدمة من حالات الصبر، فمنزلتها عظيمة، وثوابها جزيل، وبخاصة أنها تتجاوز نطاق الذات إلى مجال قهر الأعداء، والانتصار عليهم بالحق والجَلد، وقوة العدة والمعنويات. وقصة عض الأصابع المشهورة، تصلح مثالاً توضيحياً

1- تفسير السعدي، 163/1.

2- التفسير الكبير، 138/15.

3- التسهيل لعلوم التنزيل، 65/1.

لمعنى المصابرة وأثرها، فيحكى أن أعرابياً قدم إلى عنترة بن شداد، وقال له: بم نلت هذه المنزلة؟

قال عنترة: بالشجاعة ...

قال الأعرابي: وما الشجاعة؟

قال عنترة: الصبر ..

قال الأعرابي: وما الصبر؟

قال عنترة: هاك إصبعي ضعه في فمك، وهات إصبعك وضعه في فمي، وكل منا يعضُّ على إصبع صاحبه. بعد قليل صاح الأعرابي من فرط الألم .. ففك عنه عنترة، وقال: لو لم تصرخ أنت لصرخت أنا. فإنهم يألمون كما تألمون ... فعلينا الصبر والاحتمال (والنصر صبر ساعة)، والفرق بين النصر والهزيمة شعرة .. والمسألة عض على الأصابع ..[1]

والرباط في سبيل الله يفيد في حماية ثغور الأمة والأوطان، ويدفع عن المسلمين الشر والأشرار، وعن فضل الرباط في سبيل الله، يروي سَهْل بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال:(رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا، وما عليها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أو الغَدْوَةُ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها)[2]

الاحتلال الظالم لفلسطين:

يتعرض الفلسطينيون لمشكلات غاية في التعقيد بسبب الاحتلال الجاثم على أرضهم، التي اغتصبت في أعقاب كيد جهات عالمية عدة، وتخطيطها وتآمرها، والأطماع اليهودية بفلسطين ليست عارضة، ولم تأت صدفة، وإنما هي أطماع تنبع من اعتقاداتهم، وتتماشى مع عنصريتهم، وطبيعة أفكارهم الجشعة، فهم يَبخسون الناس أشياءهم،

1- التفسير القرآني للقرآن، الجهاد والحرب النفسية، 380/13.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

ويعـادون غيرهـم مـن الخلـق، بحجـة أنهـم شـعب اللـه المختـار، وفلسـطين لديهـم أرض اللـبن والعسـل، وهـي كذلـك أرض الميعـاد، ويزعـم اليهـود بحـق لهـم في موقـع المسـجد الأقصى، والـذي يسمى لديهـم البيـت، الـذي يزعمـون أن هيكلهم المزعـوم هدم في سـاحاته.

واقتحاماتهـم المتكـررة للمسـجد الأقـصى، ومسـيراتهم صغيرهـا وكبيرهـا في القـدس، والـتي تصـل أبـواب المسـجد الأقـصى، ويقتحـم بعضهـا تلـك الأبـواب، ويجولـون في سـاحات المسـجد الأقـصى برعايـة شرطيـة صارمـة، ويـؤدون بعض طقوسـهم الدينيـة في رحابـه، كل ذلك وغـيره، يشـير بوضـوح إلى أن القـدس والمسـجد الأقـصى مسـتهدفان بالسـيطرة الصهيونيـة، انطلاقـاً مـن خلفيـات عقائديـة واسـتعمارية واسـتحواذية، إضافـة إلى وضـع اليـد عـلى مواقـع دينيـة وأثريـة وتاريخيـة أخـرى مـن أرض فلسـطين ومقدسـاتها وجبالهـا، والـتي يتجسـد كثـير منهـا في مدينـة خليـل الرحمـن، الـتي تـم الاسـتحواذ عـلى الجـزء الأكـبر مـن مسـجدها الإبراهيمـي، إضافـة إلى السـيطرة عـلى مواقـع عـدة، ومهمـة مـن حاراتهـا وأبنيتهـا وشـوارعها، وأزقتهـا، وتضييـق الخنـاق الظالـم عـلى أهلهـا، ولا تقتـصر الأطمـاع الصهيونيـة عـلى مدينـتي القـدس والخليـل، بـل تعـم الأراضي الفلسـطينية كافـة، فكلهـا مسـتهدفة بالعـدوان، وكثـير مـن مواقعهـا تـم وضـع يـد المغتصبـين عليهـا، في بيـت لحـم ونابلـس ورام اللـه وغيرهـا مـن المـدن والقـرى، بمـا فيهـا مـن مواقـع تاريخيـة وتراثيـة، وبعضهـا مقـدس، إضافـة إلى بسـط البنـاء الاسـتيطاني عـلى مسـاحات شاسـعة مـن أرض فلسـطين، وتسـهيل إقامـة اليهـود فيهـا، إضافـة إلى بـذل الجهـود والمـال الوافـر لجلـب اليهـود إلى فلسـطين، لتعزيـز الوجـود الصهيـوني فيهـا، في مقابـل تضييـق الخنـاق عـلى العـرب والمسـلمين، مـن حيـث حـق الإقامـة، وعرقلـة إعطـاء الرخـص للبنـاء، وهـدم البيـوت والمنـازل، وتشريد سـاكنيها، وملاحقـة البدو في مضاربهـم، لمنعهـم مـن البقـاء في أماكـن إقامتهـم، خدمـة للأهـداف الاسـتيطانية التوسـعية،

والخان الأحمر مثلٌ على ذلك، ومحو الأثر العربي والإسلامي من هذه البلاد، وإحلال اليهودي مكانه، حتى إن أسماء الشوارع والحارات والمدن والمواقع يتم تهويدها على قدم وساق، لتحقيق هذه الغاية العنصرية.

وخلال الحروب التي وقعت بين الفلسطينيين والعرب من جانب، والصهاينة المدعومين من قوى عالمية عدة، من جانب آخر، هُجِّر عدد كبير من الفلسطينيين عن أرضهم ومساكنهم، وظهرت مشكلة اللاجئين، الذين هُجرّوا تحت مظلة التخويف، والتهديد، وبث الأراجيف، وكان ذلك بعد عدوان 1948م، وتم الاستيلاء على ما تبقى من الأرض الفلسطينية، فيما باتت تعرف لاحقاً بأرض 67 بعد حرب حزيران 1967م، والمشكلة تفاقمت وتعقدت لوجود جانب عربي صاحب الحق بالأرض، لكنه مشرد عنها، أو مضطهد فيها، أو يعاني الويلات والاضطهاد على مرأى من معظم العرب والمسلمين.

حاجة الفلسطينيين الماسة إلى الصبر والمصابرة والرباط:

صعوبة الحالة الفلسطينية الراهنة ترجع إلى تراكمات، يتحمل وزر معظمها الاحتلال، الذي ترك بصمات سلبية على مجرى حياة الفلسطينيين، على مختلف الأصعدة، الاجتماعية والتعليمية والسياسية والأمنية والمالية والصحية، وهي حالة جديرة بالمعالجة والمتابعة، والصبر والمصابرة يلزمان الفلسطيني؛ ليبقى مرابطاً صامداً، يعشق العيش على تراب وطنه، دون سأَمٍ ولا ضجر، والصبر المطلوب في هذه الحالة يشمل تحمل أذى المحتل واضطهاده، دون رضوخ، ولا رفع الراية البيضاء له، ما يعني لزوم التحلي بالصبر على أذى المحتل، إلى جانب الصبر على صد أذاه بكل السبل والوسائل المتاحة، فالأمر يحتاج إلى صبر فوق صبر، وصبر مع صبر، لتتم الغلبة بالصبر الذي يحتاج إليه المحتل أيضاً، فلا بدّ من زيادة وتيرة الصبر ليصبح مصابرة؛ لأن الغلبة للصابرين، فهذا

هـو المقصـود بالمصابـرة، الـتي تلـزم الفلسـطيني ليغلـب عـدوه بصـبره ورباطـة جأشـه، والفلسـطيني المرابـط عـلى أرض فلسـطين وثغورهـا، يحتـاج إلى الصـبر والمصابـرة حاجتـه إلى الهـواء والمـاء والطعـام، وهـو يعلـم أن عـدوه يعـاني القلـق والخـوف عـلى حـاضره ومسـتقبله، فهـو يتألـم مثلـه، لكـن الفـرق كبـير بـين رجـاء المتألمـين، فالمؤمنـون يرجـون مـا لا يرجـو أعداؤهـم، مـن رحمـة اللـه وغفرانـه وانتصـار حقهـم، واللـه تعـالى يقـول: {وَلا تَهِنُـواْ فِي ابْتِغَـاء الْقَـوْمِ إِن تَكُونُـواْ تَأْلَمُـونَ فَإِنَّهُـمْ يَأْلَمُـونَ كَمَـا تَأْلَمـونَ وَتَرْجُـونَ مِـنَ اللّـهِ مَـا لاَ يَرْجُـونَ وَكَانَ اللّـهُ عَلِيمـاً حَكِيمـاً} (النسـاء:104)

ويبـين جـل في عـلاه أن الأيـام يداولهـا بـين النـاس، فيقـول سـبحانه: {إِن يَمْسَسْـكُمْ قَـرْحٌ فَقَـدْ مَـسَّ الْقَـوْمَ قَـرْحٌ مِّثْلُـهُ وَتِلْـكَ الأيَّـامُ نُدَاوِلُهَـا بَـيْنَ النَّـاسِ وَلِيَعْلَـمَ اللّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَيَتَّخِـذَ مِنكُـمْ شُـهَدَاء وَاللّـهُ لاَ يُحِـبُّ الظَّالِمِـينَ} (آل عمـران: 140)، والمؤمـن المصـاب بجـراح الظالمـين أيـاً كانـت جنسـيته ولغتـه، يجـد لـه أسـوة في الصابريـن الذيـن أصابتهـم الجـراح يـوم أحـد، ولـم يـترددوا في الاسـتجابة لنـداء اللـه ورسـوله، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لهـم بالخـروج لملاقـاة العـدو تحسـباً مـن أن تدفعـه نشـوة مـا آلـت إليـه الأمـور في نهايـات غـزوة أحـد للانقضـاض عـلى معقـل المسـلمين في المدينـة المنـورة، ولـم يطلـب الخـروج سـوى ممـن كانـوا قـد شـهدوا أحـداً، فخرجـوا بجراحهـم، مـا دفـع عدوهـم للتقهقـر تحسـباً مـن أن يكـون مـدد إضـافي قـد جـاء المسـلمين، فأصابهـم الرعـب، الـذي نـصر بمثلـه رسـولهم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، القائـل: (نُـصِرْتُ بِالرُّعْـبِ عـلى الْعَـدُوِّ...) . (*)

وقـد أثـنى اللـه جـل في عـلاه عـلى ملـبي النـداء، رغـم مـا بهـم مـن جـراح، فقـال سـبحانه: {الَّذِيـنَ اسْـتَجَابُواْ لِلّـهِ وَالرَّسُـولِ مِـن بَعْـدِ مَـا أَصَابَهُـمُ الْقَـرْحُ لِلَّذِيـنَ أَحْسَـنُواْ مِنْهُـمْ وَاتَّقَـواْ أَجْـرٌ عَظِيـمٌ}. (آل عمـران:172)

---

* صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وإن كان الفلسطينيون مبتلين باضطهاد هذا العدو الظالم، فهو نفسه ابتلي بظالمين في تاريخه، لكنه لم يعتبر، والله لا يحب الظالمين، وقد حرم الظلم على نفسه وجعله بين خلقه محرماً، مصداقاً لما جاء في الحديث القدسي، الذي يرويه أبو ذَرٍّ عن النبي، صلى الله عليه وسلم- فِيمَا رَوَى عن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ قال:(يا عِبَادِي؛ إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا...)(*)

فالفلسطينيون، أمام قسوة الاحتلال وظلمه، الذي مضت عليه عقود زمنية عجاف، يواجهون صعاباً كثيرة، تصل في كثير من الأحيان إلى زهق الأرواح، وسفك الدماء، وتكبيل الأيدي وراء القضبان، ومع ذلك فهم يتباهون برباطهم وصمودهم، ويرجون من الله ما لا يرجو عدوهم، ويعتزون بكونهم من أهل هذه البلاد، يشربون من مائها، ويأكلون من زرعها، ويتنسمون عبق هوائها، لا تحلو لهم الدنيا عوضاً عنها، لكن عيونهم تبقى ترنو إلى نجدة مَنْ وجبت عليهم نصرة فلسطين وأهلها، من العرب والمسلمين، وذلك حق وواجب، حسب قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً} (النساء:75)

عائلة أبو حميد نموذجاً :

النماذج الفلسطينية المعاصرة للصبر والمرابطة لا تعد ولا تحصى، ومن عبقها يستلهم الناس الدروس تلو الدروس في رباطة الجأش، والإصرار على التشبث بالحق والمبادئ والقيم، ومن أحدث هذه النماذج عائلة (أبو حميد)، التي ابتليت بارتقاء شهيد، والسجن لستة من أبنائها، والحكم على أربعة بالسجن مؤبدات عدة على كل منهم، وهدم بيت هذه العائلة ثلاث مرات، كانت الثالثة منها بتاريخ 2018/12/15م، وربة

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

البيت الصابرة المصابرة والمرابطة أم الشهيد وأسرى المؤبدات، استحقت لقب خنساء فلسطين، وهي أم ناصر أبو حميد، التي تقطن مخيم الأمعري، شمال القدس، جنوب رام الله والبيرة، ردد لسانها الطاهر إثر هدم بيتها: (هدموا بيتي لكنهم لم يستطيعوا أن يهدموا (حيلي)، ولن يكسروا إرادتنا، ولن ننهار ولن نستسلم، ومنزلي فداء لفلسطين ولشعبها)

المتدبر في حال هذه الأسرة وصبرها ورباطة جأشها، يذكر قول الله تعالى المثبت في قرآنه الكريم، حيث يقول عز وجل: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } (الأحزاب:23)، فتحية الإكبار والإجلال والاحترام والتقدير والاعتزاز، ينبغي أن تزجى لهذه العائلة الكريمة، وأمثالها من الأسر الفلسطينية، التي منها يشع الأمل، وتتعزز الهمم، ويتجدد الإصرار على التمسك بفلسطين ومقدساتها، والمبادئ الراسخة التي يتنافى معها التفريط بأي جزء من فلسطين لصالح أعدائها، الذين اغتصبوا أرضها، وعاثوا فيها فساداً وسفكاً للدماء.

فلسطين أسيرة تنتظر التحرير:

فلسطين وأهلها ومقدساتها تقبع تحت نير الاحتلال البغيض، الذي أمعن في سلب أراضيها، وتدنيس مقدساتها، وسفك دماء أبنائها، دون أن يفرق بين صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم، ولم يفرق بين ألوانهم وفصائلهم وأسمائهم وألقابهم وفقرائهم وأغنيائهم، فالكل منهم مستهدف لآلة بطشه، وحراب عدوانه، وهي على هذه الحال تئن، شاكيةً لربها ظلم الغريب وعدوانه، وجفاء القريب وخذلانه، راجية المدد الإلهي، وحق لها أن ترجوه، ولن يُخيب رجاءها بإذنه وعونه، فهو سبحانه على كل شيء قدير، وأحلك ساعات الليل آخرها، لكنها تُتبع بنور الفجر، ثم بشعاع الشمس

الساطع، وفلسطين التي عانت الأمرَّين وأهلها من ظلم المعتدين وجرائمهم، لن يطول ليلها؛ لأنها على موعد مع النصر القريب، تحقيقاً لوعد الله الحق، حيث يقول جل شأنه: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (غافر:51)، ويقول عز وجل: {وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}. (الصف: 13)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، نبه إلى أن طائفة من المؤمنين ستبقى ظاهرة بما معها من الحق، لا يضرها من خالفها أو خذلها، إلى يوم القيامة، فقال عليه الصلاة والسلام: (لَنْ يزالَ قوم من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الناس، حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).[1]

ويقول عليه الصلاة والسلام: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ).[2]

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لفلسطين التحرير، وأن ينصر أهلها الصابرين المصابرين المرابطين، بنصره المؤزر الذي يعزهم، ويذل عدوهم، ويدفع الشر والتدنيس عن مقدساتها، وما ذلك على الله بعزيز.

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

2- التخريج نفسه.

ذكرى النكبة
واستهداف وكالة غوث اللاجئين

يطلق العرب والفلسطينيون على هزيمة عام 1948م، مصطلح النكبة التي يوافق تاريخها السنوي حسب اليوم والشهر، الخامس عشر من شهر أيار، ويستذكرون فيه ذكرى الاحتلال الكبير للأرض الفلسطينية، وتهجير أهلها منها، حيث تركوا أرضهم ومساكنهم ومزارعهم فيها، هاربين بجلودهم من كابوس الإرهاب الفظيع الذي مورس ضدهم، فكانت مذابح الدمار الشامل، مثل مذبحة دير ياسين، وإشاعة التخويف بمثلها، عاملاً مهماً من عوامل التهجير القسري، الذي بدأت به مشكلة اللاجئين، الذين تشتتوا في مناطق ما صار يعرف بالضفة الغربية وغزة، في الداخل، وفي مناطق الشتات في بعض الدول العربية، وبخاصة دول الجوار؛ الأردن وسوريا ولبنان، التي تركزت فيها إقامة اللاجئين المهجرين في مخيمات أقيمت خصيصاً لإيوائهم.

وفي الوقت الذي سيذكر فيه العرب والفلسطينيون هذه الكارثة البشعة التي حلت بهم، وبديارهم وبأرضهم المباركة، فإن عدوهم اللدود الذي قام بالفعل المضاد، صاحب الجرائم البشعة، والمجازر الدموية، والحيل الكيدية، يقيم احتفالات النصر، بمناسبة ذكرى إقامة كيان الاحتلال الظالم، الذي حل فيه الغاصبون محل المهجرين، ومن ثم انطلقوا للتوسع في بسط النفوذ، وابتلاع المزيد من الأرض الفلسطينية، وقهر المزيد من أهلها، على مسمع العالم الشاهد الغائب ومرآه، على وقوع جرائم الإرهاب والاحتلال المسلح للأرض العربية الفلسطينية.

ومناسبة ذكرى النكبة هذا العام(2018) في أخطبوط جديد، ومذاق غاية في العلقمة والظلامية، حيث لم يكتف أصحاب القوى الطاغية في العالم بالسكوت عن جرائم الاحتلال وبطشه وإرهابه وظلمه، وإنما كشفوا عن مزيد من أنياب البجاحة، معلنين عن تبني مواقف المحتل ومنهجه وغطرسته، فلم يكتفوا بالشيطنة المتمثلة بالسكوت عن الحق، بل مارسوا الظلم بأيديهم ، وأيدوه بقوتهم وقراراتهم ومالهم وبوقاحتهم وتحيزهم ، ومن أواخر هذه الممارسات الظالمة، السعي الحثيث لدفن قضية اللاجئين وتجاوزها، والتغافل عن حقوق أهلها بالعودة إلى حيث اضطهدوا، وأرعبوا وأرهبوا.

حجب الدعم المالي عن وكالة غوث اللاجئين:

تقدم بعض دول العالم دعماً مالياً لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، تحت مظلة منظمة الأمم المتحدة، وينطلق هذا الالتزام بهذا الدعم من الإقرار بحق هؤلاء اللاجئين بالعيش، وتيسير أمور حياتهم الصحية والتعليمية والمعيشية، وكخطوة تهدف إلى القفز عن قضية اللاجئين وتصفيتها، قبل إحقاق الحقوق لأصحابها، بادرت جهات داعمة للوكالة بخفض نسبة مساهمتها المالية في دعم موازنتها، لغايات مشبوهة، ومن تداعيات ذلك الضغط على بعض الجهات المتأثرة بتوجهات من هذا القبيل، لعمل الشيء نفسه، وبالتالي فإن التأثير السلبي لهذه الخطوات على مستوى الخدمات التي تقدم للاجئين بات أمراً متوقع الحصول، إذا لم يهب أصحاب الثروات والأموال من أبناء الجلدة والدين والضمير اليقظ، لمنعه ومحو آثاره، ليكتب الله لهم بمثل هذه الهبة عزاً يذكره التاريخ لهم في صفحاته المشرقة، وإن لم يفعلوا فالويل لهم، والخزي والعار وسامهم، والله في الحالين يجزي المحسن بالإحسان، والمقصرين مع سبق الإصرار سيجزيهم ما يستحقون من سوء العاقبة، وهو القائل جل شأنه: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ* وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى

الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ* يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (غافر:17 - 20)

لا وألف لا للتجويع بقصد التركيع:

يلزم التنبيه دائماً إلى أن الضغط المالي الابتزازي بقصد التركيع، وحمل المعوزين على رفع الرايات البيضاء، معلنين الاستسلام والرضوخ للضغوط، هذا يمكن أن يحدث، لكن ليس في الأحوال كلها، ولا مع الناس جميعهم، فالذين يؤمنون بأن الحرة تموت ولا تأكل بثديها، وأن الرّزاق هو الله، يرزق من يشاء، ويمنع الرزق عمن يشاء، مثل هؤلاء المؤمنين، لن يرفعوا الرايات البيضاء مستسلمين، بل سيعلنونها صبراً ومصابرة ورباطاً، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، لأنهم يفقهون بوعيهم ووجدانهم معنى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة:28)

وفي التفسير الكبير، أن من الشُبه التي وقعت في قلوب القوم، أنه صلى الله عليه وسلم، لما أمر علياً أن يقرأ على مشركي مكة أول سورة براءة، وينبذ إليهم عهدهم، وأن الله بريء من المشركين ورسوله، قال أناس: يا أهل مكة ستعلمون ما تلقونه من الشدة لانقطاع السبل، وفقد الحمولات، فنزلت هذه الآية لدفع هذه الشبهة، وأجاب الله تعالى عنها بقوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً}؛ أي فقراً وحاجة، {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ}. (*)

ويبين الرازي في موضع آخر من تفسيره الكبير، أن العيلة الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، والمعنى إن خفتم فقراً بسبب منع الكفار، {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} وفيه مسألتان:

---

* التفسير الكبير، 16 /20.

المسألة الأولى، ذكروا في تفسير هذا الفضل، وجوهاً:

الأول، قال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وحنين، وحملوا الطعام إلى مكة، وكفاهم الله الحاجة إلى مبايعة الكفار.

والثاني، قال الحسن: جعل الله ما يوجد من الجزية بدلاً من ذلك، وقيل: أغناهم بالفيء.

الثالث، قال عكرمة: أنزل الله عليهم المطر، وكثر خيرهم.

المسألة الثانية، قوله: {فَسوفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}إخبار عن غيب في المستقبل، على سبيل الجزم، في حادثة عظيمة، وقد وقع الأمر مطابقاً لذلك الخبر، فكان معجزة.

ثم قال تعالى: {إِن شَاء} ولسائل أن يسأل، فيقول: الغرض بهذا الخبر إزالة الخوف بالعيلة، وهذا الشرط يمنع من إفادة هذا المقصود، وجوابه من وجوه:

الأول، أن لا يحصل الاعتماد على حصول هذا المطلوب، فيكون الإنسان أبداً متضرعاً إلى الله تعالى في طلب الخيرات، ودفع الآفات.

الثاني، أن المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الأدب، كما في قوله: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح:27)

الثالث، أن المقصود التنبيه على أن حصول هذا المعنى لا يكون في الأوقات كلها، وفي الأمور جميعها؛ لأن إبراهيم، عليه السلام، قال في دعائه: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ} (البقرة: 126)

وكلمة (من) تفيد التبعيض، فقوله تعالى في هذه الآية: {إِن شَاء}المراد منه ذلك التبعيض.

ثم قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}؛ أي عليم بأحوالكم، وحكيم لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب، والله أعلم. (*)

---

* التفسير الكبير، 16/ 22 - 23.

كلمة لأبناء الجلدة:

ليعلم أبناء الجلدة أن الله تعالى وصف المتخاذلين المنافقين من أشباه بعضهم، ممن انخرطوا في صفوف الضاغطين على جراح المنكوبين ليستسلموا للظالمين وخططهم الجائرة، المنحازة للمحتلين الغاصبين لحقوقهم المشروعة، فقال جل شأنه: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} (المنافقون:7)

ولنزول هذه الآية الكريمة مناسبة، يحدث عنها زَيْد بن أَرْقَمَ، رضي الله عنه، قال: (كنت مع عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، يقول: {لَا تُنْفِقُوا على من عِنْدَ رسول اللَّهِ حتى يَنْفَضُّوا...} وقال أَيْضًا: {لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ...} فَذَكَرْتُ ذلك لِعَمِّي، فذكر عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَرْسَلَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا ما قالوا، فَصَدَّقَهُمْ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لم يُصِبْنِي مِثْلُهُ قط، فَجَلَسْتُ في بَيْتِي، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إذا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...} إلى قَوْلِهِ: {هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا على من عِنْدَ رسول اللَّهِ...} إلى قَوْلِهِ: {لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ...} فَأَرْسَلَ إِلَيّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ، ثُمَّ قال: إِنَّ اللَّهَ قد صَدَّقَكَ) (*)

فهل يتعظ المجازفون بمصيرهم وعاقبة أمرهم مما جرى للمُخَذِلين من قبل، الذين حرضوا على منع العون والمدد المادي عن المسلمين، وتوعدوهم بالشر، فوصفوا بأنهم لا يفقهون، ولا يعلمون، ولن يكون السائرون على نهجهم عالمين ولا ناجين، إلا إذا تابوا وأنابوا إلى الله، وختموا أعمالهم بالصالحات، ولم يموتوا إلا وهم لله مطيعون، ولإخوانهم مناصرون، وبحقهم التليد متشبثون.

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المجادلة، باب {اتخذوا أيمانهم جنة}(المجادلة: 16).

اليقين بتحقق العودة للاجئين:

في الأحـوال كلهـا ينبغـي أن لا يغيـب عـن بـال المؤمـن باللـه ربـاً قـادراً مريـداً، بأنـه سـبحانه سـيعيد الأمـور إلى نصابهـا الصحيـح، وسـيفرح المؤمنـون بنـصر اللـه، كمـا فـرح سـلفهم بنـصر الـروم في بضـع سـنين، فالحـق لـن يبقـى سـليباً، طـال الزمـان أم قـصر، وموعـد لاجئينـا مـع العـودة قريـب، مهمـا أحبكـت دونـه الحيـل والمكائـد، ولـن تـدوم النشـوة لظالـم، وسـيأتي اليـوم الـذي يعـود فيهـا ورثـة مفاتيـح البيـوت والمسـاكن إليهـا، منتصريـن، غانمـين، وإن غـداً لناظـره قريـب، وموعدهـم الصبـح، أليـس الصبـح بقريـب؟!

وضرب اللـه مثـلاً للعـودة الناجحـة المكللـة بالرعايـة الربانيـة، بالوعـد الإلهـي الـذي تحقـق لنبيـه الكريـم محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، حيـث جـزم اللـه جـل في عـلاه بأنـه راده إلى معـاد، فقـال عـز وجـل: {إِنَّ الَّـذِي فَـرَضَ عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ لَـرَادُّكَ إِلَى مَعَـادٍ قُـل رَّبِّي أَعْلَـمُ مَـن جَـاءَ بِالْهُـدَى وَمَـنْ هُـوَ فِي ضَـلالٍ مُّبِـينٍ} (القصـص:85)

عن ابن عَبَّاسٍ: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} قال: إلى مَكَّةَ. [1]

وورد في التفسـير، أن معـنى {فـرض عليـك القـرآن}؛ أي أنزلـه عليـك، وأثبتـه، وقيـل: المعـنى أعطـاك القـرآن، والمعـنى متقـارب، وقيـل: فـرض عليـك أحـكام القـرآن، فهـي عـلى حـذف مضـاف، {لَـرَادُّكَ إِلَى مَعَـادٍ} المعـاد الموضـع الـذي يعـاد إليـه، فقيـل يعـني مكـة، والآيـة نزلـت حـين الهجـرة، ففيهـا وعـد بالرجـوع إلى مكـة وفتحهـا، وقيـل يعـني الآخـرة، فمعناهـا إعـلام بالحـشر، وقيـل يعـني الجنـة. [2]

فالرسـول محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لمـا نزلـت عليـه هـذه الآيـة الكريمـة المتضمنـة وعـداً بالعـودة إلى موطنـه الـذي هاجـر منـه -بنـاء عـلى أحـد الآراء المفـسرة للمـراد مـن الـرد إلى معـاد، الـوارد في الآيـة الكريمـة- كان مهاجـراً مـن بلـده وموطنـه، وقـد تحقـق هـذا

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة القصص، باب {إن الذي فرض عليك القرآن}(القصص: 85)
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 3/112

الوعد الكريم في زمن قريب منه، فتغيرت الظروف والأحوال، وستتحقق عودة اللاجئين الفلسطينيين بإذن الله وحوله وقوته، وما ذلك على الله بعزيز، بل هو يتماشى مع سننه عز وجل، الذي جعل الأيام دولاً بين الناس، مصداقاً لقوله تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران:140)

للظالم يوم:

ينبغي للإنسان العاقل مهما كانت حاله أن يدرك أنه لن يفلت من جبروت الله وحسابه العسير إن انحرف عن جادّة الحق، وتغطرس، وازداد غياً، فللظالم يوم، طال به الطغيان أو المقام أم قصر، ومن وعيد الله للظالمين، قوله تعالى: {...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}(الشعراء: 227)

وإن الذي رد النبي محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة فاتحاً، سيعيد اللاجئين المؤمنين بحقهم بالعودة، المعتصمين بالله، والعاملين بما يحب ويريد، سيردهم من حيث أُخرجوا، رافعي الهامات، يرددون قول الله الذي ردده من قبلهم، أسوتهم، صلى الله عليه وسلم، يوم الفتح الأعظم: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} (الإسراء:81)

سائلين الله العلي القدير أن يُعجِّل بقدوم هذا اليوم، الذي تُكشف فيه الغمة، ويُرفع فيه المقت والغضب عن عباده المستضعفين، الذين زاغت أبصار بعضهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، وظنوا بالله الظنونا، فما لنا في الشدائد والرخاء من الله سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نصرة الأسرى ومواساة ذوي الشهداء بين الواقع والمأمول

آلاف الأسرى والسجناء من أبناء الشعب الفلسطيني المرابط على ثغر مهم من ثغور العرب والمسلمين، يقبعون في غياهب سجون المحتل الغاصب لأرضهم، وحرياتهم، ومقدساتهم، منهم أصحاب أحكام بمؤبدات، وبعضهم ينتظرون الأحكام، وبعضهم مسجونون بموجب نظام الأحكام الإدارية، وهو نظام موروث عن سلطات الاحتلال البريطانية، التي سبق أن احتلت هذه البلاد، وعاثت فيها الفساد، فاستغلت سلطات الاحتلال الإسرائيلي هذا النظام وما شابهه لخدمة منهجها القمعي الاستبدادي، متذرعة بأنها بذلك تستند إلى قوانين وأنظمة، يخجل الجور من فداحتها، ومما يزيد الأسرى وذويهم ألماً تراجع وتيرة التعاطف الظاهر معهم، وبهاتة صور مساندتهم، من ربعهم وشعبهم، الذين كان من أسباب تضحياتهم وما هم فيه من معاناة وسلاسل، أنهم أعلنوها مواقف جريئة شجاعة من أجل كرامة شعبهم وحرية أوطانهم، وتحرير مقدساتهم، ورفض الظلم والقهر الواقعين على شيبهم وشبانهم، رجالهم ونسائهم، فدفعوا الثمن غالياً من حريتهم، وفراق أحبتهم، وتعريض أمهاتهم وآبائهم وأزواجهم وفلذات أكبادهم للمضايقات، وضنك العيش، بسبب أنهم يصلون إلى أولئك الأبطال بصلة قربى، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشهداء والأسرى الأكرمون منا:

الذي يقدم لدينه ومجتمعه ووطنه أكثر هو المستحق للفضل الفائق، هذا معيار سويّ عدلٌ، مقر من رب السماوات والأرض رب العالمين، حيث يتلي سبحانه

خلقه، لغاية فرز أصحاب الفضل منهم وتمحيصهم، فيقول جل شأنه: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً..}. (هود: 7)

فالحكمة التي خلق الله الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، ولم يقل أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في هذه الآية الكريمة، وقال في سورة الملك: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} (الملك: 2)، وفي سورة الكهف يقول جل ذكره: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} (الكهف: 7)

ولا شك في أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى؛ أي يختبر بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار.(*)

وإن من أبرز السبل لنيل النجاح بل التفوق في العمل، تقديم التضحيات في سبيل رضوان الله، حيث بشر سبحانه من يسلك هذا الدرب المنير، بالفوز المبين، فقال جل ذكره: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً} (النساء: 95)

والشهداء ومن ورائهم الأسرى هم المفضلون، لما قدموا من تضحيات بالأنفس والأموال في سبيل الله، فهم الفائزون بالأجر العظيم، والدرجات العُلا، والمقام الرفيع، حتى إن الناس يموتون والشهداء يبقون بعد الرحيل عن هذه الغابرة، أحياء عند ربهم يرزقون، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمران: 169)

ونهى الله جل ذكره عن إطلاق وصف الموت على الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم، من حيث لا يشعر الناس، ولم تكن مصادفة أن يتبع الله هذا البيان القرآني، بتقرير

* أضواء البيان: 2/ 171

حقيقة وقوع الابتلاء لعباده بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، مع الوعد بالبشرى للصابرين، الذين يصبرون ويحتسبون ويسترجعون، ومن بشراهم أن عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأنهم مهتدون، فقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}. (البقرة:154 - 157)

شريحة الشهداء والأسرى المحتسبين، الذين قدموا الغالي والنفيس من أجل مرضاة ربهم، هل يشك مؤمن في أنهم من أولئك الموعودين بهذه البشرى الربانية، ويا لها من بشرى، وهل بعدها ريب في أن الموعودين بها هم الأكرمون منا، والأعز فينا؟! وبخاصة أنهم ما قدموا تضحياتهم كرهاً في دنياهم، ولا يأساً من صعوبة معيشتهم، وإنما قصدوا رضا الله فأرضاهم، وهو القائل جل شأنه: {قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (المائدة: 119)

نعم؛ لقد وعد الله الصابرين المحتسبين أن يجزيهم أحسن الجزاء، في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.(النحل: 96) وقال جل ذكره: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر: 10)

وكأن الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود عبر بجلاء عن حال الأسرى والشهداء وتطلعاتهم، حين أنشد قائلاً:

سَأَحْمِلُ رُوحي على راحَتي ... وأُلقي بِها في مَهاوي الرَّدى

فإمّا حَياةٌ تَسُرُّ الصَّديقَ ... وإِمّا مماتٌ يُغيظُ العِدى

لَعمرُكَ إنّي أرى مَصرَعي	وَلَكِنْ أَغُذُّ إليه الخُطى
أرى مَصرعي دُونَ حَقّي السليب	ودُونَ بِلادي هُو المُبتَغى
لَعَمْرُكَ هذا مَماتُ الرِّجالِ	ومَنْ رَامَ مَوتاً شَريفاً فَذا
فَكَيفَ اصطِباري لِكَيدِ الحَقودِ	وكَيفَ احتِمالي لِسَومِ الأذى
بِقَلبي سَأرمي وُجوهَ العِدا	فَقَلبي حَديدٌ وناري لَظى
وَأحمي حِياضي بِحَدِّ الحُسامِ	فَيَعلَمُ قَومي بِأنّي الفتى

رفض موادة من حاد الله ورسوله:

الأسرى والشـهداء رفضـت قلوبهـم مـوادّة أعـداء اللـه، فأبـوا أن يعطـوا الدنيـة في دينهـم، فاسـتحقوا رضـوان اللـه وجناتـه، الـتي وعدهـا اللـه عبـاده الصالحـين أمثالهـم، فقـال عـز وجـل:{لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللَّـهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُـوا آبَاءهُـمْ أَوْ أَبْنَاءهُـمْ أَوْ إِخْوَانَهُـمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُوْلَئِـكَ كَتَـبَ فِي قُلُوبِهِـمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُـم بِـرُوحٍ مِّنْـهُ وَيُدْخِلُهُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـن تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُـمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ أُوْلَئِـكَ حِـزْبُ اللَّـهِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللَّـهِ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ} (المجادلـة: 22)

وكيـف يمكـن لمؤمـن أن يـوادد مـن قـضى اللـه أن يكونـوا في الأذلـين، إذ يقـول جـل شـأنه: {إِنَّ الَّذِيـنَ يُحَـادُّونَ اللَّـهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَئِـكَ فِي الأَذَلِّـينَ} (المجادلـة: 20)

الأعـداء المتغطرسـون يُكنـون للإسـلام وأمته ومقدسـاته العـداء والبغضـاء، ويُحيكون المكائـد تلـو المكائـد، والأسرى والشـهداء يَتصـدرون الثلـة المؤمنـة، الـتي عرفـت حقيقـة هـذه المكنونـات وترجماتهـا عـلى أرض الواقـع، فأبـوا أن يتخذوهـم بطانـة، التزامـاً بالنهـي الربـاني عـن هـذه الجريمـة النكـراء، حسـب مـا جـاء في قولـه تعـالى: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لاَ تَتَّخِـذُواْ بِطَانَـةً مِّـن دُونِكُـمْ لاَ يَأْلُونَكُـمْ خَبَـالاً وَدُّواْ مَـا عَنِتُّـمْ قَـدْ بَـدَتِ الْبَغْضَـاء مِـنْ أَفْوَاهِهِـمْ وَمَـا تُخْفِـي صُدُورُهُـمْ أَكْـبَرُ قَـدْ بَيَّنَّـا لَكُـمُ الآيَـاتِ إِن كُنتُـمْ تَعْقِلُـونَ}. (آل عمـران: 118)

والشهداء والأسرى يختلفون بهذا عن المنافقين، الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، فيصرون على موادّة الأعداء بذريعة الخوف من بطشهم، أو تحسباً من تقلب الظروف والأحوال لصالح الأعداء، والله تعالى يقول فيهم: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} (المائدة: 52)

لن يَتِرَهمُ الله أعمالهم:

الشهداء والأسرى من عباد الله الذين فقهوا أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، ومتاع زائل، بل هي متاع الغرور، فسارعوا إلى مرضاة ربهم، غير آبهين بحياة محفوفة بالذل والقهر والهوان، وطلبوا المعالي عند صاحب الأمر في السموات والأرض والملكوت، راجين أن يكون لهم مَقْعَد صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ، فاستجابوا لله لما نهاهم عن الجزع والوهن، معتقدين أنه سبحانه لن يترهم أعمالهم، أي لن ينقص من ثواب أعمالهم التي احتسبوها لوجهه الكريم شيئاً، وهو القائل جل ذكره: {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} (محمد:35 - 36)، وورد تأكيد الوعد بحفظ أجور الأعمال الصالحة وثوابها، في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، التي منها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} (الكهف: 30)

والمثوبة المنتظرة عظيمة، ورب الكعبة، إنها الخلود في جنات عدن، مصداقاً لوعده سبحانه: {جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} (البينة: 8)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، أفصح عن مراتب الشهداء، حين سألته أمٌّ أحدهم، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أَنَسٍ: (أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله

عليه وسلم، وقد هَلَكَ حَارِثَةُ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قد عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ من قَلْبِي، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ لم أَبْكِ عليه، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى ما أَصْنَعُ، فقال لها: هَبِلْتِ، أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ في الْفِرْدَوْسِ الأعلى، وقال: غَدْوَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ أو رَوْحَةٌ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحدِكُمْ، أو مَوْضِعُ قَدَمٍ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً من نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرض لَأَضَاءَتْ ما بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ ما بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا يَعْنِي الْخِمَارَ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها) (*)

فيا لها من جوائز قيمة حقيقية، تفوق الأرض وما عليها وزينتها، وعدها الله الذين عرفوا طريقهم إليه سبحانه، فأحسنوا العمل، وسددوا وقاربوا، وحدقت عيونهم تجاهه، ولم يترددوا في تطويع نفوسهم وترويضها في حب الله ودينه ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وجعلوا من الذين بايعوه تحت الشجرة أسوة لهم، بعد أن علموا ما أعد الله لهم من العزة والنصر والمثوبة، مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح: 18)

وكانت لهم أسوة حسنة كذلك بأصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، الغر الميامين، الذين عرفوا قدر الدنيا من الآخرة، فاختاروا عز الدارين، كصاحب التمرة، وقول بخ بخ، حسب ما جاء في الحديث الصحيح، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: (بَعَثَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عِيرُ أبي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وما في الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: لا أَدْرِي ما اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قال: فَحَدَّثَهُ الحديث، قال: فَخَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَتَكَلَّمَ، فقال: إِنَّ لنا طَلِبَةً، فَمَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ في ظُهْرَانِهِمْ

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.

فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فقال: لا، إلا من كان ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَصْحَابُهُ حتى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إلى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلى شَيْءٍ، حتى أَكُونَ أنا دُونَهُ، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ، قال: يقول عُمَيْرُ بن الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ، قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ، قال: لَا، والله يا رَسُولَ اللَّهِ، إلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِهَا، قال: فَإِنَّكَ من أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ من قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتِي هذه، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قال: فَرَمَى بِمَا كان معه من التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتى قُتِلَ) [1]

مساندة فعاليات الأسرى وذويهم:

من أبسط حقوق الأسرى والشهداء وأهليهم وذويهم على أمتهم وقومهم، أن يساندوهم بما أوتوا من جهد وبلاء وفعاليات ومؤازرة ومؤانسة حسنة، بمناسبة وغير مناسبة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر بالعمل على فك قيد الأسرى، فقال: (فُكُّوا العَانِيَ، يَعْنِي: الأَسِيرَ، وَأَطْعِمُوا الجَائِعَ، وَعُودُوا المَرِيضَ)[2]، ولم يغفل عليه الصلاة والسلام عن الأسرى، والعمل على حسن خلاصهم، حتى وهو يصلي الفريضة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنْ صَلاَةِ العِشَاءِ قَنَتَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ) [3].

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.
3. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين.

مما يدل على لزوم أن تبقى قضية الأسرى في وجدان المؤمنين، وفي صدارة اهتمامهم، مسؤولين ومؤسسات، وأهلاً وجيرانَ وأمَّةً، لا من قبيل التفضل عليهم بذلك، بل انصياعاً للواجب الديني والأخلاقي، وواجب الصلة والقربى، وواجب المجازاة والمقابلة لبعض الفضل والإحسان الذي انبرى إلى تقديمه، وسبق إليه أولئك الأخيار، فهم أصحاب السبق بالتضحية والفداء، من أجل أمتهم، التي من العار بمكان عظيم أن تنساهم، أو تغفل عن مناصرتهم ومؤازرتهم، على وجه نقي من رائحة التقصير ومعاني الخذلان، وبخاصة حين يمارسون إضراباتهم الاحتجاجية على بقائهم في الأسر، وجور القضاء فيهم، والتعسف في حجزهم إدارياً أو توقيفاً دون محاكمات ولا اتهامات معلنة، وعلى سوء معاملتهم وعلاجهم، والبطش بزائريهم من الأهل؛ آباء، وأمهات، وأزواجاً، وأبناء.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين أفتى بمشروعية الإضرابات التي يخوضها الأسرى للغايات المذكورة، ما داموا لم يجدوا وسيلة غيرها لتحصيل حقوقهم، ومن بين الأدلة الشرعية التي استند إليها المجلس في هذا القرار الفقهي، قوله تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (التوبة: 120)

فالله توج أعمال الصابرين المحتسبين من أجله وفي سبيله، بالعمل الصالح وحفظ المثوبة، والأسرى يشملهم هذا الوعد الرباني، بإضرابهم المشروع الذي تصيبهم فيه شدة العطش، وينتابهم الإعياء والتعب، وتلحق بهم المجاعة الشديدة، ولا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ سجّانهم، مكبل أيديهم، ومقيد حريتهم، احتساباً لوجه الله، وعملاً لرضاه سبحانه، فهم يجابهون سلاسل سجّانيهم وحرابهم وأسلحتهم الفتاكة، بجوع

بطونهم، وعطش أجسادهم، وكانت لهم جولات مشهودة على هذا الصعيد، توجت بانتصارات حققت بعض المرجو، في زمن طال فيه الليل، وندرت فيه الأنوار، لكن الأسرى لم يفقدوا الأمل، وما زال لديهم يقين بأن الفجر آت آت، يردد لسانهم وحالهم، قول أبي القاسم الشابي:

وَلا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي   وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر

ومن قبله وبعده، تردد حناجرهم عن يقين يملأ قلوبهم قول الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} (البقرة: 214)

فنصر الله قريب قريب، ولكن الناس يستعجلون، ولا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يساوره شك أو ريبة في حقيقة تحقق النصر المبين للإسلام والمسلمين وحتميته، ولو بعد حين، كيف لا؟! ورب العزة والملكوت قطع وعداً بذلك، فقال عز وجل: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (المجادلة: 21)

فالأسرى تتعزز معنوياتهم، ويقوى صمودهم، حين يجدون ناسهم معهم، وهم يتابعون الأخبار على هذا الصعيد، ومن العار أن تفتر الهمم تجاههم، وأن يتجاهل كثير من أبناء قراهم ومدنهم ومخيماتهم معاضدتهم، وتهنئتهم بالإفراج حين يفرج عنهم، كما كان عليه الحال في العقود الخالية.

ومن أبرز المطلوب القيام به على صعيد نصرة الأسرى، الاستجابة إلى مطالبتهم الحثيثة بالوحدة، ونبذ الفرقة والانقسام والتشرذم، لأنهم خير من يعي مرامي قول الله تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: 46) فالانشغال بترهات المخاصصات، والركض وراء نيل الحظوظ الشخصية أو الفئوية، يستثمرها المتربصون بنا جميعاً وبأرضنا ومقدساتنا، ليلتهمونا شيئاً

فشيئاً، حتى يقول آخرنا ما قاله، آخر الثيران الثلاثة الذين التهم الأسدُ الأبيضَ منهم أولاً، وقد روي: (أن علياً، رضي الله عنه، خَطَبَ يَوْمًا، فَقَامَ الْخَوَارِجُ فَقَطَعُوا عليه كَلامَهُ، قال: فَنَزَلَ، فَدَخَلَ وَدَخَلْنَا معه، فقال: أَلاَ أني إِنَّمَا أُكِلْت يوم أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ، ثُمَّ قال: مَثَلِي مَثَلُ ثَلاَثَةِ أَثْوَارٍ، وَأَسَدٍ اجتمعن في أَجَمَةٍ أَبْيَضَ وَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، فَكَانَ إذَا أَرَادَ شيئاً مِنْهُنَّ اجتمعن (اجتم)، فامتنعن منه، فقال لِلأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ إنه لاَ يَفْضَحُنَا في أَجَمَتِنَا هذه إلاَ مَكَانُ هذا الأَبْيَضِ، فَخَلِّيَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، حتى آكُلَهُ ثُمَّ أَخْلُو أنا وَأَنْتُمَا في هذه الأَجَمَةِ، فَلَوْنُكُمَا على لَوْنِي وَلَوْنِي على لَوْنِكُمَا، قال: فَفَعَلاَ، قال: فَوَثَبَ عليه، فلم يُلْبِثْهُ أَنْ قَتَلَهُ، قال: فَكَانَ إذَا أَرَادَ أَحَدُهُمَا اجْتَمَعَا فَامْتَنَعَا منه، وقال لِلأَحْمَرِ: يا أَحْمَرُ إنه لاَ يُشْهِرُنَا في أَجَمَتِنَا هذه، إلاَ مَكَانُ هذا الأَسْوَدِ، فَخَلِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، حتى آكُلَهُ، ثُمَّ أَخْلُو أنا وَأَنْتَ، فَلَوْنِي على لَوْنِك، وَلَوْنُك على لَوْنِي، قال: فَأَمْسَكَ عنه، فَوَثَبَ عليه، فلم يُلْبِثْهُ أن قَتَلَهُ، ثُمَّ لَبِثَ ما شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قال لِلأَحْمَرِ يا أَحْمَرُ، إنِّي آكُلُك، قال: تَأْكُلُنِي، قال: نعم، قال: أَمَا لاَ فَدَعْنِي حتى أُصَوِّتَ ثَلاَثَةَ أَصْوَاتٍ، ثُمَّ شَأْنُك بِي، قال: فقال: أَلاَ إنِّي إنَّمَا أُكِلْت يوم أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ، قال: ثُمَّ قال عَلِيٌّ: أَلاَ وَإِنِّي إنَّمَا وُهِبْت يوم قُتِلَ عُثْمَانُ) (*)

همسات ختامية:

ما ورد آنفاً ليس سوى بعض ما تيسر قوله تجاه هذه الشريحة الكريمة بل الأكرم منا جميعاً، الشهداء والأسرى، لا نظن أنها تفيهم بعض حقهم علينا، وإنما هي تذكرة متواضعة، عسى أن ينفع الله بها قلب من يقرأها وعقله وفكره، ليستقيم سلوكه على الوجه الذي يرضي الله تعالى، فهي دعوة موجهة للجميع، كل في موقعه وعمله وجهده، وفي ختام هذه الوقفة الأدبية التي تمحور لبها حول ترجمة الاعتراف بفضل الأسرى والشهداء بما يسهم في مؤازرتهم وذويهم، ورعاية أسرهم وأبنائهم، فحقهم علينا كبير، وواجب الأمة برمتها تجاههم ينبغي أن يكون عظيماً، نود إطلاق ثلاث همسات:

* مصنف ابن أبي شيبة، 7/ 562.

أولاها للأسرى الأكرمين والأمة من ورائهم، ندعوهم فيها إلى أن يبقوا على الثقة بربهم، قوية في قلوبهم، وأذهانهم، والإيمان بحتمية النصر والفرج القريبين، شاء من شاء وأبى من أبى.

أما الهمسة الثانية، لأمتنا وشعبنا بشرائحه وفصائله ومؤسساته كافة، أن يبقوا على العهد مع الأسرى والشهداء، فلا يفرطون بالثوابت، ولا يغفلون عن نصرة الأسرى في الميادين المستطاع ولوجها، على أن لا يقل ذلك عن التواصل مع أهليهم، وتفقد أحوالهم، من باب الواجب لا من باب التفضل والمن، والمشاركة في الفعاليات المؤازرة لهم، أو التي يدعون إليها، وبخاصة على صعيد نبذ الانقسام، والعمل المخلص للدين والوطن وأبنائه وحريتهم.

والهمسة الثالثة والأخيرة، فنوجهها إلى المتغطرسين الذين يغتصبون أرضنا ويدنسون مقدساتنا، ويعتدون على دمائنا وأرواحنا وحرياتنا وعلى شجرنا وحجرنا وشعائرنا، ندعوهم أن يفكروا ملياً في العواقب، فأحوال الدنيا لا تدوم، والظالم ينتظره يوم عسير، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حتى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ، قال: ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}(هود:102) (*)

* مصنف ابن أبي شيبة: 7/ 562 - 563.

معارك طاحنة وقودها نحن ومالنا وعيالنا وقضايانا المصيرية

تشهد معظم بقاع الدنيا التي يقطنها عرب أو مسلمون في هذا الزمان معارك طاحنة بين فئات متناحرة، أو بينهم وخصوم من هنا وهناك، والمطالع لواقع تلك المعارك، يجدها تعبر بفصاحة وصراحة عن عظم الخسارة، التي تلحق بمقدرات الأمة، ومقومات وجودها، جراء هذا التطاحن المرفوض من كل غيور وعاقل، حريص على مصالح هذه الأمة وأمنها، واستقرار مستقبلها، وبقاء عزتها، غير أن كثيراً من أطراف النزاع يقنع نفسه بسلامة موقفه، جراء تمترسه وراء شعارات براقة، أو أسباب إصلاحية حسب رؤيته، وقد يكون محقاً فيما يعتقد، لكنه غفل عن الضوابط المشروعة للإصلاح والتغيير، التي منها الامتناع عن الضلوع بتغيير المنكر، إذا كان هذا الضلوع سيجلب منكراً أعظم، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ يقول بهذا الصدد: (إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها، فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة. وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف، وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا، وكراهته لهذا، موافقة لحب الله، وبغضه، وإرادته، وكراهته الشرعيين، وأن يكون فعله للمحبوب، ودفعه للمكروه، بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال: (فاتقوا الله ما استطعتم)، فأما حب القلب، وبغضه، وإرادته، وكراهيته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان.) (*)

* كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، 28 /129 - 131

فالمسارعة للمخاصمة، بل استخدام السلاح في صراعات داخلية، أمر يرفضه الشرع والمنطق، ويتعارض مع المصالح المعتبرة، حتى لو كانت الأسباب الأصلية الدافعة له عادلة وشرعية، فلحمل السلاح أحكام شرعية، وضوابط تبغي مراعاتها، وإلا فالنتائج ستكون مدمرة، فهي نار موقدة، تأكل الأخضر واليابس، لا تُبقي ولا تَذر، ولا تفرق بين طيف وآخر، بل سيمتد لهيبها ليحرق الجميع، ولو بدرجات متفاوتة، والمصيبة الأعظم أن وقود هذه النار نحن أبناء الأمة، وعيالنا، وأموالنا، وثرواتنا الوطنية، ومقدرات وجودنا جميعها، والنار تزداد استعاراً بهذا الوقود، ونحن نعلم مسبقاً بالنتائج، ونرى بأم أعيننا كيف تجري الأمور، رغم الران الذي طُمست به القلوب، والغشاوة التي أُلبست بها العيون، حتى أصبحنا ننقاد إلى حتفنا بأرجلنا وإرادتنا، ونحن نتغنى بشعارات ثورية وبراقة، لكنها خَدّاعة وجوفاء، يختلط فيها السُم بالدَسم، ويمتزج فيها الخير بكم هائل من الشر، وكان من محصلة ذلك أن المتربصين بأمتنا من أعدائها، قدمت لهم مكاسب جمة على طبق يقطر بدماء أبناء الأمة، وأطفالها، ونسائها، وشيوخها، وفي الحالات التي لم تقطر فيها، فإن الدموع والعبرات تنسكب من عيون أحرار الأمة، الذين باتت أعراضهم مهددة، وأمنهم الاجتماعي والاقتصادي مفقوداً، واضطروا إلى هجر أرضهم، وديارهم، ومزارعهم، ومتاجرهم، إلى مخيمات لجوء، يعبر واقعها عن عمق المأساة التي باتوا يكتوون بنارها، فتشردوا من بيوت العز والأمن، إلى مواطن لجوء، أو منافي غربة، واسترخص بعضنا أعراض بعض، واستغلت حاجات من أصبحوا ضعفاء ظلماً وقهراً، فكان تناحرنا وضعاً مخزياً لنا، وطبقاً شهياً أو ذهبياً لأعدائنا.

صرف الأنظار عن القضايا المصيرية:

بالإضافة إلى الخسائر المادية والمعنوية العظيمة التي لحقت بالأمة ومقدراتها، جراء تطاحن أحزابها، وأفرادها، وجماعاتها، بالسنان واللسان، فإنها آتت أُكلاً أخرَ، تمثل في انشغال القاصي والداني منا بمشكلاته الخاصة، ومحيطه المشتعل، عن قضايا الأمة المصيرية التي ما انفك أعداؤنا عن هضم حقوقنا فيها، وسلب خيراتنا، والتحكم

بحريتنا، وتجيس مقدساتنا، فالقضية الفلسطينية كانت إلى وقت قريب محوراً مهماً، وعنواناً رئيساً للعرب والمسلمين، بحكم الإخوة التي تربطهم، وكون المسجد الأقصى المبارك مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ومهد المسيح، عليه السلام، يقبعان تحت نير احتلال غاشم وبغيض، منذ عشرات السنين، وكان أحرار الأمة وما يزالون يتطلعون إلى تحرير فلسطين، وشعبها، ومقدساتها، لكن الأحداث الدموية التي يشهدها العالمان العربي والإسلامي، أقصت هذه القضية عن بؤرة الاهتمام، وعن دائرة الضوء، حتى إن البيانات الورقية، التي سبق أن كانت تصدر حين تقع أحداث جسيمة، فيما يخص فلسطين أرضاً، ومقدسات، وإنسان، خفتت، وزادت بهاتة، والأمور تغيرت بصورة تلفت الأنظار، فالعرب يجتمعون، ويقومون، ويقعدون، ويروحون، ويجيئون، فتسمع طحناً ولا تجد طحيناً، وإذا ذكرت القضية الفلسطينية، فإنها تذكر على استحياء، وفق معيار قياس مدى تلبية احتياجات هذه القضية من الدعم والمؤازرة، لا معيار مدى ما يقدم لها من الفتات الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يحرر أرضاً اغتصبت، ولا شعباً أُسر، ولا يطهر مقدسات تدنس، ولا يحميها من خطر داهم يهدد وجودها.

فالمطلوب على هذا الصعيد ينبغي أن لا يكون من باب التسول، ولا في المقابل من باب التفضل والإحسان، وإنما هو حق وواجب شرعي وأخلاقي ووطني وإنساني.

لكن الذي زاد الطين بلة أن كل إقليم عربي، هبت فيه نِزاعات أشغلته عن التفكير، بل عن سماع أخبار غيره، وكأن حالهم ينطق بمقولة (المشغول لا يشغل)، وبهذا تتحقق أهداف من أرادوها فوضى خلّاقة، حتى وصلت إلى فتنة كقطع الليل المظلم، بات الحليم فيها حيراناً.

فالإشغال إذن مبرمج مسبقاً، شئنا أم أبينا، اقتنعنا أم لم نقتنع، استوعبنا أم لم نستوعب، وستبدي لنا الأيام ما جهلنا، وستأتينا تفاصيل الأخبار التي لم نزودها من قبل. فما يحدث قُصد من غيرنا أم لم يقصد، خطط له من قبلهم أم لم يخطط، إنه

يحقق مصالحهم، ويضر بنا وبأمهات قضايانا، ويستنزف قوانا وثرواتنا، ويضعف قوتنا، ويلحق بنا مزيداً من الخيبة والفشل الذريع، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التحذير من اتباع خطوات الشيطان:

لا تقف أسباب وهننا الحاضر على فعل البشر، بل تتعدى ذلك إلى جهود الشيطان اللعين، الذي يريد لنا الشر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فهو عدونا اللدود، ويحذرنا الله جل شأنه من دهاليز الشيطان، فعداوته لنا ظاهرة، وفي ذلك يقول تعالى: {وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (الزخرف: 62)، ويقول عز وجل: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}. (فاطر: 6)

والذهاب إلى التطاحن على الوجه المشاهد في واقع أمتنا، يقلب الحق باطلاً، ويلبس المواقف ملابس الشيطان، الذي لا يريد لنا خيراً قط، وإنما هو قاعد في عرض الصراط المستقيم، يتربص بنا الدوائر، واحدة تلو الأخرى، حتى يحقق مبتغاه في إزاحة بوصلتنا عن اتجاهها نحو الحق، والقوة، والعزة، والمنعة، وقد حذرنا الله من السير على خطى الشيطان، في كثير من المواضع القرآنية، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. (النور: 21)، وقال تعالى: {...وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}. (البقرة: 168)

وفي إغواء أبينا آدم، يقول سبحانه وتعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}. (البقرة: 36)

ومن أعمال الشيطان قيامه بتأجيج نار الفتنة، والعداوة، والكره بين المؤمنين، وعن هذا يتحدث القرآن الكريم بصراحة؛ ليأخذ المؤمنون حذرهم منه، فيقول تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاء فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ

الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (المائدة: 91)، فكل حزب من الفرق العربية والإسلامية المتطاحنة فرح بما لديه، يرى الصواب إلى جانبه، والحق يرافقه، وغيره من المخالفين خصوم مخطئون، بل يستحقون الإبادة والإزالة من الوجود، ويظن أنه بذلك يحق الحق، ويبطل الباطل، والله تعالى يقول: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً}. (النساء: 120)

ومشكلتنا مع الشيطان أنه يزين لنا الانحراف عن الجادة، والأعمال الضالة، وقد تعددت الآيات القرآنية التي تحذر من هذا التزيين المقيت، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}. (الأنفال: 48)

وفي إغواء الشيطان لعباد الله المؤمنين، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}. (محمد: 25)

وعاقبة الانخداع بأحابيل الشيطان الندم والحسرة؛ لأنه سيتبرأ من تابعيه؛ مصداقاً لقوله تعالى:{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}. (الحشر: 16)

الاستعانة بالله والعمل بهديه:

إزاء الواقع المرير الذي نعيش فيه ويلات التطاحن، والاقتتال، والفرقة، والنزاع، الذي يغذيه شياطين الإنس والجن، وضعف إرادتنا، وقلة وعينا، وركوننا إلى الدعة، والركض وراء سراب الدنيا، وبريقها الخادع، فإن أمامنا علاجاً ناجعاً نتهاون في الأخذ به، ونفرط في تقدير قيمته، فهو النور المبين، والصراط المستقيم، الذي جاء به خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، عن ربه عز وجل، فكان للعالمين بشيراً ونذيراً، من عمل به اهتدى، ومن تنكب دربه ضل وغوى، ومن هديه الدعوة إلى الاستعاذة بالله، والله تعالى يقول: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (فصلت: 36)،

ومـن نـزغ الشـيطان إثـارة القلاقـل، والنعـرات، والفـتن، والنزاعـات الداخليـة، المفضيـة إلى الفشـل، وقـد أمـر اللـه بوحـدة الصـف، فقـال تعـالى: {إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُـونَ فِي سَـبِيلِهِ صَفّـاً كَأَنَّهُـم بُنيَـانٌ مَّرْصُـوصٌ}. (الصـف: 4)

فأيـن أطـراف المعـارك الطاحنـة في البـلاد العربيـة والإسـلامية مـن هـذا الأمـر الإلهـي، وأيـن هـم مـن الأمـر بطاعـة اللـه ورسـوله، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ومـن تحذيـره سـبحانه وتعـالى مـن ويـلات التنـازع؟! إذ يقـول تعـالى: {وَأَطِيعُـواْ اللّـهَ وَرَسُـولَهُ وَلاَ تَنَازَعُـواْ فَتَفْشَـلُواْ وَتَذْهَـبَ رِيحُكُـمْ وَاصْـبِرُواْ إِنَّ اللّـهَ مَـعَ الصَّابِرِيـنَ}. (الأنفـال: 46)

فلـو وضـع العـرب والمسـلمون هـدى اللـه نصـب أعينهـم، لمـا اقتتلـوا، ولا اسـتباحوا دمـاء بعضهـم بعضـاً، ولا انتهكـوا أعـراض بعضهـم بعضـاً، بـل لتمثلـوا مقتـضى توجيهـات نبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الـذي أوصاهـم وهـو يـودع الدنيـا وإياهـم، فقـال: (يـا أَيُّهَـا النـاس؛ أَيُّ يَـوْمٍ هـذا؟ قالـوا: يَـوْمٌ حَـرَامٌ، قـال: فَـأَيُّ بَلَـدٍ هـذا؟ قالـوا: بَلَـدٌ حَـرَامٌ. قـال: فَـأَيُّ شَـهْرٍ هـذا؟ قالـوا: شَـهْرٌ حَـرَامٌ. قـال: فـإن دِمَاءَكُـمْ، وَأَمْوَالَكُـمْ، وَأَعْرَاضَكُـمْ، عَلَيْكُـمْ حَـرَامٌ، كَحُرْمَـةِ يَوْمِكُـمْ هـذا، في بَلَدِكُـمْ هـذا، في شَـهْرِكُمْ هـذا، فَأَعَادَهَـا مِـرَارًا، ثُـمَّ رَفَـعَ رَأْسَـهُ، فقـال: اللهـم هـل بَلَّغْـتُ؟ اللهـم هـل بَلَّغْـتُ؟ قـال ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهمـا: فَوَالَّـذِي نَفْـسِي بيـده؛ إِنَّهَـا لَوَصِيَّتُـهُ إلى أُمَّتِـهِ، فَلْيُبْلِـغ الشَّـاهِدُ الْغَائِـبَ، لا تَرْجِعُـوا بَعْـدِي كُفَّـارًا، يَـضْرِبُ بَعْضُكُـمْ رِقَـابَ بَعْـضٍ). (*)

هدانـا اللـه تعـالى إلى العمـل بكتابـه الكريـم، وسـنة خاتـم النبيـين، صـلى اللـه عليـه وسـلم، حـتى نقـي أنفسـنا الـشرور، ونحظـى بخـير الدنيـا، وعزهـا، والنـصر فيهـا، ونفـوز بسـعادة الآخـرة، والخلـود في جنـات النعيـم، ومـا ذلـك عـلى اللـه بعزيـز، ومـا هـي مـن المؤمنـين المتقـين ببعيـد.

---

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى

ما بين مجزرتي نيوزيلندا والخامس عشر من رمضان في المسجد الإبراهيمي قواسم مشتركة

الحادثة الإجرامية التي نالت من دماء مصلين أبرياء في مسجدين في نيوزيلندا، - مسجد النور الواقع وسط (كريست تشيرش)، ومسجد في منطقة (لينوود) بضواحي المدينة- وذلك في الثامن من شهر رجب لعام 1440هـ، وبالتحديد خلال أدائهم صلاة الجمعة في الخامس عشر من شهر آذار 2019م، تذكِّر بالحادث الإجرامي المزلزل الذي وقع في المسجد الإبراهيمي في مدينة خليل الرحمن الفلسطينية، فجر يوم الخامس عشر من رمضان 1414هـ، وفق 25/شباط/1994م.

جريمة قتل المصلين في المسجد الإبراهيمي أبكت الحجر قبل البشر، حيث قتل 29 مصلياً، وجرح ما يربو عن 150، ونفذها الطبيب الإرهابي المجرم باروخ جولدشتاين.

وجاءت مثيلة مجزرة المسجد الإبراهيمي في نيوزيلندا لتثير مشاعر الناس في أنحاء الدنيا إلا الحاقدين المتجردين من الموضوعية، ممن أعمى التعصب أبصارهم، وطمس الانغلاق على قلوبهم وعقولهم، ويبدو أنهم قلة منبوذة، يتسترون وراء تغريدات نشاز، تنوب عنهم في التعبير عن مؤازرة هذا الإجرام البواح وقبوله، ولم يكن لهم مسوغ

سوى حقدهم الدفين، والله تعالى حذر من هؤلاء وأشباههم والقرآن يتنزل من السماء، أي قبل مئات القرون، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} (آل عمران:118)

قواسم المجرمين مشتركة:

بين الحادثين قواسم مشتركة عدة، من أبرزها أنهما وقعا في المساجد، ضد أناس أبرياء يصلون فيها، منشغلين بعبادتهم، مجردين من الأسلحة العسكرية، أما المجرم في الحادثين، فمتسلح بعتاد عسكري، ومعدٌّ لجريمته، ومخطط لها بإحكام، وعن سبق إصرار وترصد، وجاء إلى مكان العبادة ليقوم بجريمته دون أن يقوم المستهدفون فيها بأي فعل، أو ينطقوا بأي لفظ ضده، ولم يكن ذنبهم في اعتباراته الضالة سوى أنهم لبوا أمر الله بالتوجه إلى المسجد لأداء عبادة الله الواحد القهار، وقد فعل مجرمو العصور الحجرية ما يشبه هذه الجرائم، التي يقترفها بعض الذين يعايشون التقدم التقني، والتطور الحضاري في الحياة ووسائلها وأساليبها، فقال الله تعالى في الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وقذفوهم ليُقتَلُوا في الأخدود: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ* وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ* وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ* قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ* إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ*وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ* الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} (البروج:1 - 10)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، استحضر مشهداً مما اقترفه بعض المجرمين ضد المؤمنين السابقين، فقال عليه الصلاة والسلام: (لقد كان من قَبْلَكُمْ، لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ، ما دُونَ عِظَامِهِ من لَحْمٍ، أو عَصَبٍ، ما يَصْرِفُهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ على مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، ما يَصْرِفُهُ ذلك عن دِينِهِ ...) (*)

* صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ.

بواعث المجرمين لما اقترفوا:

صَـدَّق النـاس أو أنكـر بعضهـم، فـإن لـدى المجرمـين الذيـن يقترفـون الجرائـم النكـراء ضـد المسـلمين في أنحـاء الدنيـا بواعـث حقـد بغيـض، وتعصـب أعمـى، لا تحتـاج إلى وسـائل دقيقـة لاكتشـافها وإبرازهـا، فهـم يتركـون ليـس بصماتهـم وراء أفعالهـم المشـينة فحسـب، بـل يصرحـون بألسـنتهم وكتاباتهـم وتعابيرهـم عـن دوافعهـم، فمرتكـب جريمـة قتـل المسـلمين في نيوزيلنـدا (برينتـون تارنـت) الأسـترالي اليمينـي المتطـرف، ويبلـغ مـن العمر28 عامـاً - حمـل بندقيـة مرصوصـة ليـس بالذخيـرة فقـط، بـل بالكتابـة الـتي يُذكّـر مـن خلالهـا بمعـارك تاريخيـة خاضهـا المسـلمون وانتـصروا، وأذاع بيانـاً مكتوبـاً بمـا يزيـد عـن سـبعين صفحـة، شرح خلالـه هدفـه ودوافعـه وفلسـفته وفكـره .

وتحـدث عـن المدرسـة الفكريـة الـتي ينتمـي إليهـا، وممـن يسـتوحي فكـره ودافعيتـه لاقـتراف هـذه الجريمـة، وكان قـد صـور الحـدث بتقنيـة حديثـة، مكنتـه مـن أن يبـث مشـاهد مـا يقـترف عـلى الهـواء مبـاشرة، عـبر صفحتـه عـلى موقـع فيسـبوك، فالحـدث مخطـط لـه بإحكام، ومقصـود مـع سـبق الإصرار والترصـد، ولا مجـال فيـه لزعـم أن مـن قـام بـه مجنـون، أو طائـش، أو متهـور، وإنمـا كان يـدرك مـا يقـول ويفعـل، ومُـصرّ عـلى ذلـك بعزيمـة أكيـدة، ولا يهـم كثـيراً إن كان يسـاعده أنـاس آخـرون أم لا، فالحقيقـة أنـه يتبـع مدرسـة لهـا وجـود في العالـم، ولهـا منظـرون يتحدثـون عـن فكرهـا، ويبثونـه في مواقفهـم السياسـية والعسـكرية، وحـتى الاقتصاديـة، وفي منتدياتهـم الثقافيـة والفنيـة وغيرهـا، إنـه فكـر التعصـب الأعمـى،

وثقافة الحقد البغيض، ونزعة الكراهية الظالمة، وبحسب وثيقة نشرها (تارنت) على الإنترنت، فإنه ينتمي إلى عائلة أسترالية من الطبقة العاملة، أهدافه هي إخلاء المجتمعات الغربية من غير البيض والمهاجرين، بغرض حمايتها، وكذلك الانتقام للحوادث الإرهابية، والجرائم الجنسية، التي يقوم بها مسلمون ومهاجرون حول العالم بحسب أقواله.

بحسب الوثيقة بدأ (تارنت) بالتخطيط للهجوم قبل عامين، ثم بدأ بالتخطيط (في الموقع) قبل ثلاثة أشهر، واختار نيوزيلندا ليؤكد أن لا مكاناً آمناً في هذا العالم، واختار هذين المسجدين بعد زيارتهما، وكان يريد استهداف مسجد ثالث، ولكنه لم ينجح .

وأكد على أنه يعمل بشكل منفرد، ولا ينتمي إلى أي حركة نازية أو معادية للسامية، وأنه شكل أفكاره من خلال الإنترنت، وأشار إلى تأثره بـ(أندرس بريفيك) الإرهابي اليميني، الذي قتل 77 شخصاً في النرويج عام 2011. (*)

ونقلت بعض وسائل الإعلام عن خطيب أحد المسجدين اللذين شهدا الاعتداء الآثم، وصفه للحظات الصعبة التي تخللتها وقائع الجريمة النكراء، فبين أنه بينما كان يلقي خطبته بحضور نحو ثمانين مصليًا، سمع صوتًا لم يعتد سماعه من قبل في هذه المنطقة، صوت قادم من بعيد يقترب تدريجيًا، هو صوت أقرب إلى صوت الرصاص، لكنه لم يكن متأكدًا منه.

بيد أنه سرعان ما أدرك أنها طلقات رصاص، ولذلك فكر أن ينهي الصلاة بسرعة، وبخاصة مع اقتراب صوت الرصاص، قبل أن يهشّم الرصاص نافذة المسجد، وأصاب بعض المصلين الذين بدأوا بالصراخ، وانكفأوا فوق بعضهم بعضاً أكوامًا، وفي هذه الأثناء، شاهد إمام المسجد ابنه، لكنه لم يستطع الوصول إليه حيث كان يرقد، لكن عند الحاجز الذي يفصل القاعة عن مصلى السيدات، ثبتت زوجته في مكانها بعد إصابتها بطلقة في ذراعها، في حين اخترق الرصاص جسد صديقة لها كانت تجلس بجوارها، فقتلها.

* مواقع إخبارية عدة .

وفجـأة أخـذ الخـوف يتـسرب إلى قلـب الإمـام، في أرض الأمـان، خشـية أن يشـهد مقتـل أسرتـه أمـام عينيـه.(*)

وقـد ارتقـى في هـذه الحادثـة المؤلمـة خمسـون شـهيداً، وأصيـب مثلهـم بجـراح ، ومـن الفلسـطينيين الذيـن ارتقـوا شـهداء بـإذن اللـه تعـالى في هــذه المجـزرة:

صور بعض شهداء مسجدي نيوزيلندا حسب المنشور في وسائل الإعلام

الشهيد عبد الفتاح الدقة

الشهيد عطا عليان

الشهيد أسامة ابو كويك

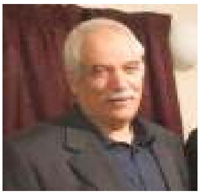

الشهيد علي الساحوري

الشهيد كامل درويش

أما الشـهيد كامـل درويش، فلـه قصـة زادت مـن ألـم عائلتـه، فقد توفيـت والدتـه إثـر إصابتهـا بنوبـة قلبيـة، نتيجـة عجزهـا عـن تحمُّـل الأسى والحـزن جـراء فقـدان فلـذة كبدهـا، بعدمـا ذاقـت عنـاء السـفر مـن الأردن إلى نيوزيلنـدا، بعـد أسـبوع مـن وقـوع الجريمـة، لحضـور جنـازة ابنهـا، وبذلـك فقـدت العائلـة الابـن والأم في أسـبوع واحـد.

* جريدة القدس، العدد 17825، الثلاثاء 26 /3 /2019، ص9 بتصرف.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ:

الحقد الأعمى على الإسلام والمسلمين، يعبر عنه الحاقدون أحياناً بألسنتهم، ويستخدمون في أحيان أخرى بنادقهم، ومختلف أنواع أسلحتهم الفتّاكة ومضايقاتهم، وأوضح القرآن الكريم في موضعين صريحين هدفهم مما يقترفون، فقال عز وجل:{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: 32) وقال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}(الصف: 8)

فالماكرون والكائدون للإسلام والمسلمين، يسلكون السبل المتاحة لهم جميعها، بألسنتهم وأيديهم وخبثهم ومكرهم، للانقضاض على الإسلام والمسلمين، بهدف إطفاء نور الحق، وطمس الحقيقة الساطعة، لكن مكرهم سيبور كما بار مكر أسلافهم من قبل، الذين كان من كيدهم، أن اختاروا أسلوب زعزعة ثقة المسلمين في دينهم، بالتشكيك، وإثارة الشبهات، وبث الأراجيف، حتى إن بعضهم استخدم أسلوب إعلان إسلامه، ثم التراجع عن ذلك بعد حين، بزعم أنه وجد في الإسلام العيوب، فارتدَّ عنه، وهو ظالم لنفسه مريب، وعن هذا المكر، يقول جل شأنه في محكم كتابه العزيز: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. (آل عمران: 72)

ويأبى الله إلا أن يتم نوره:

في الآيتين سالفتي الذكر من سورتي التوبة والصف، جاء الرد الرباني، على الذين يريدون إطفاء نور الله، بالجزم المؤكد على حتمية إتمام نور الله، فالمعركة بين الحق والباطل في هذا المجال، يتولى أمرها الله، جلت قدرته، وحين يكون الله بالمرصاد للظالمين، فالنتيجة محسومة، إذ أين عتاد الظالمين وقدرتهم وإمكاناتهم، مما لدى الله الخالق الواحد القهار، الذي أمره بالكاف والنون؟ ويصف ذاته وقدرته وسرعة فعله، وتنفيذ أمره، فيقول عز وجل: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(البقرة: 117)، ويقول تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (النحل: 40)

فأين سيختبئ أولئك المجرمون من عقاب الله وانتقامه؟! لأنه حتماً سينتصر لأوليائه، كيف لا؟! وهو القائل سبحانه في الحديث القدسي الذي يرويه عنه رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فيقول: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)(*)

فانتصار الله للمظلومين من عباده، سيكون وبالاً على المجرمين والظالمين، الذين يعيثون في الأرض فساداً وإفساداً، وبخاصة الذين يعتدون على أمن المساجد وحرماتها، من الذين يعدون من أظلم الظالمين، الذين يقول فيهم العزيز المقتدر: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (البقرة:114)، فلكل المتربصين بالمساجد الخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة، كما قال ربنا، ومن أصدق من الله قيلاً.

للحق والحقيقة والإنصاف:

مما لفت الأنظار في أعقاب الجريمة النكراء التي وقعت في مسجدين نيوزيلنديين بعض ردود الفعل المنكرة لها، التي عبرت عن شجب واضح، ومؤازرة ولو معنوية للمسلمين بعامة، وفي نيوزيلندا بخاصة، ما قامت به رئيسة وزراء نيوزيلندا (جاسيندا آردرن) من أفعال، وما صدر عنها من أقوال مندّدة بالجريمة، وتصريحات مساندة للذين وقعت عليهم، حتى بلغ بها الأمر أن وضعت على رأسها غطاء للتعبير عن مشاركتها المسلمين، حسب تقديرها بارتداء بعض رموزهم، وعادت ارتداء ذاك الغطاء الرمزي وكررت ارتدائه يوم الجمعة التالية للحادث، بل صدرت دعوات انصاعت لها بعض النساء غير المسلمات لارتداء غطاء الرأس؛ تعبيراً عن مساندة المسلمين والمسلمات في

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، بَابُ التَّوَاضُعِ.

محتنهم، ويوم الحادث بالذات توافق مع يوم زفاف عروسين، فذهبا بثياب الفرح، حاملَيْن باقات الورد التي تلقياها من ضيوفهما، ووضعاها بترتيب أمام أحد المسجدين اللذين وقعت فيهما الجريمة النكراء ظهراً.

فليس عجيباً ولا غريباً أن يوجد أناس غير مسلمين في العالم يحترمون القيم، ويقدرون الإنسان، وينكرون الطغيان والعدوان، والله تعالى نبه إلى مسألة التمييز بين غير المسلمين، من حيث مواقفهم من الحق، فقال عز وجل: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} (آل عمران: 113)

ويقول عز وجل:{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران:75)

حتى في مجال الموادّة والمعاداة، يميز الإسلام بين المعتدين وسواهم، في اتخاذ المواقف والأحكام، فيقول عز وجل: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا

يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة: 8 - 9)

فما عبر عنه بعض من غير المسلمين بشأن شجب الجريمة المرتكبة ضد الرُّكَّعِ السجود، القائمين لربهم يتعبدون، ينم عن خلق يستحق الاحترام والتقدير، ويبعث على الأمل بأن الناس ما زال فيهم خير، وأنهم ليسوا سواء؛ فمنهم الحاقد المجرم، ومنهم الإنسان المنصف، الذي لم يتجرد من إنسانيته وموضوعيته، وهم ليسوا قلة في العالم، لكن للأسف صوتهم غير مسموع على النحو الكافي والمؤثر، لكن لا بد للمسلمين من التعاون مع أمثال هؤلاء في خدمة الإنسانية، وقضايا العدل والسلم العالميين، لأن المسلم المنصف يتحرى الحق فيتبعه، والشر فيتجنبه، ومن واجبه أن يقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت، فدعوة الإسلام تهدف إلى إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو أن كثيراً من الناس يكرهون، حتى إنهم في أحيان كثيرة يعادون، وعلى الرغم من ذلك، فإنا سندور مع الحق، حيث دار، من منطلق القيم النبيلة التي وجهنا إلى التحلي بها رب العالمين، وهو الآمر بالقسط، بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة: 8)

تشييع بعض ضحايا الحادث الإجرامي في مسجدي كرايست تشيرتش بنيوزيلندا،
وجموع تصلي الجمعة التالية للحادث الإجرامي في مسجدي نيوزيلندا تضامناً مع الضحايا

صرخة للاتعاظ:

حيال جريمة القتل المروعة في مسجدي نيوزيلندا، وما سبقها من مجازر في المسجد الإبراهيمي في مدينة خليل الرحمن، وغيرها من الجرائم التي يندى لها جبين كل حر من الناس، والخلق أجمعين، لم يصدح العرب والمسلمون بمواقف حازمة إلا من رحم الله منهم، ففي أعراف الناس ينتفض أنصار من تقع عليهم الاعتداءات، وتكون لهم مواقف حازمة وحاسمة، ولو من باب استثمار الحادث لمصالحهم العامة، فالذين صنعوا الإرهاب وألصقوه بالإسلام والمسلمين، يجدر أن ينبهوا إلى أنهم غذوا نار الكراهية والحقد ضد المسلمين الأبرياء، وألحقوا الأذى بالناس الآمنين، في مساجدهم وشوارعهم، وأسواقهم، وأماكن عملهم، فكم من مسلمة لحقها الأذى في هذا العصر لمجرد أنها ترتدي ثياب المسلمات؟! وكم من مسلم اضطهد في رحلة طيران وغيرها؛ لأنه مجرد مسلم؟! إضافة إلى انتهاك حرمات بلاد المسلمين عن بكرة أبيها بحجة التصدي للإرهاب، وصار مصطلح (الإسلاموفوبيا) كأنه حقيقة لا مفر منها، وهو صدر عن واقع اختلطت فيه الأمور، وزاغت فيه الأبصار، وانحرفت فيه القيم، لتحقيق مآرب الشيطان فلان من الإنس، إضافة إلى إنجاح شيطان الجن في عرقلة دعوة الخير، والاستقامة على دين الله، وهو الذي حدّث القرآن الكريم عن أهدافه، فقال عز وجل: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} (الأعراف: 16)

فما دام الحال كذلك، فلمَ الخذلان؟! ولمَ النكوص عن الانتصار لدين الإسلام والمسلمين من أصحاب القوة والنفوذ، ممن كانوا لا يتوانون عن التصريح المندد بالجريمة لو وقع مثلها ضد غير المسلمين؟! فقد سبق أن وقعت حوادث ضد آمنين من غير المسلمين، ينكرها كل سوي من المسلمين وغيرهم، لكن أين هم المسلمون المؤثرون في مواقفهم السياسية والحزبية وثقلهم العام مما يحدث من جرائم الإبادة الظالمة

لإخوانهم؟! أما يخشون أن تدور الدائرة عليهم، فيقول وقتها قائلهم: أُكِلتُ يومَ أُكِل الثورُ الأبيض؟ وقصة الثيران الثلاثة معروفة، ومن لا يعرفها فليبحث عنها، ليعتبر قبل فوات الأوان، ولات حين مندم، مصداقاً لقوله عز وجل: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} (ص:3)، فهل من معتبر؟؟؟؟

سائلين الله العلي العظيم أن يتقبل شهداء العبادة، الذين قضوا في مسجدي نيوزيلندا، ومن قبلهم شهداء المسجد الإبراهيمي، والمسجد الأقصى، وشهداء الحق في كل زمان ومكان، وأن يجعل مثواهم في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وأن يحسن عزاء ذويهم، والمسلمين والمتضامنين معهم في أنحاء المعمورة، وأن يكشف عن المظلومين والمستضعفين ما بهم من غم، ويفرج كربهم، وأن يشافي جرحى المسجدين وأمثالهم، ويُصبر ذويهم، وينتقم ممن ظلمهم، وسَفك دماءهم، وأدمى جراحهم.

متحف فلسطين ومسجدا القدس والرابع في كيب تاون

في شهر نيسان من عام 2017م حضر السيد أشرف يوسف سليمان، رئيس ممثلية جنوب إفريقيا لدى دولة فلسطين إلى مقر الإدارة العامة لدار الإفتاء الفلسطينية، مصطحباً دعوة لسماحة الشيخ محمد حسين -المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية- لزيارة كيب تاون، للمشاركة في فعاليات احتفالية تقام هناك، قبيل حلول شهر رمضان لعام 1438هـ، يتخللها إقامة صلاة جمعة تاريخية، وإلقاء خطبتها، وقد شرفني سماحته بتكليفي بالقيام بهذه المهمة نيابة عنه، فسافرت إلى مطار كيب تاون، وهناك وجدت عدداً من الأشخاص في استقبالي، عرفت لاحقاً أسماء بعضهم، فكان منهم السيد شريف عباس- رئيس جمعية القراء، والأستاذ إحسان طالب- مسؤول كلية السلام، وعدد من الأئمة والعلماء، الذين استقبلوني بحفاوة مميزة، وترحيب بالغ، ثم ركبت المركبة التي خصصت لتنقلاتي، والذي يقودها سائق اسمه سليمان حسين، أحد مُحَفِّظِي القرآن، وهو ممن يتحدثون العربية بمستوى جيد، وكان خير رفيقٍ وصديقٍ ومعينٍ لي، في تلك الزيارة.

وفي عجالة مجملة لهذه الزيارة، نود الوقوف عند بعض محطاتها المهمة، تاركين تفاصيلها لمقام آخر.

نشاطات بعد الوصول وقبل حطّ الرحال في الفندق:

من المطار اصطُحبتُ إلى إذاعة محلية، أجرت معي مقابلة إعلامية حول الزيارة والأوضاع في فلسطين، والتقيت مديرها بحضور المستقبلين، وبعد ذلك أُجريت معي مقابلة تلفزيونية في موقع القلعة أو القصر (الرجاء الصالح) الذي علمت أن فعاليات

الاحتفالية ستقام في جنباته، اعتباراً من صباح يوم الجمعة 18 /5 /2017م، بما في ذلك أداء صلاة الجمعة الأولى في هذا الموقع.

وبعدها انتقلت إلى مقر مجلس القضاء الإسلامي الأعلى؛ لمقابلة رئيسه الشيخ عرفان وبعض علمائه، وهناك استقبلت بحفاوة بالغة، وسلمت فضيلة رئيس المجلس درع دار الإفتاء الفلسطينية هدية من سماحة الشيخ محمد حسين، المفتي العام، وألقيت كلمة عبرت فيها عن مشاعري، وأنا أزور هذا البلد وهؤلاء الإخوة، وتحدثت عن قضية القدس والمسجد الأقصى، والأسرى وإضرابهم.

ووجدت وداً واضحاً من الحضور، وتفاعلاً من قبلهم مع ما أتحدث عنه، كونه يتعلق بقضايا يتابعونها، ويهتمون بها.

صلاة الجمعة وخطبتها:

علمت أن صلاة الجمعة ليوم 19 /5 /2017م ستقام لأول مرة في موضع له جذور تاريخية في كيب تاون، حيث كان قصراً كبيراً للهولنديين الذين استعمروا هذه البلاد، وعاثوا فيها ظلماً وفساداً، ويسمى بالقلعة أيضاً، وله علاقة بحركة التحرر التي قادها القائد الإفريقي نيلسون مانديلا.

وحينها أدركت سبب الاهتمام بدعوة سماحة المفتي العام، وخطيب المسجد الأقصى، لأداء خطبة الجمعة في هذا المكان، وبهذه المناسبة، وبعد حضوري للقيام بهذه المهمة، جالت في خاطري أمور، منها: كيف ستتم الأمور لأنني لا أتقن الحديث بالإنجليزية بطلاقة، والناس معظمهم يتحدثونها، وقد سبق أن حضّرت أفكار الخطبة الرئيسة، (التي تم تزويد وزارة الخارجية في رام الله بصورة عنها، بناء على طلبهم).

وطلب مني المضيفون أن أحضر مبكراً إلى المكان الذي ستقام فيه صلاة الجمعة؛ لأن هناك فترة مطولة لقراءة القرآن، ثم الخطبة والصلاة، ثم افتتاح فعاليات النشاط المراد القيام به.

ولما حضرت استمعت إلى كبار القرّاء هناك، الذين كان منهم كبيرهم، الشيخ عبد الرحمن، الذي قيل لي إن صوته يشبه صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ولما قرأ وجدت وصفهم صادقاً، وكان من القرّاء كذلك شيخ شاب اسمه عبد الكريم، وهو مصري الجنسية، يُدرس القراءات والمقامات في مدينة جوهانسبرغ؛ وكان مهذّباً للغاية، وصاحب صوت جميل في التلاوة والنشيد، ويتفاعل مع ما يطرح من قضايا دينية وتحررية، وبخاصة فيما يتعلق بالقدس والمسجد الأقصى، والأسرى في فلسطين.

عج المكان المعد لأداء صلاة الجمعة بالمصلين نساءً ورجالاً وشباباً، وكان طلبة جمعية القرّاء يلبسون زيّاً خاصّاً، ولم يتسع المكان المعد للحضور جميعاً، فصلّى كثير منهم تحت أشعة الشمس، ولما اقترب موعد الخطبة عند الساعة الواحدة إلا ربعاً

تقريباً(12:45) حسب توقيتهم المحلي، الذي يماثل التوقيت الشتوي لدينا، ويقل ساعة عن التوقيت الصيفي المعمول به حالياً لدينا. حان موعد الصلاة، وبناء على ترتيبات مسبقة ألقيت الخطبة الأولى، واستغرقت عشرين دقيقة تخللتها ترجمة إلى الإنجليزية، ثم الخطبة الثانية بالعربية فحسب، وتولى الترجمة الشيخ إحسان طالب، مسؤول كليّة السلام في كيب تاون، وأحد أعمدة العمل الدعوي فيها، وأحد كبار المستقبلين والمنسقين، وكان مسعفاً دائماً لي في الترجمة من اللغة العربية وإليها.

وركزت الخطبة باختصار هادف على لفت الانتباه إلى قضايا رئيسة، مثل:

* الأمر بالتقوى وطاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

* الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

* فرض الله صيام رمضان على المؤمنين لعلهم يتقون.

* شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس.

* وضع القدس والمسجد الأقصى وواجب الأمة الإسلامية تجاههما.

* الحث على زيارتهما في إطار الضوابط الشرعية.

* واجب الأمة تجاه قضية فلسطين وأسراها.

* حال الأمة وفرقتها وتناحرها ووجوب وحدتها.

* وصم الإسلام والمسلمين بالإرهاب ودور بعض أبناء المسلمين في تشويه صورة الإسلام.

* الخلاف في الآراء الفقهية والفكرية بين المسلمين ينبغي ألا يتعدى الحدود المسموحة.

* قبـول الآخـر، ومعاملـة غـير المسـلمين في العهود الإسـلامية الزاهـرة/ العهـدة العمرية مثلاً.

* التعايـش المشـترك الـذي لا تهـاون في الدين فيه، ولا اعتداء على الآخرين/ فلسـطين نموذجاً.

وبعـد أداء الصـلاة أجـري حفـل افتتـاح لفعاليـات النشـاط المخطـط لـه، فصعـدت المنصـة الـتي جلـس عليهـا بعـض المسـؤولين في حكومـة جنـوب أفريقيـا، وكان مـن بينهـم رئيـس كيـب تـاون، وهـي غـير مسـلمة، ولكنهـا حـضرت ترتـدي شـالاً عـلى رأسـها، وكان هنـاك قسّـيسٌ أجلسـوه إلى جانـبي، وكان مـن الحضـور سـفيرٌ سـابقٌ لجنـوب أفريقيـا في أمريـكا، ورئيـسٌ سـابقٌ لكيـب تـاون، واسـمه إبراهيـم.

حفل افتتاح الفعالية:

نقلت محطات تلفازية محلية عدة صلاة الجمعة وخطبتها، والاحتفال الذي تلاها بالبث مباشرة، وألقى في الاحتفال بعض الجالسين على المنصة كلمات بالمناسبة،

ثم طُلب مني أن أعلن عن افتتاح (المهرجان) أو النشاط، فقدمت لذلك بكلمات قصيرة كانت مؤثرة، ختمتها بقول: (إن هذه الفعاليات في هذا المكان، تعبّر عن الألم الذي مضى، والأمل بالحاضر والمستقبل)، وعنيت بالألم حالة التميز العنصري والاضطهاد، الذي ساد جنوب إفريقيا قبل تحررها، أما الأمل فيمثله الانتصار على التميز العنصري، والتحرر من العبودية، وإقامة الأحرار احتفالهم في المكان الذي كانوا يضطهدون فيه ويسجنون ويعذبون، وكان من بين المرافق التي شاهدتها في هذه القلعة، السجون والأقبية التي لا يوجد لها متنفّس، سوى الأبواب التي يدخل منها المعذبون ويخرجون، وهي أشبه كثيراً بزنازين الظالمين، وفيها حبال وجنازير مثبّتة في السقوف والجدران، كانت معدة للتعذيب.

وتخلل برنامج الفعالية فقرات نشيد هادف، أدتها فرق إفريقية باللغة العربية، بمستوى رائع وجذّاب، والغريب أن كثيراً ممن ينشدون لا يتقنون من العربية سوى ألفاظ وعبارات النشيد، وبعد تسابق الفرق، فوضت بالإعلان عن الفرقة الفائزة بناء على توصية لجنة التحكيم ، وأنشدت تلك الفرقة بعد فوزها للأقصى أنشودة ألهبت مشاعر الحضور، وأصروا على دعوتي لصعود المنصة، فتفاعلت مع ما أسمع، ورددت بعض العبارات الحماسية المتخللة في النشيد.

متحف فلسطين:

صباح يوم السبت 20 /5/ 2017م وحسب البرنامج المعد، توجهنا إلى مبنى متحف فلسطين في كيب تاون، وهو مكون من تسعة طوابق، وقيد الإعداد ليصبح متحفاً مميزاً لفلسطين حسب خطة معدة لذلك، ولما وصلنا موقع المتحف استقبلنا صاحب الفكرة ومن كان بصحبته عند مدخله، ثم دخلنا إليه، وصار يشرح لنا عن فكرة المتحف، وكيف تم شراؤه بالمزاد، وكان مكوناً من طابقين، ويملكه شخص يهودي، وبعد شرائه والعلم أنه سيصبح متحفاً لفلسطين، تم حرقه، ورفعت دعوى قضائية، كسبها المشتري بعد خمسة شهور، وسمح له أن يبني تسعة طوابق، ولم يكن ذلك يسمح لولا حادثة الحرق -حسب قوله-، وكان الرجل وهو يشرح يعبر عن إيمان بأن الله معه، وذكر من شواهد ذلك أن مصعد المبنى امتنعت شركات مصاعد كبيرة عن عمله لهذا المبنى، حين كان يعلم أصحابها بأنه سيكون متحفاً لفلسطين، وأخيراً أنشئت شركة جديدة بعد خمس سنوات من الانتظار، ووافقت على عرض بإعداد المصعد بالسعر نفسه الذي كان قبل 5 سنوات.

وطوابق المبنى التسعة كل منها لغرض، فبعضها يراد تخصيصه لعرض بعض الصور وغيرها من متعلقات النكبة، وطابق للنكسة، وثالث لحرب غزة، ورابع مكتبة، وخامس وسادس وسابع، ولما سألني ماذا تعتقد أن يكون الطابق الثامن، فتداركت أن المقصود مسجد، فلما قلت: (mosque) سرّ جداً، وعانقني، وفي طابق المسجد مرافق للوضوء أحدها للرجال، وآخر للنساء.

والطابق الأخير أعد مسكناً للضيوف، جهّزت غرفه لاستضافتهم ومرافقيهم.

وعرض لنا القائم على إعداد المتحف صوراً لبعض من زاروا مبناه.

مكالمة هاتفية مع سفير فلسطين:

بعد عصر يوم الأحد21 /5 /2017م، كنت مع الشيخ إحسان طالب، في موقع الاحتفال، وكان معنا بعض الأشخاص، فقال لي: إن سكرتير أول السفارة، طلب منه التحدث مع السفير الفلسطيني/ هاشم الدجاني، فاتصل به، وقال له إني معه، وأثنى على نشاطي وتفاعلي معهم، ثم أعطاني الهاتف، فتحدثت مع سعادة السفير، الذي اعتذر لعدم التواصل معي؛ كونهم كانوا مشغولين بالإعداد لمؤتمر إفريقي، وبسبب البعد، واعداً بتعويض ذلك في المستقبل، وعبّرت لسعادته بإيجاز عما قمت به، وعن الفكر الوسطي الذي نقدمه للناس في الداخل والخارج، والذي يمثل منهج دار الإفتاء الفلسطينية، بعيداً عن الغلوّ والتطرف، وأوصيته خيراً بجنوب إفريقيا وأهلها، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم لمناصرتهم قضايانا، واهتمامهم بها، وعبّرت له عن غبطتي له، لتولّيه مهمة السفير الفلسطيني لدى هذه البلاد، والعمل مع هؤلاء الأحرار، الذين شارك بعض وزرائهم ونوّابهم في البرلمان في فعاليات مساندة لإضراب الأسرى الفلسطينيين عن الطعام على سبيل التضامن.

مسجد القدس :

حسب البرنامج المعد سلفاً، ذهبنا وكبار العلماء مساء الأحد 21 /5 /2017 لأداء صلاة المغرب في مسجد القدس، الذي يحافظ إمامه على ارتداء العمامة والجبّة، وعلى ارتداء اللفحة الرمزية للكوفية الفلسطينية السوداء، وعليها صورة الصخرة من جانب،

والعلـم الفلسـطيني مـن الجانـب الآخـر، ولمـا ذهبنـا إلى مسـجد القـدس لأداء صـلاة المغـرب، ألبسـته لفحـة جديـدة مـن الطـراز نفسـه، مـن مجموعـة لفحـات دار الإفتـاء الفلسـطينية، وصليـت المغـرب إمامـاً في هـذا المسـجد الجميـل للغايـة، والمنقـوش عـلى واجهاتـه الأماميـة الخارجيـة بالعربيـة وبالإنجليزيـة وبخـط كبـير اسـمه(مسـجد القـدس).

وألقيت كلمة في الحضور بعد الصلاة، وكان الشيخ إحسان طالب يترجمها.

المسجد الرابع:

انطلقنـا بنـاء عـلى البرنامـج المعـد كذلـك إلى المسـجد الرابـع، لأداء صـلاة العشـاء فيـه، وحقيقـة أنـني لـم أكـن أعـي المـراد مـن هـذا الاسـم، ولمـا وصلنـاه وإذا باسـمه المثبـت بخـط عريـض وكبـير بالإنجليزيـة والعربيـة عـلى واجهتـه الخارجيـة الأماميـة: (المسـجد الرابـع لأجـل تحريـر الأقـصى)، فصليـت العشـاء بالحضـور إمامـاً، وألقيـت كلمـة ترجمهـا الشـيخ إحسـان طالـب أيضـاً، وسـبقها كلمـة لإمـام المسـجد، ثـم كلمـة تعقيبيـة، وكانـت كلمـتي في المسـجدين عفويـة، لكنهـا كانـت مؤثـرة بعـون اللـه وتوفيقـه.

واللافت للانتباه في هذا المسجد أن موضع سجود كل مصلٍّ مطرز بصورة قبة الصخرة، وكل لوح من ألواح زجاج شبابيكه، مثبت عليها صورة قبة الصخرة، وفي المسجد صورة كبيرة بعرض الحائط للقدس، وتبرز فيها صورة المسجد القبلي وقبة الصخرة، مما يدل بجلاء على عمق الاهتمام بالمسجد الأقصى، والحرص على الارتباط به، والتطلع إلى تحريره.

زيارات وداعية خاطفة قبل الذهاب إلى المطار في رحلة العودة:

في صباح الاثنين 22 /5 /2017م اليوم المقرر للعودة، ومغادرة كيب تاون، حضر المرافق في الموعد المقرر، الساعة (7:15) وحضر أيضاً السيد شريف عباس، رئيس

جمعية القراء لمحاسبة الفندق، ومن ثم تم الانطلاق إلى منزله لتناول طعام الإفطار، الذي أقامه على شرفي، ودعا إليه عدداً من كبار العلماء.

وصلنا منزل السيد شريف عباس في الموعد، الساعة 8 صباحاً، ووجدنا في استقبالنا عدداً من أصحاب الفضيلة، والسيد شريف وابنه وزوجته وأختيه، وعدداً من العلماء، على رأسهم الشيخ عرفان، رئيس مجلس القضاء.

زيارة جمعية القرّاء:

بعد تناول الإفطار، والتقاط الصور التذكارية، وفي حوالي الساعة التاسعة، غادرنا حسب البرنامج إلى جمعيّة القرّاء، وحين وصولنا وجدناهم قد أحضروا قسمي الطلاب الذكور والإناث من مختلف الأعمار، وكثير منهم يحفظ القرآن، وأجلسوا كلّ قسم أرضاً، مع معلميهم ومعلّماتهم، وكان على رأس الحاضرين الرئيس الفخري للجمعية الشيخ الفاضل موسى، وهو طاعن في السن، يتجاوز عمره الثمانين عاماً، والوقار واضح على محياه، واستقبلنا ومن كانوا بمعيته بحرارة، وألقيت كلمة موجزة معبّرة، رد عليها الشيخ موسى، بكلمة إيمانية، عرج فيها على تاريخ جمعية القراء، وإنجازاتها ونشاطاتها تجاه تعليم القرآن الكريم وتحفيظه.

زيارة وداعية لمجلس القضاء وكلية السلام:

كانت المحطة قبل الأخيرة زيارة كلية السلام، التي تدرس علوم الشريعة باللغتين العربية والإنجليزية، للذكور والإناث، ومن ثم ذهبنا إلى مجلس القضاء الذي استقبلني عند قدومي، وهناك ألقيت كلمة قصيرة، عبرت فيها عن انطباعي الإيجابي

من هذه الزيارة الحافلة، وعن شكري وتقديري لمواطني جنوب إفريقيا وحكومتهم وقياداتهم، وبخاصة الذين التقيتهم، على حفاوة الاستقبال والرعاية، وعمق الاهتمام بالقضية الفلسطينية، وبخاصة المسجد الأقصى المبارك، وبناء على طلب رئيس مجلس القضاء رد عليّ أحد علماء المجلس البارزين، الذي يتقن الحديث بالعربية، واسمه الشيخ رياض، وذلك بكلمة معبرة ومؤثرة، ثم التقطنا

الصور الجماعية، وحملّني رئيس المجلس وأعضاؤه السلام والتحيات إلى سماحة المفتي العام، وعلماء فلسطين وأهل القدس، وأبلغني فضيلته أنهم ينسقون للقيام بصيام جماعي من قبل أصحاب

مختلف الديانات في جنوب إفريقيا يوم الأربعاء المقبل 24 /5 /2017 تضامناً مع الأسرى الفلسطينيين المضربين عن الطعام في السجون والمعتقلات الصهيونية.

خاتمة:

بعد العرض المجمل لهذه الزيارة المفعمة بالحيوية، والتواصل مع قطاع مهم من شعب حر، بذل التضحيات، وصبر بجلد لنيل حريته، والخلاص من الاستعمار والعبودية، تعزز لدينا الأمل بالخلاص من الظالمين وبطشهم، ونير احتلالهم لأرضنا ومقدساتنا، فلا بد للفجر أن يبزغ، وللشمس أن تشرق، وللقيد أن ينكسر، ووجدنا اهتماماً بالغاً بقضيتنا الفلسطينية، وبخاصة قضية القدس والمسجد الأقصى، وليس أدل على ذلك من وجود مسجد القدس، والمسجد الرابع لأجل تحرير الأقصى، ومتحف فلسطين، في تلك المدينة العريقة كيب تاون، إضافة إلى مشاعر المستضيفين المتدفقة، التي كانوا يعبرون عنها بالألفاظ والحركات والمشاهد، والحرص على التواصل مع القادمين من أرض الإسراء والمعراج، والتقاط الصور معهم، راجين الله جل في علاه أن يهيئ لنا ووطننا وقدسنا ومقدساتنا حرية عاجلة، لا تقل في قدرها ومستواها عن الحرية التي نالها شعب جنوب إفريقيا الصديق والحر، والذي ما زال وحكومته وقيادته يناصرون قضيتنا، في وقت عز فيه النصير.

أيتها الشقائق حسبكنَّ

حقوق المرأة وظلمها، ومعاداتها، ومناصرتها، والحاجة إليها، ودورها في الحياة، ومكانتها فيها، وغير ذلك من قضايا شقائق الرجال، يخوض الناس في تفاصيلها بأقلامهم وألسنتهم ومواقفهم، كل بطريقته ومنهجه، وفي كثير من الأحيان تتناقض المقولات النظرية مع التطبيقات العملية، فما يسمع من معسول الكلام، يُتبع أحياناً بلسع الثعبان، وأمام هذا الواقع ينبغي التأكيد على مبادئ تنطلق منها المواقف الشرعية من قضايا المرأة، بغض النظر عن أي مزاجيات، أو أغراض، لهذه الفئة أو تلك، من صنف النساء أو الرجال، فالمسألة شرعية بامتياز، والفصل فيها يكون للشرع، وليس للأهواء، ومن أحسن من الله قيلاً، وهو القائل سبحانه: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (الشورى:10)

منطلقات للموقف الشرعي من قضايا المرأة:

من أبرز المبادئ التي يستند إليها الحديث عن قضايا المرأة في ضوء ما هو ثابت في الشريعة الإسلامية الغراء، التي يدين بها أبناء الأمة المسلمة ذكوراً وإناثاً، ما يأتي:

الذكر والأنثى خلقا مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ: حيث يقول الله عز وجل:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} (النساء: 1)

وتمت الإشارة إلى هذه الحقيقة الخلقية في عدد من الآيات القرآنية، ففي سورة الأنعام، يقول تعالى:{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} (الأنعام: 98)، وفي سورة الأعراف يقول عز وجل:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (الأعراف: 189).

وفي سورة الزمر يقول جل شأنه:{خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر: 6)

ومن أبرز دلالات الخلق من نفس واحدة، والتأكيد القرآني المتكرر لذكر هذه الحقيقة، التعامل مع الجنسين بمستوى الاحترام والتقدير والعدالة نفسها، فالله خلق أصل البشر من طين، ثم صار التناسل من ماء مهين، مصداقاً لقوله جل شأنه: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} (السجدة:7 - 9) ولا بد من اجتماع المرأة والرجل لاستمرار التناسل البشري وبقائه، فهو يتكون منهما، مصداقاً لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: 13)، والنفخ في الإنسان من روح الله، يشمل جنسيه الذكر والأنثى، فلا الذكر وحده يكفي للتناسل، ولا الأنثى وحدها تكفي لذلك.

وأدوار الذكور والإناث تتكامل، وتندمج بصورة عجيبة، والله تعالى يشير إلى هذا الاندماج بوصف كل من الزوجين بأنه لباس للآخر، فيقول عز وجل:{أُحِلَّ لَكُمْ

لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (البقرة: 187) فليس محض صدفة ولا عبث أن خُلِقَ الرجل والمرأة بجسمين مختلفين، يتشابهان في أجزاء، ويختلفان في أخرى، والعجيب أن كلاً منهما يحتاج إلى الآخر ويحن إليه، ويتطلع للاندماج به، والتناسل يتم بلقاء بين ذكر وأنثى، يساهم كل منهما بأداء مهمته فيه، بطريقة فطرية، لا تكلف فيها ولا عناء، وقد كنى القرآن عن هذه العملية الجنسية بقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}، فالله جل في علاه غطى وأخفى في هذا الأسلوب ما يُستحى منه، وأبرزه بلباسه في التشبيه، بما يُتقى به، ومدى مطابقة معنى اللباس لحاجة كل من الزوجين للآخر.(*)

المرأة تتكامل مع الرجل في أداء الواجبات العامة والخاصة، وتتشارك مع الرجل في أداء المهمات الحياتية، على نحو تكاملي، في مجالات حياتية عديدة، بسيطة ومعقدة.

احترام حياة الإنسان وكرامته:

يظهر سمو النظرة الإسلامية للمرأة في صور ومجالات كثيرة، فإضافة إلى الإقرار بتساويها مع شقيقها الرجل في أصل الخلقة، فإنها تتساوى معه في صون الحياة والكرامة، فالإسلام يحترم حياة الإنسان وكرامته، بغض النظر عن جنسه ولونه، فيقول تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء:70) وأنكر الإسلام أيما إنكار الاعتداء على حياة الإنسان البريء، وعدّ من يقترف ذلك كأنه معتدٍ على الناس جميعاً، فقال عز وجل: {مِنْ أَجْلِ

* أضواء البيان، 8 /66.

ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} (المائدة: 32) وقوله تعالى: {نَفْساً} يشمل الذكر والأنثى، فلا وجه لتخصيص أحدهما أو استثناء الآخر، وحرَّم الإسلام قتل الأولاد، فقال تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} (الإسراء: 31)، وهذا التحريم يشمل الذكور والإناث، فلم تحصر الآية الكريمة تحريم قتل الأولاد بذكورهم دون إناثهم، وقد سجل الإسلام سبقاً منقطع النظير في الانتصار لحياة النساء، فشنَّ حرباً غير مسبوقة على جرائم قتلهنَّ، فبكَّت القرآن الكريم وائدي البنات، بأسلوب مثير وصارم، فقال عز وجل: {وَإِذَا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} (التكوير: 8 - 9)

وينسحب هذا التبكيت على المتهاونين في قتل النساء اليوم، بدوافع الحمية للشرف المزعوم، أو التغطية على جرائم سلب الحقوق، وارتكاب الفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

النساء لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، كما الرجال لهم حقوق وعليهم واجبات:

يُقر الشرع الحنيف بحقوق كل من الذكر والأنثى المشتركة منها والخاصة بكليهما، ويكلفهما بواجبات، ويشمل ذلك ميادين العلاقات جميعها، ومنها العلاقة الزوجية، والانفكاك عنها، والله تعالى يقول:{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ} (البقرة: 228) وعند منح الرجل حق القوامة، ربطه الله بتكليف يتلخص في تحمل مسؤولية الإنفاق، فقال عز وجل: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ...}(النساء:34)

وساوى الإسلام بين الجنسين في التكاليف والتحلي بالقيم، فالمرأة تتساوى مع الرجل في تكاليف كثيرة، كالإيمان، والإسلام، وأداء العبادات، والتحلي بالأخلاق والقيم، ولما أثنى الله عز وجل على الملتزمين بدينه، ذكر الجنسين على وجه التفصيل، فقال عز وجل: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب:35)

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يُذْكَرُ الرِّجَالُ وَلا يُذْكَرُ النِّسَاءُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} (الأحزاب: 35)، وَأَنْزَلَ {أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} (آل عمران: 195]).(*)

فالله عز وجل ذكر في هذه الآية الكريمة عشر صفات حميدة، شاملة مشتركة بين النساء والرجال، يجد الممعن فيها مساواة رفيعة بين الجنسين في مجال القيم والمبادئ والجزاء، وكان يمكن الاكتفاء بذكر عام يشمل الجنسين، كما هو الغالب في الخطاب الديني، إذ غالباً ما يقصد الجنسين في مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة: 153) وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. (البقرة: 21)

والمساواة بين الجنسين في الثواب والعقاب، لها شواهد قرآنية كثيرة، فالثواب على الأعمال الحسنة تتساوى في نيله المرأة مثل الرجل الذي يؤديه، مصداقاً لقوله عز وجل: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} (آل عمران:195)

---

* المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2 /451، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي عقوبة الزنى يقول عز وجل:{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}(النور: 2)، ويقول تعالى: {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً} (النساء: 16)

وفي عقوبة السرقة، يقول تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (المائدة: 38)، فالقرآن ينص على المساواة بين الجنسين في الجزاء على البر والإحسان، وكذلك على المعاصي والآثام.

ضابط الانتصار لحقوق الشقائق:

ما سبق التعريج عليه من منطلقات الموقف الشرعي من قضايا المرأة ليس سوى عينة من مرتكزات الموقف الشرعي من هذه القضايا، كما نصت عليها آيات القرآن الكريم، التي نزل بها الروح الأمين، على قلب النبي الأمين محمد، صلى الله عليه وسلم، وأي خروج عن هذه المرتكزات، يندرج في خانة مجانبة الشرع، سواء تعلق هذا الخروج في مجالات هضم حقوق المرأة وامتهانها، أم في مجالات القفز عن مبادئ الشرع وأحكام الإسلام، إلى عالم أهواء البشر.

فلا الهاضمون لحقوق المرأة مصيبون، ولا القافزون إلى عالم الحريات المفرطة والمساواة المطلقة، موفقون، فالخطأ لا يعالج بخطيئة، وإنما بدواء ناجع قويم.

فالمرأة المنادية بحقوقها المشروعة ينبغي أن تُساند وتُؤازر، انطلاقاً من إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والمنادون بمخالفة حكم الله في قضايا المرأة والرجل، لن يجدوا آذاناً صاغية من شرائح واسعة في مجتمعاتهم، من الذكور والإناث على حد سواء، فلو أُجرِيت استفتاءات موضوعية وشفافة لجماهير النساء في المجتمعات المسلمة، حول قضايا نصَّ عليها الشرع، كمسائل الميراث مثلاً، فالمتوقع أن تفوز المطالبة بتطبيق حكم الشرع على غيرها من الخيارات والبدائل، إذ كيف ستقترع المرأة التي تؤمن بالقرآن

الكريم لصالح بديل عنه، وهي تقرأ فيه قول الله جل في علاه: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}(النساء: 65)، وتتلو قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}. (النساء: 59)

فليس من حق المتصدين للتغيير أن يتنكروا لعقائد الذين يطالبون بحقوقهم وقيمهم، يستوي في ذلك الذكور والإناث، فالمرأة الراضية بحكم الله، وتتوق أن تستظل به، تلتقي مع الرجل الذي ينشد ذلك، وتتقاطع معه في رد الأمور صغيرها وكبيرها إلى الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، إيماناً منهما بأن هذا الخيار خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً.

خاتمة:

في ختام هذه الكلمة المجملة عن الموقف الشرعي من حقوق النساء، شقائق الرجال، تجدر دعوتهن للتروي في خطواتهن التحررية، واختيار مطالبهن، بدلاً من خلط الأوراق، غثها بسمينها؛ لأن مؤازرتهن واجبة شرعاً، فيما يُصوبُ الأمور، نحو التحرر من منظومة هضم الحقوق المشروعة، ومن عبودية لم ينزل الله بها سلطاناً، لكن المناداة بما يخالف حكم الله وشرعه الحنيف، الثابت في كتابه سبحانه، أو سنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، لن تجد توافقاً ولا دعماً من صنفي مؤمني الرجال والنساء عامة، إذ الحكم لديهم أولاً وأخيراً، في هذا الشأن وغيره، لله دون سواه، فمن أراد النهوض من الكبوات، وتحقيق العدالة والإنصاف، عليه بشرع الله، المنزل من لدن عليم حكيم خبير، فحسبكنَّ معشر الشقائق حكم الله دون سواه، إذ حاشاه سبحانه أن يحابي جنساً من خلقه على آخر، وفي كتابه الكريم سورة من طوال السور القرآنية، اختار أن يسميها النساء، وأطلق على سورة أخرى من سوره، اسم امرأة، وهي مريم، عليها السلام.

ولما ضرب الله المثل لأهل الجنة والنار اختار بعض الشقائق، فقال عز وجل:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ*وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}. (التحريم: 10 - 12)

آملين أن تصل مرامي هذه الكلمة ومضامينها إلى عقول قارئيها وقارئاتها وقلوبهم، ليلتقي الذكور والإناث على كلمة سواء، ينبذون بموجبها العنف الظالم الموجه لأي منهما، ويرفضون الإجحاف الجائر للمبادئ الشرعية التي تحميهما، والمؤكدة على أن النساء شقائق الرجال، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

نفحات من آمال العام الدراسي الجديد وآلامه

عاد الطلبة إلى مقاعد الدراسة على مختلف مستوياتها، ليبدأوا عاماً دراسياً جديداً، والبلاد تختلف سماتها خلال دوام الطلبة، عنها حين يكونون في عطلة الفصول الدراسية، فالشوارع بعد العودة للدراسة تزدحم بحركة الطلاب ووسائل تنقلهم، وكثير من التغيرات تحدث في البيوت والنوادي والملاعب والأسواق في الحالين، والمهم هنا ليس هذا، وإنما الوقوف عند ثمار التحاق الطلبة بمؤسسات التعليم، وأهمية ذلك لهم ولأسرهم ومجتمعهم، والعقبات التي تواجههم خلال دراستهم، وتعرقل تحصيلهم العلمي المنشود، وتلك التي تؤرق مضاجعهم وذويهم بعد تخرجهم، وتحاول هذه الكلمة الوقوف عند بعض ثمار التعلم، ومعوقاته وعرقلة جني حصاده.

أهمية طلب العلم وجدواه:

إذا كان الناس عامةً يهتمون بالعلم وتلقِّيه من خلال الالتحاق بمؤسسات التعليم، فإن اهتمام المسلمين بذلك ينبغي أن يكون مميزاً، استناداً إلى الحث على العلم، والإشادة به، وبالعلماء، في ضوء ما جاء به الإسلام من توجيهات وأحكام، فالله تعالى يقول: {...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}(الزمر:9)

ويقول جل شأنه: {...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (المجادلة:11)

وأول آية قرآنية نزل بها الوحي الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، أمرته بمتعلق مهم من متعلقات العلم، وهو القراءة، فقال عز وجل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}(العلق: 1 - 5)

ومن أنعم الله عليهم بالهدى يسألونه الاستزادة من العلم، استجابة لأمره سبحانه: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}(طه:114)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، بلغت إشادته بالعلم أن جعل لسالكه طريقاً إلى الجنة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)(*)

وللعلم جدوى تعود على المتعلمين ومجتمعاتهم، فالفجوة شاسعة بينه وبين الجهل، وقد أصاب القائل:

العلمُ يبني بيوتاً لا عمادَ لهــــــــــا *** والجهل يهدم بيتَ العزِّ والكـــــــرمِ

عقبات تواجه الطلبة وتعرقل تحصيلهم العلمي المنشود:

يلتحق الطلبة بمقاعد الدراسة منذ نعومة أظفارهم، ليتعلموا القراءة والكتابة وعلوماً أخرى، وفق مناهج دراسية، أعدت لكل مرحلة دراسية بما يناسبها، وإضافة إلى ذلك يتلقى المتعلمون تربية سلوكية تؤهلهم بسلاح قويم لمواجهة حاجات الحياة،

* صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

والاندماج الاجتماعي بصورة يفترض أن يتميزوا بها عن الذين لم يوفقوا لتحصيل العلم والتربية من مؤسسات التعليم، وعادة ما يندمج المتخرجون من مؤسسات التعليم في شرائح مهنية حسب تخصصاتهم، وخلال تلقيهم التربية والتعليم في مختلف محطات التعليم، تواجههم صعاب ومعوقات تعترض سيرهم، فيلقون المشاق والمتاعب، التي تحول في بعض الأحيان دون تحقيق النتائج المرجوة لهم ولأسرهم ولمجتمعهم، ومن أبرز تلك المعوقات **الفقر المادي**، ومن آلام العام الدراسي الجديد متطلباته المالية، التي ترهق كاهل صاحب العيال، والإيرادات المحدودة، فالطلبة يحتاجون إلى رسوم دراسية، وثمن قرطاسية، وملابس، وأدوات للدراسة والنشاطات، ومصروف جيب يومي للتنقل وغيره، ومن كان لديه عدد من الطلبة يلزمه توفير حاجاتهم المالية، التي تجب تلبيتها لهم، حتى لا يشعروا أنهم معوزون أمام أترابهم وزملائهم القادرين.

وبسبب الصعوبات المالية يترك بعض الطلبة مقاعد الدراسة، ليلتحقوا بسوق العمل البدني مبكراً، بهدف جمع ما يتيسر من مال لمعيشتهم وحاجات أسرهم، ولذلك أسباب، منها فقر أسرهم، أو فقد معيل الأسرة، بسبب موته، أو تعطل إنتاجه، بسبب المرض أو الاعتقال، ما يضطر بعض الأبناء، وغالباً ما يكونون من كبارهم، لترك مقاعد الدراسة لتأمين مبلغ مالي يسد بعض رمق أسرهم، فكم من طالب ذكي، ومستواه التعليمي جيد، تعرض لمثل هذه الظروف، وانتهى به المطاف إلى هجر مقاعد الدراسة، رغم حبه لها، وطموحه للتخصص في مجالات علمية يهواها؛ بسبب ضيق ذات اليد، وحاجة والديه وإخوانه إلى العون المادي.

ومن المعوقات التي تعترض مسارات التحصيل العلمي **الظروف السياسية السائدة**، التي يسودها الجور والظلم والقهر، ما يجعل بعض الطلبة يختارون الرضا بالعمل اليدوي المبكر على الانشغال بالفكر والثقافة، هروباً من الخوض في النطق

بالحق، ومساندة التصحيح المطلوب لمجتمعاتهم، وتندرج تحت هذا السبب بشكل بارز ظروف الاحتلال للأرض، وما يتبع ذلك من قوانين المحتل العسكرية التي تكبت الحريات، وتلاحق الأحرار بسياطها وظلمها، وتقمع الأحرار المطالبين بالحرية لشعوبهم وأوطانهم، فمن ينجو من القتل منهم، يقبع وراء القضبان أسيراً، أو خارج دياره مبعداً، ليس لشيء سوى أنه صاحب فكر مستنير، وقلب متقد بحرارة حب الوطن، وعشق الحرية.

ومن معوقات الدراسة أيضاً **عقم مناهج التدريس، وتخلف أساليب التربية والتعليم**، فالمتقدمون من الناس وصلوا مستويات راقية من تحديث المناهج ومواكبتها لروح العصر ومتطلباته، واستخدموا تقنيات متطورة للغاية في التعليم وأساليبه، بينما المتقوقعون يغرقون في بحر لجي من ظلمات الماضي، وما زالوا تقليديين في مناهجهم وأساليب تعليمهم، وما زال جل تدريسهم يقوم على التلقين والإلقاء والتحفيظ، ودور الطلبة ينحصر معظمه في مجال التلقي الجامد، ما يجعل الطالب يخسر سنوات من عمره أسيراً لظروف تعليمية عقيمة، فيخرج في نهايتها بشهادات تخرُّجٍ دون تحصيل حقيقي للمستوى التعليمي المنشود.

ومن معوقات التعليم أيضاً **التربية الأسرية النمطية**، التي ينحصر اهتمام أربابها في الطموح لتحصيل الشهادات البراقة، بغض النظر عن مستوى التحصيل الحقيقي الذي جنوه من ورائها، ما يجعل التعليم في مثل هذه الأجواء أجوفَ، شكلاً بلا مضمون، وثمراً بلا نكهة ولا طعم.

ومن المعوقات المهمة للتعليم **المبالغة في التوقعات من الطلبة**، دون مراعاة قدراتهم، وإلزامهم بتعلم ما لا يرغبون فيه، فبعض الطلبة يلتحقون بدراسة موضوعات يرغب فيها أهلوهم، وهم يريدون غيرها، ما يجعلهم يدرسون بكلل وملل، بخلاف الذين يلتحقون بدراسة تناسب رغباتهم، وتلبي طموحاتهم.

مؤرقات مضاجع الطلبة وذويهم بشأن مشكلات ما بعد التخرج:

إذا كانت هناك معوقات تعترض مسيرة التربية والتعليم، ودراسة الطلبة، فإن المسؤولية عنها تتوزع بين الطلبة أنفسهم، وعائلاتهم، ومؤسسات التعليم التي يلتحقون بها، والجهات المسؤولة عن المناهج التي يدرسونها، والمجتمع المحيط بهم، وظروفه العامة على اختلاف أنواعها، السياسية والاقتصادية والفكرية، فإن مؤرقات أخرى تقض مضاجع الطلبة خلال تلقيهم العلم، ومن بعد تخرجهم من مؤسساته، وهم يحملون شهادات التخصص على اختلاف أنواعها ومستوياتها، ومن أبرز تلك المؤرقات **البطالة التي تنتظرهم، وضآلة فرص العمل**، التي تتنافس على الواحدة منها أعداد هائلة من المتخصصين في مجالها، هذه المشكلة أضحت حديث المجالس، وهموم الشباب الدارسين والمتخرجين، ما يستلزم من المجتمع وهيئاته والمسؤولين فيه أن يكدِّوا في البحث عن حلول خلاقة لهذه المعضلة الصعبة، ولن يعذر أحد اكتفى بشبك الأيدي وربطها، أو وضع الرأس بينها، تعبيراً عن الحيرة والقلق، فالخطب جلل، والأمر عسير، تتعرض له شرائح الخريجين، ويحتار لأجلها ويقلق أهاليهم، فكم من حَمَلَةِ الشهادات العليا دون عمل، أو يعملون بِحَرفٍ في غير مجال تخصصاتهم، وبظروف قاسية، ودخل محدود، ما يعني أن هذا الألم صعب ومرير، كان يؤرق المضاجع في أعوام دراسية سابقة، وما زال، بل ازداد عنفوانه، والناس حياله في الغالب سلبيون، منهم المتجاهل له، ومنهم المتحدث عنه على سبيل الوصف والتشريح فحسب، ومنهم من يرفع الصوت محتجاً عليه، لكن القليل منهم كما يبدو من يخططون للخروج به من الظلمة إلى النور، وقليل منهم من يعمل المطلوب لبلسمة جراحه، ومداواة وجعه، إلا من رحم ربي، وقليل هم.

ومن مؤرقات مضاجع الطلبة وذويهم بعد التخرج، **الحصول على شهادات دون كفاءة للعمل**، كما يقال: (الماء يكذِّب الغطاس)، فما فائدة التخرج بشهادة مسماها كبير، وعند العمل بها، لا يتحقق الإبداع والتميز، في عالم التنافس فيه على نيل المكانة والحظوة بالنجاح ضيق، فعلى سبيل المثال، يحتاج من يدرس الطب اليوم إلى سنوات عجاف من الدراسة والتخصص بعدها، والتدرب، والهمة، والنشاط، والمتابعة العلمية لكل جديد في مجال التخصص، ليتحقق النجاح للطبيب، ونيل ثقة المرضى والمجتمع، فقد ذهب زمان كتابة العديد مما هب وطاب من التخصصات على يافطة الطبيب وبطاقته، وصار الناس، بل صارت الظروف والأمراض تقتضي التخصص المميز في مجال طبي محدد ودقيق للغاية.

ومن مؤرقات مضاجع طلبة العلم بعد تخرجهم **التمييز بينهم حسب أهواء العامة والمشهور بين الخاصة**، فلا ينال الحظوة والتقدير بعض العاملين في مجالات لا بد منها لاستمرار مسيرة التعليم، مثل الذين يتخصصون في مجالات تحدق نحوها الأنظار، وإذا خضع الجميع لسلم الرواتب، تجد البون شاسعاً بين فئات الخريجين، ما يضطر بعضهم إلى النفور من الالتحاق بدراسةٍ يكون مؤداها العيشَ في فلك الفقر والفاقة والحاجة المستمرة، حتى إن بعض المهن لها نقابات خاصة بها تدافع عن حقوق الملتحقين بها، ومهن واسعة وعريضة، لا تجد لها نقابة، ولا عيشاً مأمولاً له سعة.

قطرات من معين التصحيح المطلوب:

في ضوء ما تقدم من نفحات آمال العام الدراسي الجديد وآلامه، التي تم التعرض لعينة متيسرة منها، بصورة يغلب عليها الإجمال والاقتضاب، نخلص

إلى تقديم بعض مقترحات المعالجة المطلوبة لتعزيز الآمال، وتضميد جراح المؤرقات، والتخفيف من لهيب سعيرها، وذلك وفق القطرات الآتية، المستقاة من معين التصحيح المطلوب:

التخطيط السليم: لنجاح أي عمل، مهما كان مستواه، لا بد من تخطيط سليم يناسبه، والتعليم العام والخاص، لا بدَّ له من تخطيط من قبل الجهات المسؤولة عن التعليم وسوق العمل، ومن الطلبة وذويهم، فلا بد من دراسة الواقع ومتطلباته وحاجاته لاختيار المناهج والتخصصات التي تناسبه، والتي تجد مجالاً للعمل بها، حتى لا يطلب العلم لمجرد حمل شهادات، لا تسمن ولا تغني من جوع.

توقعات منطقية وواقعية: التوقعات الزائدة عن حجم القدرات ومستواها تنذر بفشل ذريع، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وحتى تنجح الآمال لا بد من أن تكون واقعية ومقدوراً عليها، فأبو ذر، رضي الله عنه، لما طلب الإمارة، على الرغم من مكانته بين الصحابة، ومنزلته العلمية والدينية، قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ)(*) فلكل إنسان قدرات وطاقات ومواهب، إذا كانت طموحاته ضمنها، فيتوقع منه النجاح، أما إذا تعدتها؛ فالإحباط والفشل متوقعان؛ لأن المركبة ذات المحرك الخاص بطاقة بسيطة تفشل في أداء دور المركبة ذات المحرك الكبير، المعدة لأداء مهمات حمل الأثقال الكثيرة.

فلا بدَّ للطالب من اختيار تخصص يناسب طاقته ورغبته، ولا بدَّ للأهل ومؤسسات التعليم من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند الضغط على الطالب لتحقيق نجاح باهر، وتفوق عظيم، وهو غير مؤهل له، أو عند الطلب منه التخصص بدراسة موضوع لا يرغب فيه، ولا ينسجم مع طموحاته.

---

* صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

تقدير منصف ومكافآت عادلة: صحيح أن الله جعل الناس درجات، مصداقاً لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}(الأنعام:165)

لكن ينبغي تجنب الشطط في التفريق بين التخصصات وأصحاب المؤهلات العلمية، ليكون الفرق بينها منطقياً وعادلاً، وليس شاسعاً إلى حدّ أن يحظى بعض أصحاب التخصصات والمؤهلات برغد العيش، وآخرون ممن قضوا سنوات عجافاً في الدراسة لا يجدون من رواتبهم وأجورهم ما يسد رمقهم، ويحقق لهم أبسط متطلبات العيش الكريم، فالمطلوب حد أدنى للأجور، يتحقق منه تحصيل العيش الكريم، فيما يخص مجالات الحياة المختلفة، من ناحية المطعم والمشرب والزواج والسكن والعلاج والتنقل، ثم لتكن بعد ذلك فوارق عادلة، لا تجحف بحق بعض الناس، وتغالي في تعظيم تقدير بعضهم الآخر.

تعاون مضطرد بين الجهات ذات العلاقة: تلقِّي التعليم، وخوض غمار العمل بناء على الشهادات العلمية والتخصصات الأكاديمية، أمر في غاية الأهمية، ومجتمعنا يتميز في العناية بهذا الجانب إلى حد يفوق كثيراً من المجتمعات، وحتى يتناسب التعليم وطلبه وحمل شهاداته وتخصصاته مع سوق العمل ومتطلباته، لا بدَّ من تعاون وتنسيق بين الجهات ذات العلاقة بالتخطيط للتعليم والعمل، فالله تعالى حثَّ على التعاون في مجالات الخير والدعوة إليه، فقال جل شأنه: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(آل عمران:104)

ومن التعاون المطلوب بين الجهات المسؤولة عن التعليم، تشجيع التخصصات المطلوبة، وإغلاق الأخرى المتخمة بحاملي شهاداتها، فالأمر بحاجة إلى تعاون بين

الجامعات ووزارة التربية والتعليم العالي، وبين الجامعات ومعاهد التعليم العالي، وبين وزارة العمل، ووزارة المالية والتخطيط، لتنسيق الخطوات والأدوار والمواقف والقرارات، حتى لا تحدث البطالة المرعبة في بعض مجالات العمل، وبشأن بعض مجالات التعليم والتخصص، في مقابل ما يمكن أن يحدث من قصور في تلبية حاجات مجالات أخرى، الإقبال عليها ضعيف، أو دون المستوى المنشود.

مواكبة جادة لتطورات مناهج التعليم وأساليبه وتقنياته:

التطور التقني يتسارع في الحياة الحديثة في مجالاتها كافة، والتعليم بخاصَّةٍ، يعيش هذا التسارع في صلب قضايا التعليم ومضامينه وأساليبه ووسائله، ما يعني ضرورة مواكبة هذه التطورات في المناهج وطرائق التعليم، بصورة جادة وفاعلة، دون الاكتفاء بمجرد الشكليات والشعارات، وطرح الخطط الطموحة دون متابعة تنفيذها على أرض الواقع، وتعزيز الناجح، وتعديل الفاشل أو المخفق منها.

أجواء بيئية مناسبة: حتى ينجح التعليم في إيتاء أكله، لا بدَّ من تهيئة الأجواء المناسبة لتلقيه، سواء في رحاب مؤسساته، أم داخل الأسر والبيوت، أم في نطاق المجتمع الرحب، فالعلم يحتاج إلى تشجيع وتحفيز من القائمين على تلك الجهات، وبحاجة إلى أن يُنظر إليه على أنه قيمة رفيعة وسامية، جديرة بالعناية والرعاية والاهتمام.

فهذا بعض ما وفق الله للوقوف عنده من نفحات آمال العام الدراسي الجديد وآلامه، عسى أن يكون بعرضها، والإشارة إلى بعضها، والتذكير بها نفع للطلبة، وذويهم وأصحاب العلاقة بالتعليم والمناهج والتخطيط لذلك، مع انطلاق قطار العام الدراسي الحالي، الذي يرجى أن يكون عام خير وبركة على طلبتنا وذويهم ووطننا الغالي.

تأملات في مبادئ الخطاب الديني المنشود وتصوراته

المهمة الأساس للأنبياء والمرسلين، تتمحور حول أداء التبليغ عن الله للناس، ومن الآيات القرآنية التي تخبر عن هذه المهمة التكليفية، قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (البقرة: 213)

ومنذ أن بعث الله نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، أمره بتبليغ دينه للعالمين، فأنزل على قلبه آيات محكمات بهذا التكليف المقدس، فقال جل ذكره: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ} (المدثر:1 - 2) ونطق لسانه، صلى الله عليه وسلم، بهدف بعثته، وعبّر حاله عن قيامه بما يحقق هذا الهدف، وعلى لسانه نزل القرآن، يثبت استيعابه، صلى الله عليه وسلم، لأهدافه الدعوية، فقال تعالى: {... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}(الأنعام: 19)، وبدأ صلى الله عليه وسلم، دعوته مستهدفاً عشيرته الأقربين، فبشرهم، وأنذرهم، لعلهم يتقون، وكان هذا البدء بتوجيه من رب العالمين، حيث كلفه الله بهذه المهمة في خطابه الكريم: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}(الشعراء: 214) لكنه واجه منهم المصاعب والمتاعب، على الرغم من افتراض أن يكون منهم القبول والتأييد حسب معايير البشر، فالناس يقفون وراء ابن العشيرة؛ لتكون له صولة ومناصب عليا،

ليفاخروا به، وينتفعوا من نفوذه، لكن الأقربين هنا وقف جلُّهم يعادون النبي، صلى الله عليه وسلم، بل يحاربونه، حتى هاجر من موطنه الذي واجه أذاهم فيه، وانطلق يبلغ دعوته للعالمين، فكان الانتشار الواسع للإسلام، حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، ولا يكاد جزء معتبر في العالم يخلو من أتباعه، والناس جميعاً حتى تقوم الساعة يستهدفهم دين الإسلام بالهداية والدعوة، على نهج نبيه، صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه الله ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، والقيام بهذه المهمة للعالمين، يلزمه حسن اختيار الوسائل والأساليب، التي منها اللفظي والفعلي، وبخاصة إنه مع تطور الحياة، وتعدد مشارب الناس ولغاتهم، واختلاف مستويات عقولهم وإدراكهم، أصبح انتقاء القالب الدعوي مهماً جداً، فالقالب غير المناسب يسيء للمضامين الجيدة، كصاحب الجسم الجميل، لكنه يرتدي أسوأ الملابس، أو التي تبشّع مظهره، وهنا قد يقول قائل: إن أروع الأساليب التي تنتقى لبث الدعوة ونشرها لا تجدي مع كثير من الناس أو بعضهم، وهذه حقيقة واقعية مشاهدة وملموسة، حتى إن الله تعالى يقول: {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (يس: 10)، ويقول جل شأنه: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف: 103)

لكن الفرق كبير بين أن يساء إلى الإسلام والدعوة إليه، بسبب سوء الخطاب المستخدم في التبليغ، وبين أن يحسن الخطاب، ويعرض الناس عنه استكباراً وعناداً وجحوداً، فالحال الأول فيه تقصير من المسلمين، والدعاة إلى الإسلام، أما الثاني، فالنتائج فيه ليست بيد العباد، وإنما بيد ربهم، من هنا فإن المسلم الذي يدعو إلى الإسلام على بصيرة، وبخطاب شرعي فاعل، يعزِّي نفسه، ويعذر عند الله، وهو القائل جل شأنه: {وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الأعراف: 164)

فالخطاب الديني لا يتحمل وزر الضالين عن الصراط، إذ إن أمر الهداية والضلال بيد الله دون سواه، وهو القائل سبحانه: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (فاطر: 8)

هذه المقدمة تهدف إلى التذكير ببعض المبادئ التي تقوم عليها الدعوة إلى الإسلام، فهي دعوة واجبة، تقلد حمل مسؤوليتها الأنبياء، ثم أتباعهم من ورائهم، وأمر قبولها من الناس أو رفضها، مرهون بقدر الله وقضائه، لكن اختيار الخطاب الحسن لها مطلوب، بل واجب شرعي، ينبغي الانتباه إليه، والاهتمام فيه، ومراعاة المواظبة عليه.

الخطاب الديني الخاص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وجود الأخطاء والذنوب والمعاصي من الناس برهم وفاجرهم، أمر متوقع، لكن السكوت عن وقوع الخطأ مع القدرة على تغييره، يتنافى مع المهمة التكليفية التي أوكلها الله تعالى للمؤمنين، حيث يقول تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (آل عمران: 104).

ولما أثنى الله على المؤمنين، نوَّه بصفاتهم وخصائصهم، التي من أبرزها بالإضافة إلى الإيمان قيامهم بأداء مهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعن هذا يقول جل شأنه: {يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران: 114) كما أن الله تعالى أثنى على المؤمنين والمؤمنات الذين يقومون بأداء هذا الواجب الشرعي، فقال جل ذكره: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: 71)

ومهمة الأنبياء والمؤمنين من ورائهم، سواء ما تعلق منها بالدعوة الكلية إلى الله ودينه، أم ما تعلق بحمل لواء تصحيح الانحراف عنه، وتعزيز العمل بموجبه، يلزمها في الأحوال كلها خطاب قولي وعملي، يُحسن إلى الدين، ويصرف عنه التشويش والإساءة، ومن خير الأدلة الشرعية التي تدعو إلى حسن اختيار الخطاب الديني، قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل: 125)، إذ حثّت هذه الآية الكريمة على العناية باختيار أسلوب الخطاب الديني، بتحديد ضوابطه وأوصافه، فهو خطاب يقوم على الحكمة، وليس على التخبط، ويقوم على الموعظة الحسنة، وليس على الغلظة والفظاظة المنفرة، حتى في حلقات النقاش وساحات الجدل الفكري على الشاشات والهواء، أو على صفحات الكتب والمجلات والصحف، وفي غير ذلك من المواقع الأخرى، ينبغي أن يكون عماد الحوار حسن المخاطبة، وانتقاء الأساليب المؤثرة، وليس التعصب للذات، ولا الانتصار للنفس، أو الفكرة، أو الفئة والمذهب، فتلك أخلاق الجاهلية التي حذر الإسلام أتباعه منها، ووصفها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأقذع الصفات وأشنعها، فيكفيها أنها دعوى الجاهلية وخبيثة، فعن جابر، رضي الله عنه، قال: (غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ). (*)

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية

أبرز ضوابط تغيير المنكر:

المنكر لم يطلب العمل على تغييره دون ضوابط، فأسلوب تغييره منوط بظروف معينة، منها قدرة المكلف بالتغيير، ومستوى استطاعته، فالناس في ذلك ليسوا سواء، من هنا يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (مَن رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لَم يَسْتَطِعْ، فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَم يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ). (*)

ومن ضوابط تغيير المنكر أن لا يتسبب في حدوث منكر أكبر، فإثارة الفتنة في المجتمع، والتسبب في الاقتتال والتناحر، يكون شرها أعظم من وجود كثير من المنكرات التي يرتكبها بعض المنتسبين إلى شرائح معينة فيه، وبخاصة أولئك الذين يملكون زمام الأمور، أو قوة التأثير، ولديهم وسائل البطش، أو أولئك الذين يقودون فئات تتمتع بالقوة، ولها جماهير مساندة، فمنازعة هؤلاء، أو محاولة فرض آراء عليهم، قد تفضي إلى اشتباك معهم، وبخاصة إذا كانوا من غير المبالين بمصالح المجموع، أو من الحريصين على مواقعهم، بغض النظر عن الثمن المطلوب لذلك، في مثل هذه الحال ينبغي أن يبحث عن خطاب ديني ملائم، لا يجامل الباطل من ناحية، ويقلل الخسائر العامة خلال ممارسة الإنكار من ناحية أخرى، من هنا كان التوجيه الرباني إلى موسى وهارون أن يستخدما أسلوب الرفق واللين في دعوة فرعون، وهو الطاغية، وصاحب مشروع منحرف، وأي انحراف وطغيان أكثر من زعمه أنه الإله الذي لا ينبغي أن يعبد سواه! كما جاء في القرآن الكريم عنه: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (القصص: 38)، ورغم هذه البجاحة، فإن الله تعالى خاطب موسى وهارون قائلاً: {اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي* اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ

*صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص...

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى* قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى* قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى* فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} (طه: 42 - 47)، فهذا الخطاب الرباني أنموذج مميز لما ينبغي أن يكون عليه الخطاب الديني البشري في كثير من ظروف الحياة التي يسود فيها الطغيان، ويعم فيها الفجور، ويكثر فيها البطش، خطاب لا يفرط بالمبادئ والغايات النبيلة، ولا يتجاوز حدودها، لكنه مصوغ بأساليب مختارة بعناية فائقة، تهدف إلى أن تصل الرسائل التوجيهية بأقل خسائر، وبأنجع تأثير، مع أقل قدر ممكن من إراقة الدماء، أو إثارة القلاقل، وبخاصة حين يتعلق الأمر بممارسة مهمة التصحيح في الأركان والأوضاع الداخلية للمجتمع، أو حين يوجه التصحيح إلى قيادة المجتمع، ولدى أصحاب القرار والنفوذ فيه، ويخطىء من يظن أن مثل هذه الدعوة إلى تهذيب الخطاب الديني والعناية بانتقائه نفاقٌ، كما قد يحلو لبعضهم أن يتصور، وإنما هي الحكمة في الدعوة التي أرشد إليها رب العالمين، وعمل بمقتضاها الأنبياء والمرسلون، عليهم السلام.

الرفق واللين في الخطاب الديني:

اللين والرفق في الخطاب الديني لا يخرج عن نطاق الحكمة التي لا يمكن بحال قبول التنازل عن مبادئ الدعوة معها، وهي تنطلق من الوعي والبصيرة بغايات الخلق، التي حددها الله عز وجل بوضوح في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: 56)، وبناء عليه لا مجال للمهادنة، أو المساومة في هذا المجال، وما ينبثق عنه من مبادئ، مثل الإيمان بأن الله ختم الرسائل السماوية برسالة الإسلام، ولن يقبل للخلق ديناً بعده سواه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(آل عمران: 85)

ومما يجب التأكيد عليه دائماً أن العمل بضوابط تغيير المنكر، لا يعني تشريع استباحة محظورات يمنعها الدين، أو الدعوة إليها بما هبَّ ودبَّ من الأساليب المقيتة، فالحكمة ضالة المؤمن الذي يحمل رسالة سامية، فينبغي أن تكون وسائله سامية كذلك، حتى لا يكون ممن يشوه صورة الإسلام في مخاطبة الناس به، والدعوة إليه، وقد أثنى الله على رسوله، صلى الله عليه وسلم، نجاحه في استقطاب قلوب الناس إليه برحمته ورفقه، فقال جل شأنه:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: 159)، وما بعدت مواقفه، صلى الله عليه وسلم، عن معايير الرفق في خطابه الديني، ومن ذلك رفضه أسلوب إيذاء المصلين بطول الصلاة، وحين بلغه وقوع مثل هذا الأذى قرّع فاعله، كما جاء في الحديث الصحيح، عن جَابِرَ بن عبد اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ، قال: (أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ، وقد جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ، وَأَقْبَلَ إلى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، أو النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا، نَالَ منه، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَشَكَا إليه مُعَاذًا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: يا مُعَاذُ؛ أَفَتَّانٌ أنت - أو أفاتن -؟ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بسبح اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَى، فإنه يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ، وَالضَّعِيفُ، وَذُو الْحَاجَةِ). (*)

تجنب إراقة الدماء:

عبرّ صلى الله عليه وسلم، عن حرصه على تجنب إراقة الدماء، خلال مخاطبته الناس بالدين، وقيادته عملية التغيير المجتمعي، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومن شواهد ذلك أنه لما خَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حتى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ خَالِدَ بن الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَ اللَّهِ ما شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ، حتى إذا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ،

* صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من شكا إمامه إذا طول

فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بِالثَّنِيَّةِ التي يُهْبَطُ عليهم منها، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، ما خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لها بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قال: وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللَّهِ، إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ...). [1]

وجعل صلى الله عليه وسلم، الحرص على التيسير من مبادئ الخطاب الديني، فعن أَنَسٍ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يَسِّرُوا، ولا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا) [2]، حتى إنه لم يكن يبالغ في تكثيف المواعظ والتوجيهات، فعن ابن مَسْعُودٍ، قال: كان النبي، صلى الله عليه وسلم: (يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ في الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا). [3]

فهذه تأملات تجمل من خلالها سمة الخطاب الديني، الذي ينبغي أن يراعى فيه اختيار الأساليب المنطلقة من الحكمة والموعظة الحسنة، المراعية للظروف والأحوال، الآخذة بالتيسير ورفع الحرج، دون تشدق ولا مغالاة، فإن المُنبتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى، عسى أن يهدي الله المسلمين إلى الرشاد والسداد، وهم يخاطبون الناس بدينهم، انطلاقاً من خير الهدى، والتوجيه الذي وافاهم الله به، وهو القائل جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} (الأحزاب: 70 - 71)

سائلين الله تعالى كذلك أن يبعدنا والمسلمين جميعاً عن الغلو والتطرف، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا تعبر بجلاء عن حقيقة إسلامنا العظيم وحكمته، وذلك مأمول منا إن اتقينا الله في ديننا، واحتسبنا وجهه الكريم في كل ما يصدر عنا من أقوال وأعمال ومواقف.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط
2. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.
3. التخريج نفسه

إياكم والهرج

فُجعْنا وكل غيور من حوادث القتل المفزعة، التي توالى وقوعها مؤخراً في مواقع عديدة من بلادنا الحبيبة، وللأسف الشديد أن القاتل والمقتول من أبنائنا وإخواننا، وثياب معظمها الرعونة القاتلة، والاستهتار بحرمة الدماء، واتباع العصبيات، والانسياق وراء الغضب وشره، والعنجهيات وويلاتها، وإذا ما أضيف لهذه الحالات البغيضة ما يحدث من استهتار بأرواح أبناء شعبنا من قبل عدوه، إذ لا يكاد يوم يمر دون أن يرتقي بسبب بطشه شهداء تلو شهداء، من الشباب والشيب، والنساء والرجال، حتى الأطفال الرضع، والشيوخ الركَّع، لم يسلموا من وبال استهداف آلات القتل والدمار المعادية، وبالإضافة إلى هذا الجانب هناك القتل الممارس ضد أبرياء الناس في ربوع بلاد العرب والمسلمين، بين فئات متناحرة، وكلها يدعي الوصل بالحق والطهر، وهما من غالبيتهم براء.

وهناك القتل الذي يستهدف آمنين حتى من غير المسلمين، في بقاع كثيرة من أنحاء الدنيا، وبعضه يمارس وللأسف باسم الدين، بل باسم الإسلام والمسلمين، فحالات القتل كثرت، سواء ما كان منه جماعياً في الطائرات والأماكن العامة، أم فردياً خلال شجارات مختلفة، أو تربص بإنسان، بسبب خصومة، أو من أجل سرقة، أو غير ذلك من الأسباب.

في خضم هذه الموجات المتلاطمة من جرائم القتل المروِّع يتساءل المرء عن مدى شمول مجموع حالات القتل المشار إليها أعلاه في مضمون مفهوم الهرج الذي أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه علامة من علامات الساعة، وفسر، صلى الله عليه وسلم، كثرته بانتشار القتل وشيوعه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ، وهو الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حتى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ). (*)

* صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات

والهـرج في اللغـة هـو الفتنـة والاختـلاط، وأصـل الهـرج الكـثرة في الـشيء، والهـرج القتـل بلسـان الحبشـة. (*) فالقتـل وكثرتـه مـن علامـات قـرب قيـام السـاعة، وهو من السـلبيات الـتي ينبغـي الحـذر مـن اقترافهـا وشـيوعها.

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله:

اقـتراف جرائـم القتـل وجـد منـذ وجـدت الأسرة الإنسـانية الأولى عـلى وجـه البسـيطة، حيـث قتـل ابـن آدم أخـاه، وعن بعـض مجريات هذا الحـدث الفظيـع، يتحدث القـرآن الكريم، فيقـول جـل شـأنه: {وَاتْـلُ عَلَيْهِـمْ نَبَـأَ ابْـنَيْ آدَمَ بِالْحَـقِّ إِذْ قَرَّبَـا قُرْبَانـاً فَتُقُبِّـلَ مِـن أَحَدِهِمَـا وَلَمْ يُتَقَبَّـلْ مِـنَ الآخَـرِ قَـالَ لَأَقْتُلَنَّـكَ قَـالَ إِنَّمَـا يَتَقَبَّـلُ اللّهُ مِـنَ الْمُتَّقِينَ* لَـئِن بَسَـطتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَـاْ بِبَاسِـطٍ يَـدِيَ إِلَيْـكَ لَأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللّـهَ رَبَّ الْعَالَمِـينَ* إِنِّي أُرِيـدُ أَن تَبُـوءَ بِإِثْمِـي وَإِثْمِـكَ فَتَكُـونَ مِـنْ أَصْحَـابِ النَّـارِ وَذَلِـكَ جَـزَاء الظَّالِمِـينَ* فَطَوَّعَـتْ لَهُ نَفْسُـهُ قَتْـلَ أَخِيـهِ فَقَتَلَـهُ فَأَصْبَحَ مِـنَ الْخَاسِرِيـنَ* فَبَعَـثَ اللّـهُ غُرَابـاً يَبْحَـثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَـهُ كَيْـفَ يُـوَارِي سَـوْءَةَ أَخِيـهِ قَالَ يَـا وَيْلَتَا أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْـلَ هَــذَا الْغُـرَابِ فَـأُوَارِيَ سَـوْءَةَ أَخِـي فَأَصْبَـحَ مِـنَ النَّادِمِـينَ} (المائـدة: 27 - 31)

فالحـوار الـذي سـبق وقـوع جريمـة القتـل الأولى في حيـاة البـشر، يشـير إلى بعـض الأبعـاد النفسـية واللفظيـة والأخلاقيـة الـتي تخللـت مجريـات هـذا الحـدث الجلـل، فالمسـتهدف بالقتـل عـبر عـن نـوازع الخـير المخزونـة في نفسـه، والـتي منهـا تنطلـق أقوالـه وأفعالـه، فقـال: {إِنَّمَـا يَتَقَبَّـلُ اللّـهُ مِـنَ الْمُتَّقِـينَ}، وقـال: {إِنِّي أَخَـافُ اللّـهَ رَبَّ الْعَالَمِـينَ}، وحـاول أن يـردع القاتـل عـن ارتـكاب جريمتـه، وأخـيراً خلـص إلى قـول: {إِنِّي أُرِيـدُ أَن تَبُـوءَ بِإِثْمِـي وَإِثْمِـكَ فَتَكُـونَ مِـنْ أَصْحَـابِ النَّـارِ}. وكل هـذا لـم يمنـع الـشر أن يقـع، فحدثـت الجريمـة المشـهودة الـتي يذكرهـا النـاس مـن أبنـاء آدم، عـبر تاريـخ وجودهـم المتواصـل والطويـل.

والـذي تسـوغ لـه نفسـه اقـتراف جريمـة قتـل بحـق بـريء مـن البـشر، إنمـا هـو مـن المبشريـن بالنـار، وبئـس المصـير، كمـا بـشر بهـا هابيـل أخـاه وقاتلـه قابيـل.

* عمدة القاري، 2 /92.

ومنذ وقوع جريمة القتل الأولى في تاريخ البشرية، أرسى الله جل شأنه قاعدة ثواب إنقاذ النفس البريئة، وإثم قتلها، فقال عز وجل: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}(المائدة: 32)

وكثيرة هي الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي تبشع جرائم القتل الظالم، بغض النظر عن اسم القاتل أو المقتول، وعقيدتهما ولونهما ولغتهما وجنسيتهما، وما دام الاستهتار مستمراً ويُمارس بخاصة بحق دماء المسلمين من قبل إخوانهم في الدين، فقد يفيد التذكير ببعض المنفرات الدينية من هذه الخطايا.

كل المسلم على المسلم حرام:

المسلم الحق يجد ما يردعه عن قتل أخيه، والانتقاص من قدره والحط من حقوقه؛ لأنه يعلم حرمة أخيه عليه، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)(*)

فكل المسلم على المسلم حرام، وليس جزأه، فدمه وماله وعرضه حرام، والذين يتجاهلون هذا التحريم، إنما يميلون عن جادة الحق، ولو زعموا أنهم من أتباعه وأنصاره، حيث لن ينفع مثل هذا الزعم الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء، وتجرأوا على الله في إزهاق أرواح منحها الله الحياة، فاعترضوا سبيلها ببطشهم وسلاحهم، فباءوا بغضب من الله، واستحقوا جهنم التي أعدها الله للقتلة الظالمين، فقال جل شأنه: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} (النساء: 93)

*صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

فجزاء القتل الظالم الخلود في جهنم، وغضب الله، ولعنته، وفوق ذلك عذاب عظيم، الله أعلم بكنهه، وشكله، ووقعه.

ويحرم قتل المؤمن إلا إذا ارتكب جرائم عقوبتها القتل، حسب ما حددت الشريعة، وتلك الجرائم محدودة بينة، فعن عبد اللَّهِ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنِّي رسول اللَّهِ، إلا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ؛ الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، والتَّارِكُ لدينه، المفارق لِلْجَمَاعَةِ)[1]

القاتل والمقتول في النار:

قد يظن المتناحرون من المسلمين أن اقترافهم القتل ضد أبناء دينهم مبرر، والحقيقة أن الشيطان يسول لهم ذلك؛ لأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، توعد القاتل والمقتول بنار جهنم، فعن الْحَسَنِ، قال: (خَرَجْتُ بِسِلَاحِي لَيَالِيَ الْفِتْنَةِ، فَاسْتَقْبَلَنِي أبو بَكْرَةَ، فقال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قلت: أُرِيدُ نُصْرَةَ ابن عَمِّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إذا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَكِلَاهُمَا من أَهْلِ النَّارِ، قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ، فما بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قال: إنه أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ)[2]

وفي الأحاديث المختارة، عن ابن عباس، أن رجلاً أتاه، فقال: (أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا؟ قَالَ: {جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}، قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، مَا نَسَخَهَا شَيْءٌ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا نَزَلَ وَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ: وَأَنَّى لَهُ بِالتَّوْبَةِ، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ: رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا، يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِيَسَارِهِ، وَآخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْخَبُ وَدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ الْعَرْشِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلَنِي؟)[3]

1. صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم
2. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما
3. مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين.

وأي مساعدة يقدمها المسلم لشخص أو جهة تؤدي إلى الإعانة على قتل مسلم، إنما هي مشروع شر وإثم.

والذي يخسر رحمة الله، فقد خسر نفسه، وباء بالفشل والخسران المبين، ومعلوم أن الصالحين لا يدخلون الجنة بأعمالهم، وإنما برحمة الله، فكيف بالذين كتب الله عليهم اليأس من رحمته؟ والعياذ به سبحانه من ذلك. ومعلوم أن القتل بغير حق من ورطات الأمور يوم القيامة، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، قال: (إِنَّ من وَرَطَاتِ الْأُمُورِ التي لا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فيها، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ)[1]

والدماء أول ما يقضى بشأنها بين الناس يوم الحساب، فعن عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنه، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَوَّلُ ما يُقْضَى بين الناس بِالدِّمَاءِ)[2]

والقتل الظالم من أبشع الآثام وأكبر الكبائر، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لن يَزَالَ الْمُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ من دِينِهِ، ما لم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا)[3]

وأصحابه ومرتكبوه من الذين يبغضهم الله، فعن ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَبْغَضُ الناس إلى اللَّهِ ثَلاثَةٌ: مُلْحِدٌ في الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ في الْإِسْلامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ)[4]

وهو من السبع المهلكات، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ).[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم} (النساء: 93)
2. التخريج نفسه.
3. التخريج نفسه.
4. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق
5. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون...} (النساء: 10)

إثم قتل المعاهد:

قد يظن من يقرأ هذه السطور أن الإسلام يشدد على تحريم قتل المسلمين، ويهوِّن أو يُسوِّغ قتل غيرهم بغير حق، والحقيقة غير ذلك، إذ إن قتل غير المسلم بغير حق جريمة ينكرها الإسلام، ويحاسب على اقترافها، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَن قَتَلَ مُعَاهَدًا، لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ من مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا).(*)

والنفس البشرية دمها مصون، والله حين مدح المؤمنين، عدد من صفاتهم أنهم لا يقتلون النفس التي حرم الله، فقال جل شأنه: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً} (الفرقان: 68)، ولفظ النفس عام، يشمل كل نفس لم ترتكب جريمة تستحق العقاب بالقتل.

القصاص من القاتل:

حتى لا يستشري القتل، وحتى تُطوَّق جرائمه، فرض الإسلام القصاص من القاتل الذي تثبت إدانته بجريمة القتل، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة: 178) وتطبيق هذه العقوبة يقي المجتمع من عادات الثأر، وقتل الأبرياء بجريرة غيرهم، من هنا كان الوصف القرآني الرائع للقصاص بأنه حياة، فقال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: 179)، فالقصاص يقي المجتمع من اتساع نطاق القتل، ويحمي البريء من أن يؤخذ بجريرة غيره، ولا يكون القتل قِصاصاً إلا لقاتل اعتدى على غيره بالقتل، أما من كانت جريمته دون ذلك، فيعاقب عليها بالمماثلة التي فرضها الله جل ذكره بقوله: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ

*صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}. (المائدة: 45)

ومع ذلك، فقد نهى الله صاحب الحق بالقصاص عن الإسراف في القتل، فقال جل شأنه: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} (الإسراء: 33)

والقصاص يكون حال القتل العمد، أما إذا عفا ولي المقتول، وفي حال القتل الخطأ فتكون الدية، لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} (النساء: 92)

ويقول سبحانه: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} (النساء: 93)

سائلين الله العلي القدير أن يقي أبناء أمتنا شر القتل وويلاته، فلا يقعوا ببراثنه، ظالمون معتدون، ولا يقع عليهم ظلماً وعدواناً.

تجنب الاستخدام السيئ لوسائل الاتصال الحديثة

كان الناس منذ زمن قريب، وما يزالون يشاهدون ما تعرضه الشاشات المرئية من سينما وتلفاز، التي عُدت وسائل ترفيه وتثقيف وتعليم، غير أنها في كثير من الأحيان تعرض ما يفسد الأخلاق، وما يشوش على التربية السوية، بل يعطلها عن أداء دورها في بناء الأجيال، وحراسة القيم والأخلاق، من هنا فإن الموقف الديني من تلك الوسائل وما شابهها يقوم على أساس الإباحة المشروطة بخلوها مما يحرِّم الشرع، وابتعادها عن المفسدات التي تتناقض مع القيم النبيلة، ثم تسارع التطور العلمي في مجال توفير وسائل عرض المعلومة وإيصالها، فبلغ حداً فائقاً في السهولة واليسر، وتوافرت تلك الوسائل للصغير والكبير، والمتعلم والأمي، حتى بات الناس يعانون من إدمانهم ومن حولهم من أبناء وأزواج وأصدقاء على الانشغال باستخدام تلك الوسائل عن متابعة الأعمال الواجبة، والمشاركة في التواصل الاجتماعي المباشر، فتجدهم صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، يحملون الأجهزة الخلوية، أو الحاسوبية، ويتواصلون مع من هب ودب من الناس، من خلال ما بات يطلق عليه الشبكات العنكبوتية، أو مواقع التواصل الاجتماعي، وغيرها، وبعضهم يضع سماعات في أذنيه ليتمكن من سماع المتواصلين معه إلكترونياً، وتنشغل أصابعه بالكتابة النصية التي يرسلها لمن يريد من المتواصلين، ويطول ببعضهم المقام في هذا الانشغال على حساب كثير من الواجبات الدينية والاجتماعية والأسرية اللازمة، وفي كثير من الأحيان على حساب أدب اللياقة في المحادثة والمقابلة والمجالسة، مما يجلب لتلك الوسائل سلبيات يمكن تلافيها، واستثمار ما فيها من نفع وخير، لو أُحسن استخدامها دون مبالغة، وفي إطار من ضوابط الشرع وقيمه.

وفيما يأتي وقفة عند عينة من سلبيات الاستخدام السيئ لهذه الوسائل، وبعض طرق علاجها.

الإدمان عليها على حساب الواجبات الأخرى:

من أبرز سلبيات الاستخدام السيئ لوسائل الاتصال الحديثة، الإدمان عليها، إذ يصبح المستخدم شبه أسير لجهاز الاستخدام، لصيقاً به، لا يفارقه إلا بشق الأنفس، وحين تحدث المفارقة المحدودة له، يبقى الذهن منشغلاً به، وتبقى النفس تواقة للعودة إليه، وإن حدث عطل عرقل استخدامه، فإن حالة من التوتر والعصبية والغضب تسود الموقف وتطغى عليه.

وعند حصول الإدمان على هذا الاستخدام، يتوقع أن يحصل تقصير في أداء بعض الواجبات الدينية والاجتماعية والتعليمية، إضافة إلى التأثير السلبي في صحة المستخدم، فبالنسبة إلى التقصير في الواجبات الدينية، فقد يُشغل شَغفُ مواصلة التواصل عن أداء الصلاة في وقتها أو جماعة، إضافة إلى أن طول السهر الذي يُقضى في التواصل يفوت على المرء القدرة على الاستيقاظ مبكراً في الصباح لأداء صلاة الفجر قبل بزوغ الشمس، وفي هذا تقصير وخلل واضح، والله تعالى عرّض بالانشغال بمفيد الأعمال كالتجارة، والبيع عن ذكر الله تعالى، من خلال ثنائه سبحانه على غير المنشغلين بمثل ذلك، فقال جل شأنه: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} (النور: 37).

والإدمان على استخدام وسائل الاتصال يقلل من حافزية التفكير بآيات الله المحيطة بالإنسان، ويقلل من فرص القدرة على قراءة القرآن الكريم وحفظه، وتعلم تأويله، فيفقد صاحبه خيراً وعده الله للمتفقهين في الدين، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (مَن يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ) (*)

* صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل

أمـا بالنسـبة إلى تسـبب الإدمـان بالتقصـير في أداء الواجبـات الاجتماعيـة، فليـس أدل علـى ذلـك مـن التقصـير الحاصـل بـين الزوجـين تجـاه بعضهمـا بعضـاً، وكذلـك التقصـير مـع الوالديـن بسـبب الانشـغال عنهمـا، وعن تلبيـة حاجاتهمـا والتواصـل الحميم معهمـا، والتقصير في متابعـة شـأن الأبنـاء، مـن جهـة التربيـة والتعليـم، وتقويـم السـلوك، وتوفـير الحمايـة لهـم، والـدفء والحنـان، ممـا يعانـون مـن شـحه بسـبب انشـغال الوالديـن في مشـاغل أخـرى.

التواصل مع جهات مشبوهة ومغرضة وعدوة:

معظـم وسـائل الاتصـال الحديثـة غالبـاً مـا تكـون متاحـة للتواصـل مـع جهـات مفتوحـة، منهـا صديقـة، وأخـرى غريبـة، أو متقمصـة صـورة أشـخاص مألوفـين، وكثـير مـن النـاس عانـوا مـن تبعـات مشـكلات التواصـل مـع جهـات مجهولـة، وتداعيـات ذلـك، ولا تقتصر المعانـاة المشـار إليهـا عـلى جنـس دون آخـر، أو عـلى مراحـل عمريـة دون سـواها، بـل تشـمل الذكـور والإنـاث، والصغـار والكبـار، فقـد خلصـت إحـدى الدراسـات البحثيـة الجامعيـة إلى أن غالبيـة المبحوثـين عـلى مسـتوى جامعـات الجزائـر يمتلكـون أجهـزة الهواتـف المحمولـة، وذلـك بنسـبة (93.62 %)، وتعـد فئـة الإنـاث هـي الأكـثر امتلاكًا لأجهـزة الهواتـف المحمولـة، مقارنـة بفئـة الذكـور؛ حيـث سـجلت نسـبة (96.26 %) لـدى فئـة الإنـاث، والملاحـظ أنـه لا توجـد فـروق بـين النوعـين في امتـلاك الهاتـف المحمـول الـذي أصبـح في متنـاول شرائـح المجتمـع جميعهـا.(*)

ومعلـوم أن بعـض الجهـات المشـبوهة تسـتخدم تقنيـات وأسـاليب خداعـة، تنطلي أحابيلهـا عـلى كثـير مـن متلقـي الاتصـالات، أو المشـاركين في الدردشـات عـن بعـد، كونهـم يقـرأون، أو يسـمعون كلامـاً معسـولاً، وقـد يكـون مقصـوداً لمراعـاة مـزاج الشـخص المقصـود بأهدافهـم التغريريـة، وهـواه، وميولـه، عـلى طريقـة وضـع السـم في الدسـم، وبعضهـم يصـدم باكتشـاف فاجعـة التغريـر بعـد أن يكـون قـد وقـع في وحـل التوريـط، وقبضـت

* عنـوان الدراسـة: أثـر وسـائل الاتصـال والإعـلام الحديثـة عـلى سـلوكيات وقيـم الشـباب الجزائـري، رابـط الموضـوع: http://www.alukah.net/publications_competitions/0/54835/#ixzz3m4h0mnYl

عليه مستمسكات إدانة تتعلق بالأخلاق أو الأمن، ويكون ذلك من أسباب وقوع بعض المتورطين في وحل العمالة والجاسوسية للأعداء، وهو بهذا يكون قد استرسل في الأخطاء القاتلة، متناسياً أن الرجوع إلى الحق أولى بكثير من التمادي في الباطل وأسلم.

التفكك الأسري والمشكلات الزوجية:

من أخطر أسباب التفكك الأسري في عصر تكنولوجيا الاتصالات الحديثة، الاستخدام السيئ لوسائلها من طرف الأزواج، والآباء والأبناء، مما يؤثر سلباً في علاقاتهم المتبادلة مع بعضهم بعضاً، فبمثل هذا الاستخدام ضعفت الوشائج بين أفراد الأسرة الواحدة، فالانشغال بها يكون على حساب حرارة العلاقة بينهم، فتبادل المشاورات في أمور الأسرة، وتجاذب الحديث بين أفرادها، والمشاركة في أحزان بعضهم بعضاً وأفراحهم، كل ذلك ضعفت وتيرته، أمام وجود اتصالات متاحة مع أصدقاء، أو شركاء آخرين على مدار الساعة، حتى إن بعض الأزواج صار يجد في محدِّثه، أو المتواصل معه عبر هذه التكنولوجيا بديلاً يغني عن تواصله مع زوج صار مألوفاً لديه، أو مملولاً من قبله، كما أن جزءاً لا يستهان به من مشكلات الأزواج التي تصل أحياناً إلى حد الانفصال والطلاق، سببها استسهال الاستخدام السيء لوسائل الاتصال المتاحة من قبل بعض الناس من مختلف الفئات العمرية، وهذا التواصل قد يكون بين أفراد من الجنس نفسه؛ يعني ذكوراً مع ذكور، وإناثاً مع إناث، إلا أنه يتم على حساب الشريك في الحياة الزوجية، والأخطر حين يتم بين أحد الزوجين وطرف من الجنس الآخر، يعني رجل مع امرأة أجنبية عنه، أو امرأة مع رجل أجنبي عنها، إذ يقوم بعضهم أو بعضهن بتجاذب الحديث حول الخصوصيات، والدخول في تفاصيل علاقات غرامية وجنسية قد يحجبها بعضهم عن زوجه، ونعني بالحالة الأجنبية هنا تلك التي يكون فيها الطرف المقابل ليس زوجاً، ولا محرماً شرعياً، مثل زميل العمل، أو الدراسة، وذوي القربى غير المحرمين، وغير أولئك من متبادلي التواصل والدردشات على مختلف أشكالها، فحين ينشغل أحد الزوجين مع واحد من أولئك على حساب وقت شريكه الشرعي، إنما يرتكب تقصيراً بحقه، قد تصل

فظاعته إلى حد الخيانة والإثم الفادح، الذي يسبب في أحيان كثيرة في إحداث شرخ في بنية العلاقة بين الزوجين، قد يصل مداه إلى حد الكراهية والعداوة بينهما، سواء بقيا في رباط شكلي، أو انفصمت عرى رباطهما الزوجي بالطلاق.

ومن العجيب أن بعض الأزواج يهدد جاداً شريكه بالانفصال عنه إن أصر على العودة إلى التواصل عبر الهواتف المحمولة أو شبكات التواصل الأخرى مع أناس لا يرغب في تواصله معهم، لتضرره من ذلك نفسياً أو معنوياً، أو لشعوره بارتكاب خيانة ضده، إلا أن بعض المهددين يتجاهلون تلك التهديدات، ويعودون بأساليب مختلفة إلى مخالفة طلب الشريك، وجرح مشاعره، غير آبهين بالنتائج التي قد تعصف برباط الزوجية وببنية الأسرة.

ضبط استخدام وسائل الاتصال هو العلاج:

عينة السلبيات المشار إليها آنفاً للاستخدام السيئ لوسائل الاتصال الحديثة، لا يعني ذكرها، أو الوقوف عندها مناصبة تلك الوسائل التقنية العداء، أو الدعوة إلى هجرها، فمن يحمل مثل هذه المواقف يتجاهل واقعاً موجوداً، ويعيش في خيال مطبق، ووهم صارخ، فقد انتشرت كثير من هذه الوسائل بين معظم طبقات الناس، وفئاتهم انتشار النار في الهشيم، حتى إن بعضهم يشتري أجهزة الاتصال بمال هو في أمس الحاجة إليه، لقضاء حاجات أساسية تخصه شخصياً، وذلك دليل على التعلق بها، وشدة الرغبة في اقتنائها، والحرص على استخدامها، ما يعني ضرورة استبعاد فكرة الدعوة إلى محاربتها، والتفكير في التعايش معها في ظروف ومواصفات تقلل من أضرارها، وتستثمر خيرها في مجالات النفع والخير، وذلك ممكن جداً، لو توافر الوعي، والقصد، ووجدت الإرادة، فكل المطلوب أن يتم ضبط استخدام هذه الوسائل، من خلال تقنينه، وتجنب شره وأذاه، وتنمية مجالات خيره ونفعه، وهي كوسائل كثيرة أخرى، إن استخدمت في الخير نفعت، وإن استخدمت في الشر أضرت، فهي لا تختلف حتى عن أعضاء جسم الإنسان، كاليد والعين والرجل واللسان، إن استخدمت فيما هو خير، خدمت صاحبها وغيره، وإلا فإنها ستسيء إليه وغيره، وفي هذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه سأل والياً له فقال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟

قال الوالي : أقطع يده. قال عمر بن الخطاب: إذاً؛ فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك .إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فأشغلها بالطاعة، قبل أن تشغلك بالمعصية[1].

وهكذا الوسائل التي يستخدمها الإنسان في قضاء حاجاته، كالسكين، إن استخدمها في المباح من الأمور يسرت له الحياة، وإن استخدمها في ارتكاب الجرائم والقتل وتهديد الأبرياء أضحى مجرماً آثماً، وقد تكون عاقبته القتل بها، وهكذا وسائل الاتصال الحديثة، إن استخدمت في الخير فإنها تسهل كثيراً من الصعاب، وتقرب البعيد، وتجعل للحياة مذاقاً جميلاً لا يكمل دونها، أما إذا أسيء استخدامها، فضررها قد يبلغ درجات مدمرة، ومستويات فاجعة، والعياذ بالله.

فمن أبرز خطوات معالجة سوء استخدام وسائل الاتصال الحديثة أن تتم توعية الناس بالأضرار التي تنتج عن مثل هذا الاستخدام، إلى جانب التوعية الخاصة بتحفيز المستخدمين على الانحياز إلى تقنين استخدامها؛ ليقتصر ذلك على حيز معقول من الوقت، لا يؤثر سلباً في الحيز الزماني المطلوب للحاجات الضرورية الأخرى، سواء أكانت علمية أم دينية أم اجتماعية أم أسرية، أم أنشطة أخرى رياضية، كانت أم ثقافية، أم ترفيهية، ويقع على عاتق الجهات المسؤولة عن الاتصالات العامة وتنظيمها واجب كبير تجاه ضبط استخدام هذه الوسائل، سواء من ناحية التوعية، أم الإجراءات، وأولياء الأمور يتحملون مسؤولية عظيمة في هذا المجال، فهم العين الساهرة على مصالح أبنائهم ورعيتهم ، فينبغي أن يكونوا قدوة حسنة لهم ، وأن يراقبوا سلوكهم ، ويقوّموه، دون تردد أو تراخٍ، فالأمر جلل، والخطب صعب، فإذا غفلت عيونهم عن أبنائهم ، فقد تحدث عواقب وخيمة، يفجع لهولها الآباء والأمهات قبل غيرهم .

---

* ملتقى أهل الحديث: 9/ 378.

الإسلام منارة فلا تجعلوه مغارة

ورد في معاجم اللغة العربية أن المنار والمنارة: موضع النُّور. والمَنارَةُ الشَّمْعة ذات السراج. والمَنارَةُ التي يؤذن عليها، وهي المِئْذَنَةُ؛ والمَنارُ: العَلَمُ، وما يُوضَعُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ من الحُدودِ، ومَحَجَّةُ الطَّرِيقِ. [1]

والمغارة: يقال غارَّتِ السوقُ، تُغارُّ غراراً: إذا كسدت، وناقة مُغارٌّ إذا ذهب لبنها لحَدث أَو لعلَّة، ومنهم من قال ذلك عند كراهيتها للولد، وإنكارها الحالِبَ. وعن ابن السكيت: غارَّت الناقةُ غراراً، إذا دَرَّت، ثم نفرت، فرجعت الدِّرَة.[2]

من منطلق المعاني اللغوية للمنارة والمغارة، يأتي العنوان أعلاه، متضمناً الدعوة للإبقاء على الإسلام منارة للعلم، والخير، والصلاح، والرشاد، والهدى، كما أراده الله تعالى، في مقابل لزوم العمل على النأي به عن الانطفاء، والتقوقع، والانحصار في زوايا انتقائية، أو تشويهية، كما يحلو لفئات من المسلمين أن يصنعوا، مشكلين بهذا المنهج رأس الحربة في إطفاء نور الإسلام، سواء أكانوا على دراية بما يصنعون، أم كانوا يجهلون أو يغفلون.

شتان بين الظلمات والنور:

الإسلام في الأصل الطاهر النقي، دين مهمته إخراج الناس من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى في فاتحة سورة إبراهيم: {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}. (إبراهيم: 1)

وقوله تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. (البقرة: 257)

---

1. صحاح اللغة، والقاموس المحيط، ولسان العرب
2. المراجع السابقة.

وعلى خلاف منهج الله، الذي يهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإن بعض من يدّعون العمل للإسلام، يسيرون على نهج التردي المخزي، المفضي إلى العودة إلى ظلمات الجاهلية، بعد نعيم النور الذي تم الاهتداء إليه بفضل هداية الله إلى الصراط المستقيم، والله تعالى يقول: {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (المائدة: 16)، والفرق شاسع بين الظلمات والنور، وأهل كل منهما، إذ يقول تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}. (الأنعام: 122)

ومهمة الإخراج من الظلمات إلى النور كُلف بها الرسل جميعاً، عليهم السلام، وخاتمهم الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} (الأحزاب: 43).

وعن مهمة نبي الله موسى، عليه السلام، بهذا الشأن يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}. (إبراهيم: 5)

استعار الحرب التشويهية للإسلام:

الحرب المسعورة لإطفاء نور الإسلام من طرف أعدائه، انطلقت مع نشأة الدعوة الإسلامية، وما زالت قائمة، وتتصاعد وتيرتها في صورها الظاهرة والباطنة، والله تعالى ذكر هذه الحقيقة في قرآنه الكريم، مبيناً تصديه لحملات إطفاء نور الإسلام، ومقرراً بجبروته وقدرته وإرادته سبحانه وتعالى أن نور الله لن يطفأ، فقال تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. (التوبة: 32)

من هنا؛ استخدم بعض المتربصين بالإسلام أسلوب الدخول في الإسلام، ثم تركه ليخدعوا الناس، ويؤثروا فيهم، من خلال نقل رسالة تضليلية لهم، تفيد أن تجربتهم في الإسلام أثبتت لهم عيوبه، مما دفعهم إلى الردة عنه، مع أنهم لم يدخلوه أصلاً، إلا لهذه

الغاية التضليلية، التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. (آل عمران: 72)

أساليب وأحداث تشويهية معاصرة:

في بدايات القرن الميلادي الحالي، استحدث أسلوب التخويف من الإسلام، من خلال صناعة أحداث، أو استغلال أخرى، من أجل البرهنة على أن الإسلام دين يغذي الإرهاب، أو يصنعه، حتى أصبحت هذه الصفة لصيقة بالإسلام بصورة أو بأخرى، ومما يعزز هذا المنحى الظالم ما يصدر عن بعض المسلمين أفراداً وفئات من ممارسات، وأقوال، وفتاوى، تصب في خدمة غرض تشويه الإسلام بتصويره مصدراً للإرهاب، والإلصاقات تلك كثيرة ومتنوعة، ينبثق بعضها من تعامل المسلمين مع أنفسهم، وبعضها مع غيرهم، والتي كان من أحدثها زمناً حادثة خطف عشرات الفتيات، من مدرسة ثانوية للبنات، يوم 14 نيسان 2014، في قرية تشيبوك بولاية بورنو النيجيرية، قرب الحدود مع الكاميرون، حيث تم خطفهن في أثناء أدائهن الامتحانات، وتمكنت 50 فتاة من الهرب، وللأسف أن هذا الحادث ينسب فعله إلى فئة مسلمة، تزعم أنها تريد إقامة دولة إسلامية في نيجيريا، ما دفع دولاً مثل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، إلى عرض المساعدة في البحث عن الفتيات، فيا للعار والشنار!!

وندد علماء دين ومسؤولون عن حقوق الإنسان في منظمة التعاون الإسلامي، وهي أكبر هيئة إسلامية في العالم، وتمثل 57 دولة بخطف الفتيات، ووصفوه بأنه "تشويه لصورة الإسلام".

وقال الأزهر الشريف، وهو أهم مرجعية للمسلمين السنّة في العالم، في بيان أصدره بالخصوص، في القاهرة، مبيناً: أن خطف الفتيات "لا يمت لتعاليم الإسلام السمحة والنبيلة بأي صلة."

ووصفه وزير الأوقاف المصرى محمد مختار جمعة، بأنه عمل "إرهابي"، وندد به المفتي العام للسعودية، ووصف الذين قاموا به، بفئة مدبرة لتشويه صورة الإسلام؛

لأن الإسلام ضد الخطف، والقتل، والعدوان، ورفض تزويج الفتيات المخطوفات من قبل خاطفيهن، فالزواج ليس بيد الغاصبين.[1]

والإسلام يرفض خطف فتيات من أهل الكتاب، والإعلان عنهن سبايا، دون دراية بحكم السبي، وموقف الإسلام العملي من القضاء على ظاهرته، التي باتت مرفوضة عالمياً، وهي مرفوضة إسلامياً من منطلق الحرص على احترام كرامة الإنسان، وحقه بالحياة الكريمة، وممارسة حريته في الاعتقاد والتفكير، والتصرف ضمن دائرة الضوابط العامة، التي شرعها الإسلام، أو أقرها في منظومة قيمه، ومبادئه، وتشريعاته، التي بها نجح الإسلام في المساهمة في القضاء على ظاهرة الجواري والسبايا، التي ما تعامل بها أصلاً إلا في نطاق ضيق؛ نظراً للواقع الذي نزل فيه، وكان يسوده هذا التعامل، وحصر العمل به في جانب المعاملة بالمثل؛ حتى يرتدعوا عن الاستهانة بنساء المسلمين، ورجالهم، وأبنائهم.

والقتل الظالم المعاصر الواقع بين فئات المجتمعات المسلمة جراء الاختلاف في المواقف والآراء والاجتهادات، دليل واضح على بشاعة التطرف والمغالاة، التي تقود إلى استباحة دماء الأبرياء، وشرعنة قتل الآمنين، مجانبين بذلك التوجيهات الربانية الصارمة بهذا الشأن، التي ترى أن القتل الظالم لبريء، يعدل في ميزان الله قتل الناس جميعاً، وفي ذلك يقول تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}. (المائدة: 32)

وتوعد الله المتهاونين بقتل الأبرياء والمصلحين من الناس، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. (آل عمران: 21)

ووفق هذه المعايير، كيف يفسر الاجتراء على الله بقتل سائق شاحنة؛ لأنه لم يستطع الإجابة عن سؤال عن عدد ركعات صلاة الفجر تحت تهديد السلاح، كما نقل عن حادث وقع على أرض الشام مؤخراً؟![2]

1. دنيا الوطن، ttp://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2014/05/09/534985.html#ixzz31FSmWbpH
2. دنيا الوطن. http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2014/05/10/535007.html#ixzz31HH7HWfw

التشويه من خلال الإفراط في تطبيق الحدود:

في إقليم اتشيه الإندونيسي، الذي يوصف بأنه يطبق الشريعة الإسلامية، أعلنت الشرطة أنه سيتم تطبيق عقوبة الجلد بعصي الخيزران على ثلاثة رجال، أُحتجزوا بعد اتهامهم بالاغتصاب الجماعي لامرأة، زعموا أن لها علاقات جنسية خارج رابطة الزواج. وقال قائد شرطة تطبيق الشريعة الإسلامية بضاحية لانجسا، بإقليم اتشيه الإندونيسي، إن المرأة سيتم جلدها بعصا الخيزران هي الأخرى، لما زعم عن ممارستها الجنس مع رجل متزوج. علماً أن الحكومة المركزية في جاكرتا، وافقت على تطبيق إقليم اتشيه الإندونيسي للشريعة الإسلامية على نحو صارم، منذ بداية العقد الأول من الألفية الثالثة، لتهدئة مطالب إقليم اتشيه بالاستقلال.[1]

فتطبيق الشريعة لا يعني الظلم، أو ممارسة الرذيلة، بحجة معاقبة أصحابها.

فهل الإسلام جلد ورجم وقطع؟ تساؤل جدير بالطرح، في ظل استعمال بعض الناس تطبيق الحدود في أجواء غير مهيئة شرعياً لذلك، فهي تطبق في إطار ضوابط مقيدة ومحددة، ولا تطبق إلا بعد تهيئة أجواء الطهر والنقاء، وانتفاء الموانع التي منها الشبهات، والظروف الضاغطة، فعمر بن الخطاب لم يطبق حد السرقة عام المجاعة، وأثر عنه قوله لعمرو بن العاص لما ولاه مصر، إذا جاءك سارق ماذا تفعل به؟ فقال عمرو بن العاص: أقطع يده، فقال عمر بن الخطاب: وأنا إن جاءني جائع من مصر قطعت يدك[2]، بخلاف كثير من مشوهي صورة الإسلام الذين يسارعون إلى تطبيق العقوبات والحدود، قبل تهيئة مناخ الطهر، وبيئة العدالة، والأمن، التي يجب بعدها معاقبة من يريد تخريبها، وإفساده بفساده وفواحشه، لا أن يتم البدء بالعقوبات أولاً، مع أن التجارب من هذا القبيل باءت جميعها بالفشل والإخفاق، ومن شواهد ذلك ما حصل في السودان في عهد رئيسه الأسبق النميري، حيث كان الإعلام يبث للناس صباح مساء عن أعداد المجلودين والمرجومين والمقطوعين، مع كثير من الإثارة والتهويل، ثم

---

1. دنيا الوطن http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2014/ 05 /09 /534879.html#ixzz31FYxBnmC
2. الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، 2 /33

ظهرت بعد ذلك بعض الخبايا التي أظهرت أن ما كان يحدث ما هو إلا إشغال للناس عن جرائم ومصائب فظيعة، يذكرها من تابع أحداث تلك الحقبة، وما آلت إليه.

إياكم أن ينطلي عليكم خداع المضللين:

بغض النظر عن المسميات والمصطلحات، فإن استهداف الإسلام بالتشويه، والعمل على تقوقعه، وردة الناس عن الانتماء إليه، يجري على قدم وساق من طرف عالمين، يخططون لأعمالهم جيداً، ويمارسونها بطرق ذكية، وأخرى غبية، وهو يجري كذلك من طرف بعض المنتمين إلى الإسلام، الذين يظهرون حرصاً شديداً عليه، لكنهم يمارسون أعمالهم بطرق آثمة، فيقعون في مطب تشويهه من حيث يظنون أنهم يخدمونه، بتطرفهم، ومغالاتهم، وجهلهم فيه، واختيار ما لا يناسب ظروفهم وأوضاعهم منه.

فالعمل ضد الإسلام على هذا الوجه المعادي، أو ذاك المنحرف، يتسم بالتضليل والخداع، ما يوجب أخذ الحيطة والحذر من الانخداع به، والوقوع في شباكه، مع حاملي لواء إطفاء نوره المبين، وهدم منارة الدين، سواء أكان قصد لذلك أم لم يكن، فأعمال التخبط، والتطرف، تضر الدين، وإن كان لأصحابها نوايا وصيحات تنادي بالعمل له، وحمل لوائه، فلا يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، وبئس عمل الذين يظنون أنهم بتطرفهم يحسنون صنعاً، وهم الخائبون الخاسرون، الظلاميون الذين تصب أعمالهم في جانب ارتكاسة الدين، وخذلان المسلمين، والعودة به إلى المغارة التي تعني تحجيم خيره ومنافعه، وإظهاره بصورة المتقوقع، الذي يهتم بسفاسف الأمور على حساب أمهاتها، متنكبين بذلك درب الرسول، صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح الذين حملوا نور الدين للعالمين، حتى أصبح منارة عز، وشعاع خير للناس أجمعين.

هدى الله المسلمين أفراداً وجماعات إلى فهم دورهم الميمون تجاه دينهم، وأمتهم، وأنفسهم، ليكونوا نوراً لمن اهتدى بأقوالهم، وأعمالهم، وحياتهم.

الفهرس

الفصل الأول/ منارات عقائدية		
.1	ما أحوجنا لدعاء الذين يقسمون على الله فيبرهم	7
.2	لقاء الغد ... وما أدراك ما غد	15
.3	شبكة الأمان الربانية	22
.4	وباء كورونا في ميزان الوقاية وتهدئة الروع في الإسلام	29
.5	فقراء إلى الله	38
.6	لا يرفع الله شيئاً من الدنيا إلا وضعه	48
الفصل الثاني/ من وحي العبادات		
.1	الصائمون والصائمات ما لهم وما عليهم	57
.2	شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن	64
.3	أفلح من صلى وصام وزكى	78
.4	أيها الصائمون، جوائزكم متوجة بالعتق من النار	85
.5	هنيئاً للحجاج طهارتهم من الذنوب والخطايا	92
.6	الحج والتربية على الطاعة المطلقة لله تعالى	101
.7	أيها الحاج... تفكر واعتبر	108
الفصل الثالث/ من قبس التفسير		
.1	هَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟؟	116
.2	سورة الإسراء تبعث الأمل بانتصار الحق واندحار الطغيان	124
.3	متاع الغرور	131

	الفصل الرابع/ من معين الفتوى	
1.	الاهتمام بالرياضة وممارستها من منظور شرعي	139
2.	اسم المرأة ليس بعورة ولا صوتها	150
	الفصل الخامس/في رحاب شمائل النبي وسيرته، صلى الله عليه وسلم	
1.	استذكار سجاياه في ذكرى مولده، صلى الله عليه وسلم	158
2.	ذكرى ميلاد العزيز عليه ما عنتنا، صلى الله عليه وسلم	164
3.	هو النبي لا كذب، صلى الله عليه وسلم	174
4.	تأملات في الهجرة والمناصرة في ضوء آيات الذكر الحكيم والسيرة النبوية	181
	الفصل السادس/ إضاءات منوعة	
1.	هلال ذي الحجة ووحدة الأمة	190
2.	التضامن الإسلامي المُسانَد بولاية الله ورعايته ضرورة لا مناص عنه	198
3.	الصبر والمصابرة والرباط في الحالة الفلسطينية عائلة أبو حميد نموذجاً	207
4.	ذكرى النكبة واستهداف وكالة غوث اللاجئين	217
5.	نصرة الأسرى ومواساة ذوي الشهداء بين الواقع والمأمول	224
6.	معارك طاحنة وقودها نحن ومالنا وعيالنا وقضايانا المصيرية	235
7.	ما بين مجزرتي نيوزيلندا والخامس عشر من رمضان في المسجد الإبراهيمي قواسم مشتركة	241
8.	متحف فلسطين ومسجدا القدس والرابع في كيب تاون	252
9.	أيتها الشقائق حسبكنَّ	265
10.	نفحات من آمال العام الدراسي الجديد وآلامه	273
11.	تأملات في مبادئ الخطاب الديني المنشود وتصوراته	282
12.	إياكم والهرج	290
13.	تجنب الاستخدام السيئ لوسائل الاتصال الحديثة	297
14.	الإسلام منارة فلا تجعلوه مغارة	303